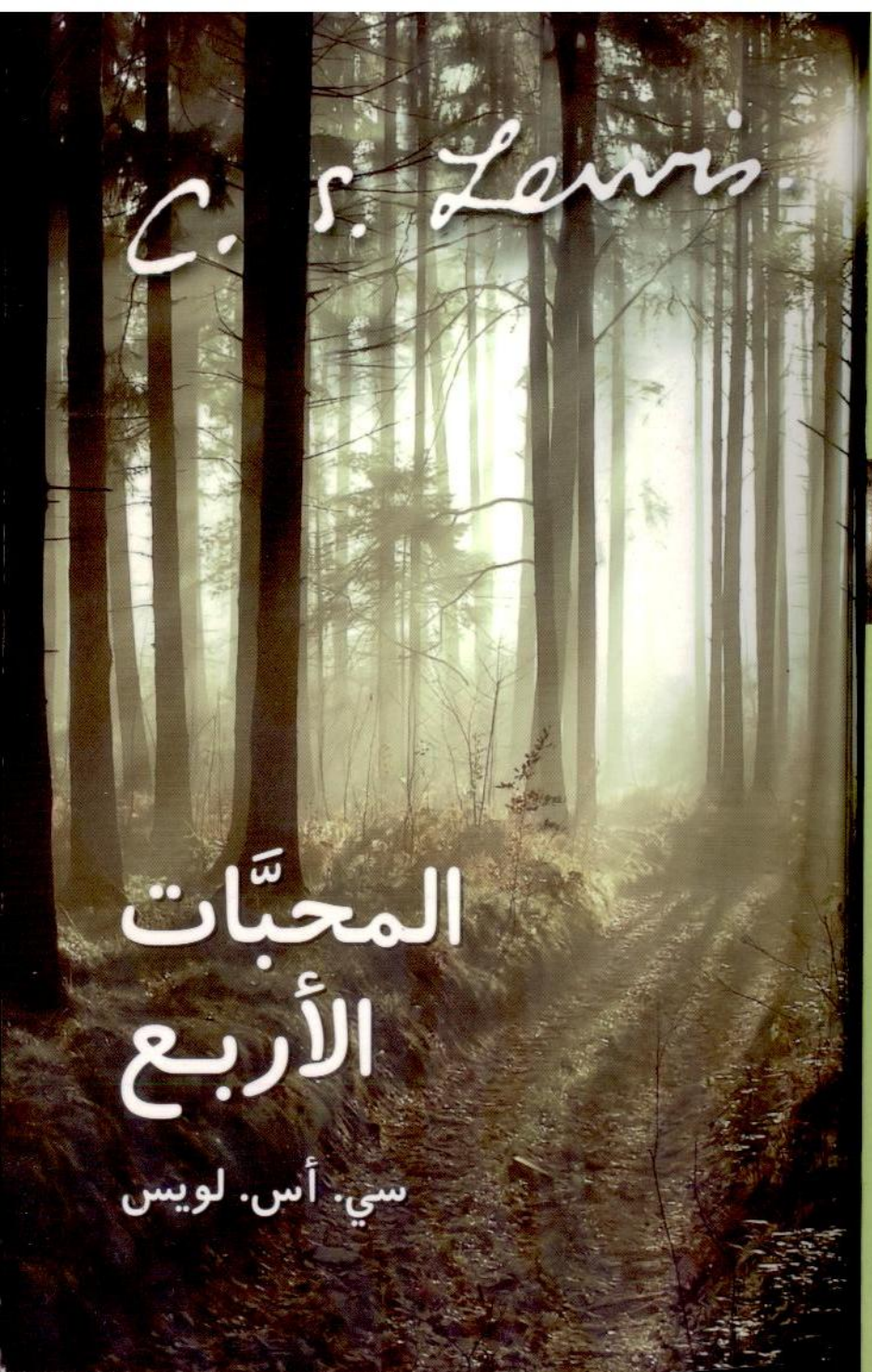

C. S. Lewis.

المحبَّات الأربـع

سي. أس. لويس

C. S. Lewis.

المحبّات الأربع

أوفير
ophir

المحبَّـات الأربـع

"لم يكتُب سي. أس. لِويس قَطُّ ما هو أفضلُ من هذا الكتاب. فكلُّ صفحةٍ تقريبًا تَتَلألأُ بمُلاحظاتٍ مُنوِّرةٍ ومُلهِمَةٍ وأصيلة".

ملايينُ الكلمات كُتِبَت في طبيعة الحبِّ الحقيقيَّة، ولكنَّ القليلَ بينها محكَمٌ إحكامَ ما في هذا الكتاب. فهذا الأثَرُ الإلهاميُّ المركَّز يقسمُ المحبَّةَ أربعَ فئات: الحُبُّ العاطفيّ، والحبُّ الإخوانيّ، والحبُّ الغراميّ، والحبُّ الإلهيّ. والثلاثةُ الأولى تأتي بصورةٍ طبيعيَّة؛ إنَّما دون الحبِّ الإلهيِّ يُبيِّن لِويس كيف يمكن أن يَغدُوَ كلُّ حبٍّ مشوَّهًا ومُرًّا، بل خَطِرًا أيضًا.

C. S. Lewis.

ISBN 90-5950-122-5
9 789059 501225

المحبات الاربع
31.00 LE
6100074

سي. أس. لِويس (C. S. Lewis)

١٨٩٨-١٩٦٣م

كان كلايف ستايپلز لِويس (Clive Staples Lewis)، أحدَ عمالقة الفكر في القرن العشرين، وأحدَ أكثر كُتَّاب عصره تأثيرًا. عملَ مدرِّسًا للأدب الإنكليزيِّ في جامعة أكسفورد حتَّى عام ١٩٥٤م حين اختيرَ في جامعة كامبردج بالتَّزكية لمنصب الأستاذيَّة في الأدب الإنكليزيِّ في فترتَي العصور الوسطى وعصر النهضة، وهو منصبٌ شغلَه حتَّى تقاعُده. كتبَ لِويس أكثرَ من ثلاثين كتابًا، واصلًا بها إلى عددٍ كبير من القُرَّاء، وما تزال أعماله تجدُ ألوفًا جُدُدًا من القُرَّاء سنويًّا. من أهمِّ أعماله "روايات عالم نارنيا" (The Chronicles of Narnia)، و"المسيحيَّة المجرَّدة" (Mere Christianity)، و"رسائل خُربُر" (The Screwtape Letters)، وجميعها متوفِّرة في العربيَّة من أوفير للطِّباعة والنشر.

المحبَّات الأربع

سي. أس. لويس

المحبَّات الأربع

ترجمة: سعيد ف. باز

First Arabic Edition Copyright © 2010 by Ophir, an Imprint of Jabal Amman Publishers. under license from the CS Lewis Company Ltd.

The Four Loves by CS Lewis © C. S. Lewis Pte Ltd. 1960.

All rights reserved. No portion of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means – electronic, mechanical, photocopy, recording or any other – except for brief quotations in printed reviews, without prior permission of the publisher.

المحبَّات الأربع

الطبعة العربية الأولى ٢٠١٠

حقوق الطبع محفوظة

أوفير للطباعة و النشر

ص.ب.٣٠٦٢، ١١١٨١ عمان، الاردن

هاتف: ٧٦٨ ٦٥٦٦٥ ٩٦٢+

فاكس: ٧٦٨ ٦٥٦٣٩ ٩٦٢+

Email: info@ophir.com.jo

www.ophir.com.jo

رقم الإيداع: ٢٠١٠/٧/٢٥٧٠

ISBN: 978-90-5950-1225

جميع الحقوق محفوظة، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقلها، أو استنساخه بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

قائمة المحتويات

١. مُقدِّمة ٩

٢. المُيولُ والمَحبَّات لِما هو دونَ البَشر ٢١

٣. الحُبُّ العاطفيُّ ٥١

٤. الحُبُّ الإخوانيُّ ٨٥

٥. الحُبُّ الغَراميُّ ١٣١

٦. الحُبُّ الإلهيُّ ١٦٥

١

مقدِّمة

يقول الرسول يوحنّا: "الله محبَّة".[١] ولمَّا حاولتُ أن أكتبَ هذا الكتاب أوَّلَ الأمر، خُيِّلَ إليَّ أنَّ قَول الرسول يوحنّا المشهور هذا سيُمهِّد لي سبيلًا سهلًا جدًّا عبرَ الموضوع بكامله. وخُيِّل إليَّ أنَّه ينبغي لي أن أتمكَّن من القول إنَّ المَحبَّاتِ البشَريَّةَ تستحقُّ أن تُدعى مَحبَّاتٍ أصلًا فقط بمقدار ما تُمثِّل تلك المحبَّةَ وأعني بذلك الله. ولذلك كان أوَّل تفريق قمتُ به هو بين ما دعوتهُ "محبَّة المَنح" (Gift-Love) و"محبَّة الاحتياج" (Need-Love). أمَّا المَثلُ النموذجيُّ على "محبَّة المنح" فمن شأنه أن يكونَ تلك المحبَّة التي تدفع رجُلًا ما لأنْ يعملَ ويُخطِّطَ ويوفِّرَ لأجل رفاه عائلته المُستقبليِّ الذي سيَموت من دون أن يشتركَ فيه أو يُشاهِدَه. وأمَّا على المحبَّة الثانية، فتلك التي تدفعُ ولدًا مُوحَشًا أو مَرعوبًا إلى الارتماء بين ذراعَي أمِّه.

١ سيَرِدُ في الكتاب ذكرُ كلمة "محبَّة" مذكرةً، كقولنا مثلًا: المحبَّة ذاته (وليس ذاتها)، وفي هذه الحال، تشير الكلمة إلى الله استنادًا إلى أنَّ "الله محبَّة"، وستكون بلَونٍ غامق (الناشر).

لم يكُن من شكٍّ في أمر أيٍّ المحبَّتين أشبَهُ بالمحبَّة نفسه، أي بالله. فالمحبَّة الإلهيَّة هي "محبَّة مَنح". إذ إنَّ الآب يُعطي كلَّ ما هو عليه ويملِّكه للابن. ويعود الابن فيُعطي نفسَه للآب، ويُعطي نفسَه للعالَم، وللآب من أجل العالَم، ومن ثَمَّ يُعطي العالَم (في نفسه) من جديد للآب أيضًا.

أمَّا من الناحية الأخرى، فماذا يمكن أن يكونَ أقلَّ شبهًا بما نؤمن به بشأن حياة الله من "محبَّة الاحتياج"؟ فإنَّ الله لا يحتاج إلى شيء، ولكنَّ "محبَّة الاحتياج" لدينا، كما رأى أفلاطون، "هي بنتُ الفقر". إنَّها الصُّورة المُنعكسة الدَّقيقة في وعْينا لطبيعتنا الفعليَّة. فنحن نُولَد بائسين بلا عَون. وما إن نغدو واعينَ تمامًا، حتَّى نكتشفَ الوحدةَ والوحشة. إنَّنا نحتاج إلى الآخرين بدنيًّا وعاطفيًّا وعقليًّا؛ نحتاج إليهم إنْ كان لنا أن نعرفَ أيَّ أمر، حتَّى لو كان ذلك الأمرُ أنفسَنا.

كنتُ أصبو إلى كتابة بعض صفات المديح السَّهلة تمامًا في نوع المحبَّة الأوَّل، وبعض كلام الاستصغار والاستهانة في النَّوع الثاني. وما زال كثيرٌ ممَّا كنتُ أنوي أن أقولَه يبدو لي صحيحًا. فما زلتُ أعتقد أنَّه إذا كان كلُّ ما نعنيه بمحبَّتنا أو حُبِّنا هو الاحتياجَ الشديد لأنْ نُحَبَّ، فنحن في حالة يُرثى لها جدًّا. ولكنِّي لن أقولَ الآن (مع أُستاذي، مَكدونَلد McDonald) إنَّنا إن كنَّا نعني هذا التَّوقَ فقط نكونُ مُتوهِّمين شيئًا ليس حُبًّا البتَّة كما لو كان حبًّا. ولا يمكنني الآن أن أرفضَ إطلاقَ التسمية "حُبّ" على "محبَّة الاحتياج". فكُلَّما حاولتُ تخريجَ الأمر بمُوجِب هذه المُعطَيات،

انتهيتُ إلى أحجيَّات وتناقُضات. ذلك أنَّ الحقيقة أكثرُ تعقيدًا ممَّا افترضتُ.

فأوَّلًا، نحن نُلحِقُ تحريفًا بمُعظم اللُّغات، ومنها لغتُنا، إن كُنَّا لا ندعو "محبَّة الاحتياج" حُبًّا. طبعًا، ليسَتِ اللُّغة مُرشِدًا معصومًا، ولكنَّها تَحوي- رُغم جميع عيوبها- قَدْرًا وافيًا من التبصُّر والخبرة المُختزَنين. فإنْ بدأتَ بالهُزء بها، فإنَّ لها طريقةً لتثأرَ لنفسها في ما بعد. وخيرٌ لنا ألَّا نعتمد نهجًا عشوائيًّا في جَعْلِ الكلمات تعني ما يحلو لنا.

وثانيًا، يجب أن نحترسَ من تسمية محبَّةِ الاحتياج "مجرَّد أنانيَّة". فالكلمة "مُجرَّد" كلمةٌ خَطِرة دائمًا. لا شكَّ أنَّ محبَّةَ الاحتياج، شأنُها شأنُ حوافزنا كلِّها، يمكن أن ينغمسَ المرءُ فيها بأنانيَّة. فإنَّ مُطالبةً طاغيةً وجشعةً بالعاطفة قد تكونُ أمرًا مُروِّعًا. ولكنْ في الحياة العاديَّة لا أحدَ يدعو الطفلَ أنانيًّا لأنَّه يتوجَّه إلى أمِّه طلبًا للعزاء والهناء؛ وكذلك أيضًا الراشدَ الذي يتوجَّه إلى صديقه "طلبًا للرِّفقة". وأولئك الذين يفعلون هكذا- صغارًا كانوا أم كبارًا- بمستويات قليلة ليسوا في العادة الأكثرَ لاأنانيَّة. فحيثُ يحصل الشعور بمحبَّة الاحتياج، قد توجَد دَواعٍ إلى رفضه أو إماتته كلِّيًّا؛ ولكنَّ عدم الشعور به هو عمومًا ميزة الشَّخص المستغرق في ذاته (Egoist) الأنانيِّ البارد. ولمَّا كنَّا بالحقيقة نحتاجُ بعضُنا إلى بعضٍ فعلًا ("ليس جيِّدًا أن يكونَ آدمُ وحدَه")، فإنَّ الإخفاقَ في أن يظهرَ هذا الاحتياج بصفته "محبَّة الاحتياج" في الوعي- بكلمة أخرى، الشُّعورَ المُوهِمَ بأنَّه جيِّدٌ لنا أن نكونَ وحدَنا- هو

عَرَضٌ روحيٌّ سيِّئ، تمامًا كما أنَّ فقدانَ الشَّهيَّة عَرَضٌ صحّيٌّ سيِّئ؛ لأنَّ البشرَ يحتاجون فعلًا إلى طعام.

أمَّا ثالثًا، فنأتي إلى شيءٍ أهمَّ بكثير جدًّا. ذلك أنَّ كلَّ مؤمنٍ بالسيِّد المسيح لا بدَّ أن يُقِرَّ بأنَّ صحَّةَ المرء الروحيَّة تتناسَب تمامًا مع محبَّته لله. ولكنَّ محبَّة الإنسان لله، حسب طبيعة الموضوع، يجب دائمًا أن تكون إلى مدًى بعيد- كما يجب أغلبَ الأحيان أن تكون بكُلِّيَّتها- محبَّةَ احتياج. وهذا بديهيٌّ حين نلتمسُ مغفرةً لخطايانا أو معونةً في بلايانا. ولكنَّه في النِّهاية رُبَّما كان أكثر بَدَهيَّةً بَعدُ في إدراكنا المُتنامي- إذ ينبغي أن يكون مُتناميًا- أنَّ كِيانَنا بجُملته من حيثُ طبيعتُه بالذَّات هو حاجةٌ واسعةٌ واحدة: صرخةٌ ناقصة، إعداديَّة، خاوية لكنْ ضاجَّة، إلى ذاك الذي يستطيع أن يحلَّ الأُمورَ المُتشابكة ويربطَ الأمورَ التي ما تزال سائبة. لستُ أقولُ إنَّ الإنسانَ لا يستطيعُ أبدًا أن يُقدِّم إلى الله أيَّ شيءٍ على الإطلاق ما عدا محبَّةَ الاحتياج الخالصة. فالنُّفوس المُرفَّعة قد تُحدِّثنا بشأن بلوغ ما يتخطَّى تلك المحبَّة. ولكنّي أعتقدُ أنَّ أصحابَ هذه النُّفوس سيَكونون أيضًا أوَّلَ مَن يُحدِّثُنا بأنَّ تلك الأعالي ستنقطعُ عن أن تكون نِعَمًا محضة، وتصيرُ أوهامًا أفلاطونيَّة مُحدَثة (Neo-Platonic)، أو شيطانيَّة أخيرًا، لحظةَ يستجرئ الإنسان أن يُفكِّر أنَّه يستطيع أن يعيشَ عليها ويُسقِطَ من ثَمَّ عُنصرَ الاحتياج. إنَّ مبدأ المُحاكاة يقول: "لا يقوم الأعلى من دون الأدنى". فإنَّه يكون مخلوقًا وقحًا وقبيحًا ذاكَ الذي يمثُل أمامَ خالقه مُتباهيًا: "لستُ

مُستعطيًا. أنا أُحبُّك دون مصلحة ذاتيَّة". وأولئك الذين يبلغون أقرب نُقطة إلى محبَّة المَنح تُجاه الله سوف يَعمِدون في اللحظة التالية، بل في اللحظة ذاتها أيضًا، إلى قَرع صُدورهم مع العشَّار التائب، باسطين فقرَهُم وعوزَهم أمام المانح الحقيقيِّ الوحيد. ثُمَّ إنَّ الله يريدُ أن تكونَ الحالُ على هذا المنوال. فهو يستهدفُ محبَّةَ الاحتياج لَدَينا إذ يُخاطِبُنا بالقَول: "تعالَوا إليَّ يا جميع المُتعَبين والثقيلي الأحمال، وأنا أُريحكم!" (متَّى ١١: ٢٨) أو بكلمات المزامير: "أفغرْ فاكَ، فأملأَه!" (مزمور ٨١: ١٠).

وهكذا فإنَّ محبَّةَ احتياج واحدةً، وهي العُظمى، إمَّا تُوافقُ حالَة الإنسان الروحيَّة العليا والأكثر صحَّةً وواقعيَّة، وإمَّا تُكوِّن على الأقلِّ مُقوِّمًا رئيسيًّا من مُقوِّمات تلك الحالة. وتترتَّب على هذا نتيجةٌ طبيعيَّة غريبة جدًّا: أنَّ الإنسانَ يقترب الى الله أقربَ قُرب حين يكون، بمعنًى ما، أقلَّ شَبَهًا بالله. فماذا يمكن أن يكون أكثر تباينًا من الامتلاء والاحتياج، والهيمنة والاتِّضاع، والبرِّ والتَّوبة، والقوَّة اللَّامحدودة والاستغاثة؟ إنَّ هذه المُفارَقة أذهلتني لمَّا بلغتُها أوَّل مرَّة؛ وأحبطَت أيضًا جميعَ محاولاتي السابقة في الكتابة عن المحبَّة. وعندما نواجِهُها، فلا بُدَّ أن يَنتجَ شيءٌ من هذا القبيل على ما يبدو.

علينا أن نُميِّز بين شيئَين يمكن احتمالًا أن يُوصَفا بأنَّهما "قُربٌ من الله". أحدهما مُشابَهة الله. وأنا أعتقد أنَّ الله قد طبعَ نوعًا من مُشابَهته في كلِّ ما قد صنعه. فإنَّ المكانَ والزمان، على طريقتهما، يُصوِّران

عظمتَه؛ كما تصوّر جميعُ أصناف الحياة إبداعَه، والحياةُ الحيوانيَّة فاعليَّتَه. أمَّا الإنسان فله مُشابهَةٌ أهمُّ من هذه كلِّها بكثير من حيثُ كونُه عاقلًا أو مُفكِّرًا. وفي اعتقادنا أنَّ لدى الملائكة مُشابَهةً لله يفتقر إليها البَشَر: البقاء (الخلود) والمعرفة الحَدْسيَّة. ومن هذه الناحية، فإنَّ جميع البشر، سواءٌ أصالحينَ كانوا أم طالحين، وجميعَ الملائكة، بمَن فيهم أولئك الذين سقطوا، هم أكثرُ من الحيوانات مُشابَهةً لله. إنَّ طبيعتَيهم هُما بهذا المعنى "أقربُ" إلى الطبيعة الإلهيَّة. ولكنَّ هنالك، في المقام الثاني، ما يمكن أن ندعوَه "قُربَ الاقتراب".[٢] فإنْ كان هذا هو ما نعنيه، فإنَّ الحالاتِ التي فيها يكون الإنسان في "أقربِ وَضْع" من الله هي تلك التي فيها يكون مُقتربًا بمُنتهى اليقينيَّة والسُّرعة إلى اتحّاده النهائيِّ بالله، ورؤيته لله، وتمتُّعه بالله، وما إن نُميِّز بين القُرب بالمشابهة وقُرب الاقتراب، حتَّى نرى أنَّهما لا يتوافقان بالضَّرورة. فربَّما يتوافقان وربَّما لا.

وهُنا، قد يُساعِدنُا تشبيه. تخيَّل أنَّنا نقومُ بمسيرةٍ جبليَّة إلى القرية التي نُقيمُ فيها. فعند الظَّهيرة، نبلغُ أعلى جُرفٍ مُطلٍّ على القرية، حيثُ نكون- نِسبةً إلى المسافة- قريبين منها جدًّا لأنَّها تحتَنا تمامًا.

٢ حريٌّ بالملاحظة هنا أنَّ الكاتب يميِّز بين نوعَين من الاقتراب إلى الله هما "قربُ الاقتراب" أو "قرب المقاربة" (Nearness of Approach) و"القرب بالمشابهة" (Nearness by Likeness)، وسيتكرَّر ورودهما في الفصول اللاحقة. وما يرمي إليه الكاتب هو أنَّ الله وهب الإنسان عدَّة صفاتٍ تُشابهُ صفاته له المجد. غير أنَّ وجودَ هذه الصفات لا يعني البتَّة أنَّنا قريبون من الله. فعلى الإنسان أن يختارَ الاقتراب إلى الله طَوعًا، ولا يركنُ إلى وجود صفاتٍ فيه تُشابهُ تلك التي لدى الله، وهو ما قصده الكاتب بمصطلح "قرب الاقتراب" (الناشر).

وفي وُسعنا أن نُسقطَ حَجَرًا فيها. ولكنْ لأنَّنا لسنا مُتسلِّقي جُروفٍ بارعين، لا نستطيع أن نهبطَ إليها حالًا. إنَّنا مُضطرُّون إلى سلوكِ طريقِ الْتفافيٍّ طويل، قد يبلغ ثمانية كيلومترات. وفي نقاطٍ كثيرة على تلك "العَطْفة" سنكون من ناحيةِ مَوضعنا أبعدَ عن القرية ممَّا كُنَّا لمَّا وقَفْنا على الجُرف- إنَّما موضعيًّا فقط. بينما من حيثُ التَّقدُّم، سنكون "أقرب" بكثيرٍ إلى التمتُّع بأخذ حمَّاماتنا وتَناوُل شايِنا.

ولمَّا كان الله مُبارَكًا وكلِّيَّ القُدرة ومُهَيمنًا وخَلاقًا، فهنالك على نحوٍ جليٍّ مَعنًى به تُكوِّنُ السَّعادةُ والقُوَّة والحرِّيَّة والخصب (سواءٌ في الفكر أم في الجسم)، حيثُما ظهرَت في الحياة البشريَّة، أوجُهَ مُشابَهةٍ لله، وأوجُهَ قُربٍ من هذا القبيل. ولكنَّ أحدًا لا يفترض أنَّ لامتلاكِ هذه الهِبات أيَّ ارتباطٍ ضروريٍّ بتقديسنا. فلا نوعَ من الثراء هو جوازُ سفرٍ إلى مملكة السَّماء.

على قِمَّة الجُرف، نكونُ قريبين من القرية. ولكنَّنا مهما أطلنا المكُوثَ هناك لن نكونَ أقربَ البتَّة إلى حمَّامنا وشايِنا. وهكذا الحالُ هُنا؛ فإنَّ ما أضفاه الله من مُشابَهة- ومن قُربٍ بهذا المعنى- على بعض خلائقه وبعض حالات تلك الخلائق هو أمرٌ محسوم ومُرسَّخ. وما هو قريبٌ منه بالمُشابهة لن يكونَ، بمُقتضى تلك الحقيقة وحدَها، أقربَ بَعدُ بأيَّة حال. غير أنَّ قُربَ الاقتراب، تعريفًا، هو قُربٌ مُتزايد. وفي حين أنَّ المُشابَهةَ مُعطاةٌ لنا- ويمكن أن تُقبلَ بشُكرٍ أو بلا شُكر ويُحسَنَ استِعمالُها أو يُساء- فإنَّ الاقترابَ شيءٌ يجب أن نقومَ به، وإنْ

كانت النِّعمةُ تُنشئُه وتَعضُده. إنَّ الخلائقَ صُنعوا- بطرائقهم المُتفاوتة- صُوَرًا لله، بلا مُشارَكةٍ منهُم ولا مُشاورَةٍ لهم أيضًا. ولكنْ ليس هكذا يصيرون أبناءً لله. ثُمَّ إنَّ المشابهةَ التي ينالونها بالبُنوَّة ليست مُشابهةَ الصُّوَر أو الرُّسوم. فهي بطريقةٍ من الطرائق أكثر من مجرَّد مشابهة، لأنَّها اتِّحادٌ أو وحدةٌ مع الله في الإرادة؛ ولكنَّ هذا مُتناغِمٌ مع جميع الفوارق التي كُنَّا ننظرُ فيها توًّا. ومن هنا، كما قال كاتبٌ بشكل جيِّد، فإنَّ تشبُّهنا بالله في هذه الحياة- أعني تشبُّهَنا الإراديَّ بوَصفه مُتميِّزًا عن أيَّةٍ من المُشابَهاتِ التي طبعَها الله على طبيعاتنا وحالاتنا- يجب أن يكون تشبُّهًا بالله المُتجسِّد: فإنَّ مثالَنا ليس هو يسوعَ الجُلجثة وحدَها، بل أيضًا يسوعُ مشغَلِ النِّجارة والطُّرُق والجُموع، والمَطالبِ الصَّاخبة، والمُعارَضات المؤكَّدة، والافتقارِ إلى كلِّ سكينةٍ وخُصوصيَّة، والمُقاطَعاتِ المُتكرِّرة. وذلك لأنَّ تلك الحياة- في اختلافٍ غريبٍ تمامًا عن أيِّ شيءٍ يمكن أن نَنْسبَه إلى الحياة الإلهيَّة في ذاتها- لَيست على نحو واضحٍ مُشابهةً فقط للحياة الإلهيَّة، بل هي هذه الحياةُ عينُها عامِلَةً في ظروفٍ بشريَّة.

وعليَّ الآن أن أشرحَ لماذا رأيتُ أنَّ هذا التمييز ضروريٌّ بالنِّسبة إلى أيِّ بحثٍ في محبَّاتنا. فإنَّ قَول الرسول يوحنَّا إنَّ الله محبَّة ما يزال يَتوازن في ذهني مُقابلَ مُلاحظةٍ وضعَها كاتبٌ حديث هو أم. دنس دي روجمون (M. Dennis de Rougemont) إذ قال: "إنَّ المحبَّةَ تكفُّ أن تكونَ شيطانًا فقط حين تكفُّ أن تكون إلهًا". ويمكن طبعًا أن يُصاغ

هذا القول مُجدَّدًا على هذا النَّحو: "إنَّ المحبَّة تبدأ بأن تكونَ شيطانًا لحظةَ تبدأ بأن تكونَ إلهًا". ويبدو لي أنَّ هذا التوازُن إجراءٌ وقائيٌّ لا مفرَّ منه. فإنْ نحنُ تجاهلناه، فإنَّ حقيقة كَون الله محبَّة قد تصير عندَنا خلسةً بمعنى العكس: أنَّ المحبَّة إله.

وأعتقد أنَّ كلَّ من يُفكِّر في هذه المسألة لا بُدَّ أن يدركَ ما عناه روجمون. فإنَّ كلَّ محبَّةٍ بشريَّة، في ذروَتها، مَيَّالةٌ لأنْ تدَّعيَ لنفسها سُلطةً إلهيَّة، حيثُ يميل صوتُها لأنْ يكونَ له وَقعُ صوتِ الله نفسه. فهي تقول لنا إنَّه علينا ألَّا نحسبَ النَّفقة، وتُطالِبُنا بالالتزام الكامل، وتُحاول أن تطغَى على جميع المَطالب الأخرى، وتُوَسوسُ لنا بأنَّ أيَّ عملٍ نقوم به مُخلصينَ "لأجل المحبَّة" هو بذلك مشروعٌ، بل جديرٌ بالمُكافأة أيضًا. فإنَّ كَونَ الحُبِّ الشَّهوانيِّ وحُبِّ المرء لوطنه قد يُحاولان أن "يصيرا إلهَين" أمرٌ مُعترَفٌ به عمومًا. ولكنَّ المحبَّة العائليَّة قد تسلكُ السبيلَ عَينه. وكذلك أيضًا مَودَّة الأصدقاء. ولن أتوسَّعَ هُنا في هذه النُّقطة؛ لأنَّنا سنَلقاها مِرارًا وتكرارًا في الفُصول التالية.

إنَّما الآنَ يجب أن نُلاحظ أنَّ المَحبَّاتِ الطبيعيَّةَ تدَّعي هذا الادِّعاءَ التجديفيَّ ليس عندما تكون في أسوإِ حالاتها الطبيعيَّة، بل عندما تكون في أحسنِها؛ عندما تكون "خالصة" أو "نبيلة"، على حدِّ وَصفِ آبائنا لها. وهذا واضحٌ خُصوصًا في الميدان الجنسيّ. فإنَّ الشَّغَف المُخلِصَ والمُضحِّيَ بالذَّات على نحوٍ أصيلٍ سيُخاطِبنا بما يبدو وكأنَّه صوتُ الله. أمَّا مُجرَّدُ الشَّهوة الحيوانيَّة أو العابثة فلن تفعلَ

هكذا. ذلك أنّها لا بدَّ أن تُفسِدَ مُدمنَها بعشرات الطُّرق، ولكن ليس بهذه الطريقة. فقد يتصرَّف الإنسان بُمقتضى مشاعرَ من هذا القبيل، ولكنَّه لا يستطيع أن يُوقِّرَها أكثر ممَّا يوقِّرُ شخصٌ يشعرُ بحَكَّة مَن يهرشُ جلدَه! كما أنَّ انهماكَ امرأة سخيفة وقتيًّا في تدليل ولدها، وهو في الحقيقة انغماسٌ ذاتيّ- حيثُ تَحسب الولدَ دُميَتها الحيَّة مُدَّةَ دوام نَوبة التدليل- قلَّما يُرجَّح أن "يصيرَ إلهًا" كما قد يصير التكرُّسُ العَميقُ الوثيق من قِبَل امرأة "تعيش لأجل ابنها" (بمعنًى حرفيٍّ تمامًا).

وأنا مَيَّالٌ لأنْ أعتقد أنَّ نوع محبَّة المرء لوطنه ذاك الذي يُحدثُه شربُ البيرة وسماعُ الفِرَق التي تعزفُ الآلات النُّحاسيَّة لن يدفعَهُ إلى إلحاق كثيرٍ من الضَّرر بالوطن (ولا إلى إسداء كثيرٍ من الخير في سبيله). وربَّما تبدَّدَتْ تلك المحبَّة تمامًا بطلب شرابٍ آخر ومُشاركة الجوقة.

ثُمَّ إنَّ هذا بالطَّبع هو ما ينبغي أن نتوقَّعه. فإنَّ مَحبَّاتنا لا تُصرِّح بادِّعائها الأُلوهة قبل أن يصيرَ هذا الادِّعاءُ معقولًا ومقبولًا. وهو لا يصيرُ هكذا قبل أن تصيرَ المحبَّاتُ شبيهةً شَبَهًا حقيقيًّا بالله، بالمحبَّة ذاته. إنَّما لا نَغلطْ هُنا. فإنَّ "محبَّاتِ المَنح" لدينا هي بالحقيقة مُتشبِّهة بالله؛ وبين هذه المحبَّات أكثرُها تشبُّهًا به هي تلك الأكثرُ لامحدوديَّةً وعدمَ كَلَلٍ في العطاء. وكلُّ ما يقوله الشُّعراءُ عنها صحيح. فإنَّ ما يُواكبُها من فَرَحٍ وطاقةٍ وصبرٍ واستعدادٍ للصَّفح، و تَوقٍ إلى خير المحبوب، هو كلُّه حقيقيٌّ وصورةٌ تَكاد تُعبَد للحياة الإلهيَّة. وفي حضرتها نحنُ على حقٍّ بأن نشكرَ الله على "إعطائه البشرَ قُدرةً كهذه". ولنا أن نقول، بكلِّ

صدقٍ وبمعنًى مُدرَك، إنَّ أولئك الذين يُحبُّون محبَّةً عظيمة "قريبون" من الله. ولكنَّ ذلك بالطَّبع "قُربٌ بالمُشابَهة". وهو لن يُنتِجَ من تلقاء ذاته "قُربَ اقتراب". فإنَّ المشابَهة قد وُهِبَت لنا وَهبًا. وليس لها من ارتباطٍ ضروريٍّ بذلك الاقتراب البطيء والمؤلم الذي يجب أن يكونَ مَهمَّتنا الخاصَّة (وإنْ كانت لا تتمُّ بغير مُساعَدةٍ على الإطلاق). غير أنَّ المشابَهة، في أثناء ذلك، هي أمرٌ رائع. ولذلك يمكن أن نَحسبَ مُخطئين أنَّ شبيهَ الشيءِ هو الشيءُ نفسُه. وقد نقدِّمُ إلى محبَّاتِنا البشريَّةَ الولاءَ غير المشروط الذي نحن مَدينون به لله وحده. عندئذٍ تصيرُ تلك المحبَّات آلهة؛ وتصير بذلك شياطين، وإذ ذاكَ تُدمِّرنا، كما تُدمِّر أنفُسَها. فإنَّ المحبَّاتِ الطبيعيَّةَ التي يُسمَحُ لها بأن تصيرَ آلهةً لا تبقى محبَّات. إنَّها ما تزال تُدعى هكذا، ولكنْ يمكن أن تصيرَ في الواقع أشكالًا مُعقَّدةً من البُغض.

أمَّا "محبَّات الاحتياج" لدينا فقد تكون جَشِعة ومُتطلِّبة جدًّا، ولكنَّها لا تنحو لأنْ تكونَ آلهة. فهي ليست قريبةً إلى الله قُربًا كافيًا (بالمُشابهة) حتَّى تسعى إلى ذلك.

يترتَّب على ما سبق قولُه إنَّ علينا ألَّا نَنضَمَّ لا إلى مؤلِّهي الحُبِّ البشريِّ ولا إلى فاضحي زَيفه. وقد كان تأليه الحبِّ الشَّهوانيِّ "والعواطف العائليَّة" ضلالةً كبيرةً في أدب القرن التاسع عشر. فإنَّ براوننغ (Browning) وكِنغزلي (Kingsley) وپاتْمور (Patmore) يتكلَّمون أحيانًا كما لو كانوا يعتقدون أنَّ الوقوعَ في الغَرام والتقديسَ

هما الشيءُ نفسُه؛ والرّوائيُّون عادةً يُعارِضون "العالَم" لا بملكوت السَّماء بل بالحياة البيتيَّة. وما يزال مجتمعُنا يعيشُ في ردَّة الفعل على ذلك. ففاضحو الزَّيْف يَصِمُون مقدارًا كبيرًا جدًّا ممَّا قاله آباؤهم في امتداح الحُبّ بأنَّه هُراءٌ وعاطفيَّةٌ مُفرطة. وهم دائمًا يقتَلعون جذورَ محبَّاتنا الطَّبيعيَّة المُبتلاةَ بالدُّود والعَفَن وينبذونَها. ولكنّي أعتقد أنَّ علينا ألَّا نُصغيَ "لا إلى المارد الفائق الحكمة، ولا إلى ذاك المُفرِط الجهالة". إذ إنَّ الأعلى لا يُقوم من دون الأدنى. فلا بُدَّ أن تكون للنَّبتة جذورٌ في الأسفل وضوءٌ من الشمس في الأعلى، ويجب أن يكون في الجذورِ شيءٌ من الدُّود والعَفن. وكثيرٌ من ذلك الدُّود والعَفن ينتمي إلى التُّربة الصالحة، هذا إنْ تركتَه في البُستان ولم تُوالِ تَذريَتَهُ على طاولة المكتبة. فمن الممكن أن تكونَ المَحبَّاتُ البشريَّة صُوَرًا بَهيَّةً للمحبَّة الإلهيَّة- لا أقلَّ من ذلك، ولكنْ أيضًا لا أكثر- أوجُهَ قُربٍ بالمُشابهة قد تُعين في حالة ما قُربَ الاقتراب، وقد تُعيقُه في حالةٍ أخرى. وربَّما لا تكون لها أحيانًا علاقةٌ وثيقةٌ بكِلَيهما.

٢

المُيولُ والمَحبَّات لِما هو دونَ البشر

كان مُعظم أبناء جيلي يُوبَّخون في صِغَرِهم على قولهم إنَّهم "يحبُّون" الفراولة مثلًا. ويُفاخِر بعضٌ باحتواء اللُّغة الإنكليزيَّة على فِعلَين يدلَّان على الحُبّ والإعجاب هما (Love) و(Like)، في حين أنَّ الفرنسيَّةَ مثلًا تُضطَرُّ إلى استعمال فعلٍ واحدٍ للتَّعبير عن الأمرَين (Aimer). ولكنَّ في جانب الفرنسيَّة عددًا لا بأس به من اللُّغات. وفي الواقع أنَّ الإنكليزيَّة المَحكيَّة كثيرًا جدًّا ما تُسايرُ الفرنسيَّة. فجميع المُتكلِّمين، مهما كانوا مُتحَذلِقين أو أتْقياء، يتحدَّثون كُلَّ يوم بكَونهم "يُحبُّون" أكلةً أو لُعبةً أو مهنة.[1] وبالحقيقة أنَّ هنالك استمراريَّةً بين ميولنا الأوَّليَّة إلى الأشياء ومحبَّاتنا للأشخاص. ولمَّا كان "الأعلى لا يقوم من دون الأدنى"، يُستحسَنُ أن نبدأ من الأسفل، بميولنا المُجرَّدة. ولمَّا كان "المَيل" إلى شيء ما يعني أن نجدَ فيه نوعًا من السُّرور، فعلَينا أن نبدأ بالمسرَّة.

١ مع أنَّ العربيَّة تشتمل على أفعالٍ كثيرة تدلُّ على الحُبّ والإعجاب، فهي تُجاري أيضًا هذا الاستعمالَ الدارج (المترجم).

والآن، هو اكتشافٌ قديمٌ جدًّا أنَّ المسرَّات يمكن أن تُقسَم إلى فئتَين: تلك التي لن تكون مَسرَّاتٍ البتَّة ما لم تسبقها رغبةٌ ما؛ وتلك التي هي مسرَّاتٌ بُحكم حقِّها الذاتيِّ ولا تحتاج إلى تمهيد كهذا. ولنا في شُربة الماء مَثَلٌ على الفئة الأولى. فهذه مسرَّةٌ إذا كُنتَ عطشانًا، ومَسرَّةٌ عظيمةٌ إذا كنتَ عطشانًا جدًّا. ولكنْ ربَّما لم يكُن في العالَم شخصٌ واحد- إلَّا مُطاوَعةً للعطش أو امتثالًا لأوامر طبيب- سكب لنفسه كأس ماءٍ وشربَها لمُجرَّد الاستمتاع بها. كما أنَّ لنا مثلًا على الفئة الأخرى في مسرَّات الشَمِّ غير المنشودة وغير المتوقَّعة، كالعبير المُنبعث من نبات الياسمين أو شجرة غاردينيا عطرة، تَلقاهُ في نُزهتك الصبَّاحيَّة. فأنت لم تكُن في حاجة إلى شيء، وكنتَ راضيًا تمامًا، قبلَ ذلك. وإذ ذاك، فإنَّ المسرَّة التي ربَّما كانت عظيمةً جدًّا هي هِبَةٌ مُضافة فائقة غيرُ مُستجداة. وأنا إنَّما أضربُ أمثلةً بسيطة جدًّا لأجل الوضوح، إلَّا أنَّ هنالك بالطَّبع مُضاعَفاتٍ كثيرة. فإذا قُدِّمتْ إليك قَهوةٌ أو شايٌ بالنعناع حيثُ كنتَ تتوقَّعُ الماء (وكان من شأن ذلك أن يكفيَك)، فعندئذ تحصلُ طبعًا على مسرَّةٍ من النَّوع الأوَّل (إرواء الغليل) ومسرَّةٍ من النَّوع الثاني (طَعم طيِّب) في الوقت نفسه. ثُمَّ إنَّ إدمانَ شيءٍ ما قد يُحوِّل ما كان من قَبلُ مَسرَّةً من النَّوع الثاني إلى مَسرَّةٍ من النَّوع الأوَّل. فبالنِّسبة إلى الإنسان المُعتدل، تُشكِّل كأسٌ من النَّبيذ بين الحين والآخر متعةً فعليَّة، كالعبير المُنبعث من نبات الياسمين. أمَّا بالنسبة إلى السِّكِّير الذي تعطَّلَتْ لديه حاسَّةُ الذوق كما تعطَّل الهَضمُ منذ زَمنٍ بعيد، فما من شرابٍ كُحوليٍّ يؤتيه أيَّة مسرَّة ما

عدا مسرَّةَ الارتياح من رغبةٍ مُلِحَّة لا تُطاق. فبمقدار ما يستطيعُ أن يُميِّزَ الطُّعومَ بَعد، هو يَمقتُ الشَّراب بالأحرى؛ ولكنَّه أفضلُ عندَهُ من بؤسِ بقائه صاحيًا. ومع ذلك، فعلى الرُّغم من كلِّ تَباديلِ مواضع هاتَين الفئتَين وتَشارُكهما، يبقى التمييز بينهما جليًّا على نحو مقبول. ولنا أن ندعُوَ هاتَين الفئتَين المذكورتَين "مسرَّاتِ الاحتياج" (Need-Pleasures) و"مسرَّات التقدير" (Pleasures of Appreciation).

لا بُدَّ أن يخطر في بال أيِّ قارىء التَّماثُلُ بين مسرَّات الاحتياج و"محبَّات الاحتياج" التي ذكرتُها في المقدِّمة. ولكنَّك تذكُر أنِّي هناك اعترفتُ بأنَّه كان عليَّ أن أقاوِمَ مَيلًا إلى الاستخفاف بمحبَّات الاحتياج واستصغارها، بل أيضًا إلى القول إنَّها ليست محبَّات على الإطلاق. فهُنا، بالنِّسبة إلى مُعظَم الناس، قد يوجَدُ مَيلٌ مُعاكِس. إذ يسهل جدًّا أن نتمادَى في امتداح "مسرَّات الاحتياج" ونَتجهَّم حيال "مسرَّات التقدير": مُعتبرين الأولى طبيعيَّةً جدًّا (كلمة نُسحَر بها) وضروريَّة، يحميها من الإفراط كَونُها طبيعيَّة؛ والثانيةَ غيرَ ضروريَّةٍ ومُشرِّعةً البابَ لكلِّ صنوف الرَّفاهيَة والرذيلة. وإن أعوزَتنا مَوادُّ في هذا الموضوع ففي وُسعنا أن نفتح الحَنَفيَّة (الصُّنبور) بتَصفُّح آثار الرِّواقيِّين،[٢] فتَتَدفق حتَّى تملأ حَوضًا. ولكنْ علينا أن نحرِصَ طَوالَ

٢ الرِّواقيُّون هم أتْباعُ الرِّواقيَّة (Stoicism)، وهي مذهبٌ فلسفيٌّ لا يعتقد بفكرة إمكانيَّة إقامة علاقة شخصيَّة ما بين الله- الفكر الكونيّ على حدّ تعبيرهم- والبشر. فالله عند الرِّواقيين لا يهتمُّ بشؤون البشر (الناشر).

هذا المَبحَث على ألّا نتبنّى أبدًا قبلَ الأوان موقفًا خُلُقيًّا أو تقييميًّا. فإنَّ الذِّهن البشريَّ عمومًا توّاقٌ لأنْ يَمدحَ ويَذُمَّ أكثر منه بكثيرٍ لأنْ يُوصِّف ويُعرِّف. إنَّه يودُّ أن يجعلَ كلَّ تمييزٍ تمييزَ قيمة؛ ومن هُنا كان أولئك النُّقّاد المُهلكون الذين لا يستطيعون البتَّة أن يُحدِّدوا النَّوعيَّة المختلفة لدى شاعرَين بغَير أن يضعوهما في تراتُبٍ تفضيلٍ كما لو كانا مُرشَّحَين لجائزة. فيجب ألّا نَعمدَ إلى شيءٍ من هذا القبيل بالنِّسبة إلى المسرَّات. إذ إنَّ الحقيقة مُعقَّدةٌ فوقَ الحدّ. ويُحذِّرُنا من هذا أصلًا واقعُ كَون "مسرَّة الاحتياج" هي الحالة التي فيها تضمحلُّ المسرَّاتُ التَّقديريَّة عندما يسوءُ حالُها (بالإدمان).

ولكنَّ أهمِّيَّة نوعَي المسرَّات بالنِّسبة إلينا تكمن على كلِّ حال في المدى الذي إليه تؤذِنُ بخصائصَ تتميَّز بها "محبَّاتُنا" (المدعوَّة هكذا على نحوٍ صحيح).

إنَّ العطشانَ الذي شربَ توًّا كأسَ ماء قد يقول: "حقًّا، لقد أردتُ ذلك!" وقد يحذو حذوَهُ السِّكّيرُ الذي شرب توًّا "رَشفتَه". أمَّا ذاك الذي يمرُّ بقرب شجرة الغاردينيا في نزهته الصَّباحيَّة، فهو أميَلُ إلى القول: "كم هي طيِّبة هذه الرائحة!" كذلك أيضًا قد يقول الخبيرُ بعد رَشفته الأُولى للنَّبيذ الفرنسيِّ الفاخر: "هذا نبيذٌ ممتاز!" فحين تكون مسرَّات الاحتياج مَعنيَّة، نميل إلى إصدار تصريحاتٍ عن أنفُسنا بصيغة الماضي. أمَّا حين تكون المسرَّات التقديريَّة مَعنيَّة، فنميل إلى إصدار تصريحاتٍ عن الغَرَض بصيغة الحاضر. ومن السَّهل إدراكُ السَّبب.

لقد وصفَ شكسبير (Shakespeare) إشباعَ شهوةٍ طاغية باعتباره شيئًا

تجري مطاردتُه بطريقةٍ تتخطَّى المَنطِقَ أصلًا،

وما إن يُمسَكُ طَرَفُه

حتَّى يُبغَضَ بُغضًا يتخطَّى المَنطِقَ فِعلًا!

ولكنَّ أكثر مسرَّات الاحتياج براءةً وضَرورةً تتَّصف بشيءٍ له الطبيعةُ عينُها- إنَّما طبعًا بشيءٍ واحد دون سواه. فهي لا تُبغَضُ حالَما يحصلُ المرء عليه، بل "تموت لَدَينا" يقينًا بطريقة فُجائيَّة فائقة، وتتلاشى تمامًا. ذلك أنَّ حَنَفيَّةَ الشُّرب والقَدَحَ جذّابان جدًّا بالحقيقة عندما ندخل البيتَ عِطاشًا بعد جَزِّ عُشب المسطَّح الأخضر؛ ثُمَّ بعدَ ستِّ ثوانٍ يفرغان من كلِّ تشويق. كما أنَّ رائحةَ الطَّعام المَقليِّ تختلف جدًّا قبل الفَطور وبعدَه. ثُمَّ أستميحُكَ عُذرًا عن ذِكْر أقصى الأمثلة جميعًا: ألمَ تَمُرَّ على مُعظَمنا (في بلدة غريبة) لحظاتٌ فيها أثارَ مرأى العبارة دورة مياه الرِّجال فوقَ بابٍ فرحةً تكاد تستحقُّ الإشادةَ بها شعرًا؟

أمَّا "مَسرَّات التقدير" فمُختلفةٌ جدًّا. إذ تجعلنا نشعرُ بأنَّ شيئًا ما لم يُشبِعْ حواسَّنا فعلًا فحسب، بل استحوذَ على تقديرنا بحقّ. فإنَّ المُتذوِّق الخبيرَ لا يستمتعُ بنبيذه الفاخر فقط كما قد يستمتع بتدفئة قدمَيه إذا بَرَدتا. إنَّه يشعر بأنَّ هَهُنا خمرةً تستأهل انتباهَه الكُلِّيَّ. وهذا يُبرِّر كلَّ التَّواتر والمهارة اللذَين انصبَّا على صناعتها، وجميعَ سِنيِ

التَّدريب التي جعلتْ حاسَّة الذَّوق لديه مؤهَّلةً للحُكم في ذلك. حتَّى إنَّ في مَوقفه بَصيصًا من اللَّاأنانيَّة. فهو يريد للخمرة أن تُحفَظَ وتُصان في حالةٍ جيِّدة، ليس لأجل مصلحته الشخصيَّة كلِّيًّا. حتَّى لو كان على فِراش الاحتضار، ولن يشربَ النبيذَ بَعد، فإنَّه سيَرتاع إذا خطرَت له فكرةُ إهراقِ هذا النَّبيذ المُعتَّق أو إتلافه، أو حتىَّ شُربه من قِبَل سُذَّج (مثلي) لا يستطيعون التمييز بين النَّبيذ الجيِّد وذاك الرديء. وكذلك حالُ الرَّجُل الذي يمرُّ بقُرب شجرة الغاردينيا العَطِرة. فهو لا يتمتَّع بهذا العبير فحسْب، بل يشعر بأنَّه يستأهل التمتُّعَ به بطريقةٍ ما. ومن شأنه أن يلومَ نفسَه لو مرَّ بلامُبالاةٍ ولا ابتهاج. فذلك يكون جُمودًا وتبلُّدًا. ويكون من العار أن يضيعَ عليه شيءٌ كهذا. سوف يتذكَّر تلك اللحظة الطيِّبة بعدَ سنينَ مضت منذ ذاك الحين. وسيَندمُ عندما يسمعُ أنَّ الحقلَ الذي حملَته نزهتُه ذلك الصَّباحَ على المرور بقُربه، والذي يحوي شجرة الغاردينيا، قد ابتلعَته الآنَ دُورُ السِّينما والكاراجات والطريقُ الجانبيُّ الجديد.

لا شكَّ أنَّ كِلا نوعَي المسرَّات، من الناحية العلميَّة، يتناسبان مع كياننا العُضويّ. ولكنَّ مسرَّات الاحتياج تُجاهِر عَلَنًا بتناسُبها ليس فقط مع الإطار البشريِّ بل أيضًا مع حالته الآنيَّة، وليس لها أيُّ معنًى أو جاذبيَّة في نظرنا جميعًا خارجَ تلك العَلاقة. أمَّا الأغراض التي توفِّر لنا مسرَّات التقدير فتؤتينا الشُّعور بأنَّنا على نحوٍ ما مَدينُون بأن نتذوَّقَها ونُعنى بها ونُثنِيَ عليها، سواءٌ أشُعورًا غيرَ عقلانيٍّ كان ذلك أم لم

يكُن. فإنَّ خبيرَ النَّبيذ الفرنسيَّ المُعتَّق يقول: "حرامٌ أن يُقدَّم نَبيذٌ كهذا إلى لويس!" ونحنُ نسأل: "كيف أمكنك أن تُجاوِزَ شجرة الغارينيا دون أن يَسترعيَ عبيرُها انتباهَك؟" ولكنْ لا ينبغي أبدًا أن نشعرَ مثلَ هذا الشُّعور بشأن مَسرَّةٍ من مسرَّات الاحتياج، كأنْ نلومَ أنفسَنا أو سِوانا لحظةً على عدم كَوننا عِطاشًا ومن ثَمَّ على مُجاوزَتنا نبعًا دونَ ارتشافِ شربة ماء.

أمَّا كيف تُنذِرُ مسرَّاتُ الاحتياج بمحبَّات الاحتياج لَدَينا، فأمرٌ واضحٌ وضوحًا كافيًا. ففي الأخيرة يُرى المحبوبُ في علاقته باحتياجاتنا، تمامًا كما يَرى العطشانُ حنفيَّةَ الماء، أو السَّكِّيرُ كأسَ النَّبيذ. ثُمَّ إنَّ محبَّة الاحتياج، شأنُها شأنُ مسرةِ الاحتياج، لن تدومَ أكثرَ من دوام الحاجة. ومن الخَير أنَّ هذا لا يعني أنَّ جميعَ العواطف التي تبدأ في محبَّة الاحتياج سريعةُ الزَّوال. فقد تكون الحاجةُ نفسُها دائمةً أو مُتكرِّرةً دَوريًّا. ويمكن تطعيمُ نوعٍ آخر من المحبَّة في محبَّة الاحتياج. فالمبادئُ الخُلُقيَّة (الأمانة الزَّوجيَّة، الطاعة البَنَويَّة، عرفان الجميل، وما شابه) يمكن أن تَصونَ العلاقة مدى العُمر. ولكنْ حيث تُترَك محبَّةُ الاحتياج بلا معونة، لا يكادُ يُمكِنُنا أن نتوقَّع ألَّا "تموت لَدَينا" حالَما تكفُّ الحاجة عن الوجود. لذلك يضجُّ العالَم بشكاوى الأُمَّهات اللَّاتي يُهمِلُهنَّ أولادُهنَّ الكبار، والخليلات (العشيقات) اللَّاتي كان حُبُّ مُحبِّيهنَّ لَهُنَّ محضَ احتياج- وقد لَبَّوه. أمَّا محبَّتُنا الاحتياجيَّة لله فهي في مَوقع آخر؛ لأنَّ احتياجنا إليه لا يمكن أن ينقطعَ البتَّة، لا في هذا العالَم ولا

في أيِّ عالَمٍ آخر. غير أنَّ إدراكنا لذلك الاحتياج يمكن أن ينقطع، وعندئذٍ تموت محبَّةُ الاحتياج أيضًا. "أصابَ إبليسَ المَرَضُ، نوى إبليسُ أن يصير راهبًا!" فيَبدو أنْ ليس من داعٍ لأنْ نَصِفَ بالرِّياء أو النِّفاق تلك التُّقوى القصيرة الأجَل لدى أولئك الذين يتلاشى تَديُّنهم حالَما يزول عنهم "الخَطَر أو الشدَّة أو الضِّيق". لماذا لا يكونون مُخلِصين؟ لقد كانوا يائسين، فصرخوا مُستنجِدين. ومَن لا يفعلُ فِعلَهم؟

أمَّا ما تُنذِرُ به المَسرَّاتُ التَّقديريَّة فلا يوصَف بمثل هذه السُّرعة.

في المقام الأوَّل، هي نُقطة الانطلاق نحو كامل اختبارنا للجَمال. فمن المُستحيل أن نرسم خطًّا تحتَه تكون مَسرَّاتٌ كهذه "حسِّيَّة"، وفوقَه تكون "جَماليَّة". إذ تحتوي اختباراتُ الخبير بالنَّبيذ الفاخر أصلًا على عناصر تركيزٍ وحُكمٍ وإدراكٍ مصقول ليست حِسِّيَّة؛ أمَّا اختبارات الموسيقيِّ فما تزال تحتوي على عناصرَ حِسِّيَّة. وليس من حدٍّ فاصل- بَل هناك استمراريَّةٌ لا تنقطع- بين المسرَّات الحِسِّيَّة الناجمة عن الأشجار المُفعَمة بالعبير وبين التَّمتُّع بالرِّيف (أو "الجمال") كَكُلّ، وبينَ استِمتاعِنا أيضًا بنِتاج الرَّسَّامين والشعراء الذين تناوَلُوه.

ثُمَّ إنَّ في هذه المسرَّات منذ البداية تمامًا- كما قد رأينا- ظِلًّا من التجرُّد، أو بُزوغًا له، أو دعوةً إليه. طبعًا، في وُسعنا بطريقة مُعيَّنة أن نكونَ مُتجرِّدين أو لاأنانيِّين- وهكذا على نحوٍ أكثرَ بُطوليَّة- في ما يتعلَّق بمسرَّاتِ الاحتياج: هي كأسُ ماءٍ يُضحِّي بها سيدني (Sidney)

الجريح لأجل الجُنديِّ المُحتضَر. ولكنْ ليس هذا نوعَ التَّجرُّد الذي أعنيه الآن. فإنَّ سيدني يحبُّ قريبَه. ولكنْ في المسرَّات التَّقديريَّة، حتَّى في مُستواها الأدنى؛ وإذ تَتنامى أكثرَ فأكثرَ إلى التقدير الكامل لكلِّ جمال، نحصل على شيءٍ لا نكادُ نتمالكُ أنفُسَنا عن أن ندعُوَه حُبًّا، ولا نكاد نتمالك أنفُسَنا عن أن ندعُوَه تجرُّدًا، تُجاهَ الغَرَض بعَينه. إنَّه ذاك الشُّعور الذي من شأنه أن يجعلَ شخصًا ما غير راغبٍ في تَشويه لوحةٍ رائعة، حتَّى لو كان آخرَ إنسانٍ بقي على قَيد الحياة وهو يُوشِكُ أن يموت أيضًا؛ ذاك الذي يجعلُنا مسرورين بالغابات غير المُفسَدة التي لَن نراها أبدًا؛ ذاك الذي يجعلُنا توَّاقين إلى وجوب بقاء البُستان أو أشجار الغاردينيا. فنحن لا نَميل مجرَّدَ مَيلٍ إلى الأشياء؛ بَل نُعلنُ- بمعنًى مُشابِه للاستحسان الإلهيِّ لحظةَ فلحظة- أنَّها "حَسَنةٌ جدًّا".

والآن، فإنَّ مبدأ انطلاقنا عندَ المُستوى الأدنى- ومن دونه "لا يقومُ الأعلى"- يبدأ بأن يدرَّ علينا عوائدَ أو فوائد. وقد كشفَ لي هذا المبدأ نقصًا في تصنيفنا السالف للمَحبَّات ما بين مُختصَّة بالاحتياج ومُختصَّة بالمَنْح. فثمَّة عُنصرٌ ثالثٌ في المحبَّة، لا يقلُّ عن هذَين أهمِّيَّةً، تؤذِنُ به مسرَّاتُنا التَّقديريَّة. إذ إنَّ هذا الحُكمَ بأنَّ الغَرَض حَسَنٌ جدًّا، هذا الاهتمامَ المُبدَى له كما لو كان نوعًا من الدَّين (ويكاد أن يكون إجلالًا)، هذا التَّمنِّيَ أنَّ الغَرَضَ ينبغي أن يكون- وينبغي أن يستمرَّ كائنًا- ما هو عليه حتَّى لو لم يُتَح لنا أن نتمتَّعَ به قَطْعًا، هذا ذاتَه يمكن أن يتَوجَّهَ لا إلى الأشياء فقط بل إلى الأشخاص أيضًا. وهو حينَ يُقدَّم

إلى امرأة، ندعوه إعجابًا؛ وحينَ يُقدَّم إلى إنسان، ندعوه عبادةَ أبطال؛ وحين يُوجَّهُ إلى الله، ندعوه عبادةً فحسب.

إن محبَّة الاحتياج تَصرخُ إلى الله من عوزنا الشديد. ومحبَّةُ المَنح تتوقُ لأنْ تخدمَ الله، بل أن تتألَّمَ في سبيله أيضًا. والمحبَّةُ التقديريَّة تقول: "يا ربُّ، نرفعُ إليك شكرَنا من أجل مجدك العظيم". وتقولُ محبَّة الاحتياج عن امرأةٍ ما: "لا أستطيعُ أن أعيشَ من دونها"؛ فيما تَتوقُ محبَّةُ المنح إلى إعطائها السعادة والرَّفاهيَة والحماية والغِنى- إنْ أمكن. أمَّا الحُبُّ التَّقديريُّ فيُحدِّقُ ويحبس أنفاسَه ويبقى صامتًا، ويبتهج بأنَّ روعةً كهذه لا بدَّ أن توجَد حتَّى لو لم تكُن لأجله، ولن يغتمَّ كُلِّيًّا من جرَّاء فقدانها، بل يؤثرُ أن يكونَ ذلك واقعَ الحال في مقابلِ ألَّا يكونَ قد رأى تلك الرَّوعةَ أصلًا.

إنَّنا نُذَبِّحُ كي نُشَرِّح! وفي الحياة الفعليَّة- ولله الشُّكر- تَتمازَجُ عناصرُ المحبَّة الثلاثةُ ويعقبُ أحدُها الآخر، لحظةً فلحظة. وربَّما لا يوجَد أيٌّ منها- ما عدا محبَّةَ الاحتياج- وحدَه أبدًا، في نقاوة "كيمياويَّة"، مدَّةً تدومُ أكثرَ من بضع ثوانٍ. ثُمَّ ربَّما كان ذلك كذلك لأنْ لا شيءَ ممَّا يتعلَّقُ بنا- ما عدا عَوَزنا- دائمٌ في هذه الحياة.

هذا، ويستدعي شكلان من المحبَّة لما ليس شخصيًّا مُعالَجةً خاصَّة. ففي نظر بعض الناس، وربَّما الإنكليز والرُّوس خصوصًا، يُشكِّل ما ندعوه "حُبَّ الطبيعة" عاطفةً ثابتةً وخطيرة. وأقصد هنا حبَّ الطبيعة ذاك الذي لا يمكن على نحوٍ وافٍ تصنيفُه كوَجهٍ من أوجُهِ حُبِّنا

للجمال فحسْب. طبعًا، أغراضٌ طبيعيَّة كثيرة- كالأشجار والأزهار والحيوانات- هي جميلة. غير أنَّ مُحبِّي الطبيعة الذين في فكري ليسوا مَعنيِّين كثيرًا جدًّا بأغراضٍ مُستقلَّة جميلة من ذلك النوع. ومَن كان مَعنيًّا بذلك يُحَيِّرهم. فعالِمُ النَّباتِ المتحمِّسُ هو عندَهم رفيقٌ مُروِّعٌ في نُزهة. إذ يتوقَّف دائمًا ليَلفتَ انتباهَهم إلى الجُزئيَّات. وهم أيضًا لا يبحثون عن مَناظرَ طبيعيَّة أو "مَشاهدَ" خلَّابة. كما أنَّ الشاعرَ وليَم وُردزوُرث (William Wordworth)، المُتحدِّثَ باسْمهم، يستنكرُ هذا بشدَّة. فهو يرى أنَّ ذلك يؤدِّي إلى "مقارنة منظرٍ بمنظر"، ويجعلُك "تُعلِّل" نفسَك "بطرائفَ ضئيلة من اللَّون والحَجم". وبينما تنشغل بهذا النَّشاط النَّقديِّ والتمييزيِّ، يفوتُكَ ما هو مهمٌّ حقًّا: "أجواءُ الزَّمَن والموسم"، و"روحُ" المكان. ووُردزوُرث على حقٍّ طبعًا. لذلك، إذا كنت مُحبًّا للطبيعة على طريقته، يكون رسَّامُ المناظر الطبيعيَّة (في الهواء الطَّلق) رفيقًا أسوأَ بَعدُ من عالم النَّبات.

إنَّ "الأجواء" أو "الروح"، هي ما يهمّ. ومُحبُّو الطبيعة يُريدون أن يتلقَّوا- على أكملِ ما يُمكن- أيَّ شيءٍ تكون الطبيعة قائلةً إيَّاه، إذا جاز التعبير، في كلِّ زمانٍ ومكان. فإنَّ ما تتَّسمُ به بعضُ المناظر من غنًى وجَلال وتناغُم باديةٍ للعِيان ليس أثمنَ عندَهم ممَّا تَتَّصفُ به مناظرُ أخرى من تجهُّم أو شُحوب أو هَول أو رُتوب أو "كآبة رُؤيَة". حتَّى إنَّ الخاملَ بحدِّ ذاته يَستدرُّ منهمُ استجابةً إراديَّةً ناشطة. فهو كلمةٌ إضافيَّةٌ أخرى تَتفوَّه بها الطبيعة. وهم يكشفون أنفُسَهم إزاءَ النَّوعيَّة الصافية

التي يتميَّز بها كلُّ منظر ريفيّ، كُلَّ ساعةٍ من اليَوم. إذ يُريدون أن يتشرَّبوه ويتمثَّلوه داخلَ نُفوسهم، كي يَتلوَّنوا به أكثرَ فأكثر.

هذا الاختبار، شأنُه شأنُ اختباراتٍ كثيرة سواه، بعدَ الإشادة به ورفعه إلى الأعالي في القرن التاسع عشر، عَمَدَ المحدَثُون إلى فَضح زَيْفه. ولا بدَّ للمرء فعلًا من موافقة فاضحي الزَّيف على أنَّ وُردزوُرث، لا عندما كان يُعبِّر عن ذلك الاختبار من حيثُ كونُه شاعرًا، بل عندَما كان يتحدَّث بشأنه حديثَ فيلسوفٍ (أو مُتَفلسف) فحسْب، قال بضعةَ أشياءَ سخيفة جدًّا. فإنَّه أمرٌ سخيف- إلَّا إذا كنتَ قد وجدتَ دليلًا ما- أن تعتقدَ أنَّ الأزهارَ تستمتعُ بالهواء الذي تتنفَّسه، وأمرٌ أسخفُ ألَّا تُضيفَ أنَّ الأزهار سيَكون لها بلا شكٍّ أوجاعٌ ومسرَّاتٌ على السَّواء- لو صحَّ الدَّليل. ولم يتعلَّم كثيرون الفلسفةَ الأخلاقيَّة "بحافزٍ من غابةٍ ربيعيَّة"!

ولَو تعلَّم أولئك تلك، ما كانت بالضَّرورة لتكونَ من نوعِ الفلسفة الأخلاقيَّة التي كان من شأن وُردزوُرث أن يَستحسنها. لعلَّها تكون فلسفةَ التنافُس الذي لا يَرحَم. وأعتقد أنَّها كذلك بالنِّسبة إلى بعض المُحدَثين. فهؤلاء يُحبُّون الطبيعة بقَدْرِ ما تدعو، في نظرهم، إلى "آلهة الظلام السارية في دمائنا"؛[٣] ليس على الرُّغم من كَونِ- بل بسبب

٣ سيَتكرَّر مصطلحُ "آلهة الظلام السارية في دمائنا" (The dark gods in the blood) بضعَ مرَّات في الكتاب، وهو يشير إلى قوى الجنس والجوع وقوًى أخرى غيرهما حاضرةً بقوَّةٍ في العالم، وعاملةً بلا رحمةٍ ولا حياء في البشر كآلهةٍ تحاول السَّيطرة عليهم (الناشر).

كَونِ- الجنسِ والجوع والقوَّة المجرَّدة كلَّها عاملةً هناك بلا رحمة ولا حَياء.

إذا اتَّخذتَ الطبيعة مُعلِّمةً، فإنَّها ستُعلِّمك تمامًا الدُّروسَ التي عزمْتَ أصلًا أن تتعلَّمها؛ وما هذه إلَّا طريقةٌ أخرى للقول إنَّ الطبيعةَ لا تُعلِّم. ومن الواضح أنَّ المَيل إلى اتِّخاذها مُعلِّمةً يُطعِّم على نحوٍ غاية في السُّهولة في الاختبار الذي ندعوه "حُبَّ الطبيعة". ولكنَّ ذلك مُجرَّدُ تطعيم. فبينما نتعرَّض فعلًا "لأجواء" الطبيعة و"أمزِجَتها"، لا تدلُّنا هذه على أيَّة أخلاقيَّات. إنَّ الابتهاج الغامر، والعَظَمة الباهرة، والعُزلة الكئيبة، تُطالعُك هناك حالًا. فاجْعلْ من هذه كلِّها ما تنالُه يدُك، إنْ كان واجبًا أن تجعلَ منها شيئًا في الأساس. إنَّما الطلبُ الوحيد الذي تتفوَّه به الطبيعة هو: "انظُر؛ أصغِ؛ شاهد!".

أمَّا واقعُ كونِ هذا الطلَّب كثيرًا ما يُساءُ فهمُه ويَدفَع الناسَ إلى صياغة لاهوتيَّاتٍ خاصَّة ولاهوتيَّاتٍ مؤسَّسة على وحدة الوجود ولاهوتيَّاتٍ مُضادَّة- وهذه جميعًا يمكن فَضحُ زَيفها- فلا يمسُّ بالحقيقة الاختبارَ الأساسيَّ نفسه. وما يحصل عليه مُحبُّو الطبيعة- سواءٌ كانوا وُردزوُرثيِّين أم أشخاصًا "آلهة الظلام التي تسري في دمائنا"- من الطبيعة هو تمثيلٌ تصويريٌّ بلُغَة الصُّوَر. لستُ أعني الصُّوَر المَرئيَّة فحسْب؛ بل إنَّ الصُّور هنا هي "الأجواء" و"الأمزجة" ذاتُها: التجلِّياتُ القويَّة للهول والكآبة والمَرَح والقساوة والشهوة والبراءة والطهارة. فبهذه كلِّها يستطيع كلُّ إنسانٍ أن "يُلبِسَ" مُعتقدَهُ الخاصّ. وعلينا أن نتعلَّم لاهوتيَّاتِنا أو

فلسفتَنا في مكانٍ آخر (من غير المُفاجئ أنّنا غالبًا ما نتعلّمها من اللّاهوتيّين والفلاسفة).

ولكنْ عندما أتكلّم عن "إلباس" مُعتقداتِنا صُوَرًا كهذه، لا أعني شيئًا من قبيل استخدام الطبيعة في التّشابيه والاستعارات على طريقة الشُّعراء. فقد كان ممكنًا بالحقيقة أن أستخدمَ تعبير "المَلْء" أو "التجسيد" بدلًا من الإلباس. إنّما كثيرون من الناس- وأنا واحدٌ منهم- ما كانوا، لولا ما تفعله الطبيعةُ بنا، ليَملكوا أيَّ معنًى يَسكُبونَه في الكلمات التي يجب أن نستخدمها في الاعتراف بإيماننا. فالطبيعة لم تُعلّمني قطُّ أنَّ إلهَ مجدٍ وجلالٍ غيرَ محدود هو موجود. وقد كان عليَّ أنّ أتعلّمَ ذلك بطُرقٍ أخرى. غير أنَّ الطبيعةَ أضفَت على الكلمة "مجد" معنًى عندي. وما زلتُ لا أعلم في أيِّ مكانٍ آخر كان ممكنًا أن أجدَ معنًى كهذا. فلا أدري كيف كان ممكنًا أن تعني لي أصلًا مخافةُ الله أيَّ شيءٍ سوى أدنى المساعي الاحترازيَّة في سبيل الأمان والسلامة، لو لم أكنْ قد شاهدْتُ بضعَة وديانٍ سحيقة مُروِّعة وأجرافٍ لا يُدنَى منها؛ ولو لم تكُنِ الطبيعة قد أيقظتْ فيَّ أشواقًا مُعيَّنة، ما كانَت ستوجَدُ- بمقدارِ ما أستطيع أن أرى- مساحاتٌ واسعةٌ ممّا أستطيع الآنَ أن أعنيَه بمحبّة الله.

لا شكَّ أنَّ حقيقةَ كَون المؤمن بالسيِّد المسيح يستطيع أن يستخدمَ الطبيعةَ استخدامًا كهذا ليستْ حتّى بَدايةَ بُرهانٍ على أنَّ المسيحيَّة صحيحة. فأولئك الذين يُعانُون من جرَّاء "آلهة الظلام" يستطيعون

أن يستخدموها بالمِثل (كما أرى) في سبيل عقيدتهم. ذلك هو بَيتُ القصيد على وجه التّحديد: أنَّ الطبيعةَ لا تُعلّم. فإنَّ فلسفةً صحيحةً قد تؤيِّد أحيانًا اختبارًا للطبيعة. أمّا اختبار الطبيعة فلا يمكن أن يؤيِّد فلسفةً ما. فالطبيعةُ لن تُثبِتَ صحَّةَ أيّة مسألة لاهوتيّة أو ميتافيزيقيَّة (أو ليس على الشاكلة التي ننظر فيها الآن)؛ إلّا أنّها ستُساعِدُ على إبداء ما تَعنيه تلك المسألة.

ثُمَّ إنَّ ذلك ليس بالصّدفة، على أساس المُقدّمات المسيحيَّة. فقد يُتوقَّع أن يُعطيَ المجدُ المخلوقُ إلماعاتٍ (إشاراتٍ) ذهنيَّةً إلى غير المخلوق؛ لأنَّ الأوَّل مُستمَدٌّ من الثاني، وهو يعكسه بطريقةٍ ما.

أجَل، بطريقةٍ ما. ولكنْ ربَّما ليس بطريقةٍ مباشرةٍ وبسيطة كما قد نفترض أوَّل وهلةٍ. فإنَّ جميعَ الحقائق التي يُشدِّد عليها مُحبُّو الطَّبيعة من أتباع المدرسة الأخرى هي بالطبع حقائقُ أيضًا؛ إذ إنَّ في البطن طُفيليَّاتٍ كما أنَّ في الغابة زهرَ ربيع. وإنْ حاولْتَ أن تُوفِّق بين الأمرَين، أو أن تُبيِّن أنّهما لا يحتاجان حقًّا إلى تَوفيق، تتحوَّلُ عن اختبار الطبيعة المباشر- وهو موضوعُنا الحاليّ- إلى الميتافيزيقيا، أو الدِّفاع عن عدالة الله، أو شيءٍ من هذا القبيل. ربَّما كان ذلك أمرًا جليلًا يحسن القيامُ به؛ ولكنّي أعتقدُ أنّه ينبغي أن يُبقَى مُستَقلًّا عن حبِّ الطبيعة. فبينما نحنُ على ذلك المُستوى؛ وبينما نُصرِّح بعدُ بأنّنا نتكلّم بما "قالَت" لنا الطبيعة مُباشرةً، يجب أن نلتزمَ ذلك. إنّنا قد رأينا صورةً عن المجد. فيجبُ ألّا نحاولَ التعثُّرَ على سبيلٍ مُباشر من خلالها وما وراءها

إلى معرفةٍ مُتَزايدةٍ لله. ذلك أنَّ السبيلَ المُلتمَس يتلاشى في الحال تقريبًا، إذ تخنقه الأهوالُ والألغاز، كاملُ أعماقِ مَشُورات الله ومُجمَلُ تشابُكات تاريخ الكون. ونحن لا نستطيع أن نشقَّ طريقنا عبرَ ذلك كلِّه؛ ليسَ بهذه الطريقة. فعلينا أن ننعطفَ ونسلكَ سبيلًا آخر: أن نتركَ التِّلالَ والغابات ونرجع إلى دراستنا، إلى الكنيسة، إلى كتابنا المُقدَّس، إلى الجُثُوِّ على رُكَبنا. وإلَّا، فإنَّ حبَّ الطبيعة يبدأ بالتحوُّل إلى دينٍ طبيعة. وعندئذٍ، حتَّى لو لم يؤدِّ بنا ذلك إلى آلِهة الظلام، فإنَّه سيؤدِّي بنا إلى مقدارٍ كبير من الأمور التَّافِهة.

ولكنْ لا داعيَ لأنْ نتنازل عن حبِّ الطبيعة لفاضِحي الزَّيْف، إذا كان مصقولًا ومحدودًا كما اقترحتُ. فإنَّ الطبيعة لا يمكنها أن تُشبعَ الأشواقَ التي تُثيرها، ولا أن تُجيب عن الأسئلة اللَّاهوتيَّة، ولا أن تُقدِّسَنا. كما أنَّ مسيرتَنا الحقيقيَّة نحو الله تتضمَّن دائمًا أن نُديرَ ظهورَنا للطبيعة؛ مُنتَقلين من الحقول التي تترامَى عليها أضواءُ الفجر إلى داخل كنيسةٍ صغيرةٍ ضيِّقة، أو ذاهبين (رُبَّما) إلى العَمَل في منطقةٍ نائية. ولكنَّ حبَّ الطبيعة لم يتوقَّفْ عن أن يكونَ نقطة انطلاقٍ مُهمَّةً، ولا بدَّ منها عند بعض الناس.

ولا داعيَ لأن أقول "لم يتوقَّف". ففي الحقيقة أنَّ أولئك الذين لا يسمحون بما يتعدَّى حبَّ الطبيعة هذا، يبدو أنَّهم أولئك الذين يَستَبْقونه. وهذا هو ما ينبغي أن يتوقَّعه المرء. فعندما يقوم هذا الحُبُّ كما لو كان دِينًا، يبدأ بأن يكون إلهًا- ومن ثَمَّ بأن يكون

شيطانًا. والشياطين لا يَفُون بوعودهم أبدًا. فالطبيعة "تموت" عند الذين يحاولون أن يعيشوا في سبيل حُبِّ للطَّبيعة. وقد انتهى الشاعر كُولرِيدج (Coleridge) إلى اللَّامُبالاة بالطبيعة؛ أمَّا الشاعر وُردزوُرث فإلى رثاء مجدها الآفِل. إن تَلَوتَ صلواتك في حديقةٍ باكرًا، مُتجاهِلًا بثَباتِ النَّدى والطيورَ والزهور، تَرجِعْ مغمورًا بجدَّة الطبيعة وبهجتها؛ واذهبْ إلى هناك لكي تغمرَك مباهجُها، وبعدَ عُمرٍ مُعيَّنٍ لا يحدث لك شيءٌ في تِسعِ مرَّاتٍ من عَشر.

والآنَ أنتقلُ إلى حُبِّ المرء لوَطنه. ولا داعيَ هنا إلى إطالة المُكوث عند حكمة أم. دنس دي روجمون؛ فنحن جميعًا نعلم أنَّ هذا الحُبَّ يصير شيطانًا حين يصير إلهًا. ويبدأ بعضُهم بالارتياب في كَون حُبِّ الوطن أيَّ شيءٍ على الإطلاق ما عدا شَيطانًا. إلَّا أنَّنا عندئذ سنُضطرُّ إلى رفضِ نصفِ القصائد الرَّفيعة ونصفِ الأعمال البطوليَّة التي أنجزَها جنسُنا. ولا يَسَعُنا أن نستبقيَ حتَّى رثاء السيِّد المسيح لأورشليم- فهو أيضًا أبدى حُبًّا لبلاده.

ولنُضيِّقْ نطاقَ البحث هُنا. إذ ليس ما يدعونا هُنا إلى كتابة مقالةٍ في الأخلاقيَّات الدُّوَليَّة. فحين يغدو هذا الحبُّ شيطانيًّا، فسيُنتِج بالطَّبع أفعالًا شرِّيرة. ولكنَّ آخرين، أكثرَ مهارةً، قد يقولون أيَّةُ أفعالٍ بين الأمم هي شرِّيرة. فنحن إنَّما ننظرُ في العاطفة بحدِّ ذاتها، آملين أن نكونَ قادرين على أن نُميِّزَ حالتَها البريئة من حالتها الشَّيطانيَّة. وكِلتا هاتين ليستا السَّببَ الفعَّال في سلوك الأمم. فإنَّ الحُكَّام، لا الأمم- بكلامٍ

حصريّ- هم الذين يسلكون سلوكًا دُوَليًّا. وحبُّ الوطنِ الشَّيطانيُّ لدى رعاياهم- وأنا أكتب للرعايا وحدهم- سوف يجعل التصرُّفَ الشرِّير أسهلَ عليهم. أمَّا حبُّ الوطنِ السليمُ فقد يجعل ذلك أصعبَ على الحُكَّام. فحينَ يكون هؤلاء أشرارًا يمكن أن يُشجِّعوا بالدِّعاية على نشوء حالةٍ شيطانيَّة في عواطفنا لكي يضمنوا إذعانَنا لشرِّهم. وإذا كانوا صالحين، ففي وسعهم أن يفعلوا عكس ذلك. هنا يكمن سببٌ يدعونا، نحن الأشخاصَ المخصوصين، إلى وجوب إبقاءِ عينٍ يَقظَى على صحَّة حبِّنا الخاصِّ لوطننا أو على اعتلاله. وذلك هو ما أكتبُ بشأنه.

أمَّا تَعارُض الوطنيَّة فيُمكن أن يُقاسَ بواقع كَون الأديبَين كيپلنغ (Kipling) وتشسترتون (Chesterton) قد عبَّرا عنها بطريقةٍ أقوى من تعبيرِ سواهما. ولَو كانت عُنصرًا واحدًا، ما كان يُعقل أن يمتدحها رجُلانِ كهذَين. ففي الواقع أنَّها تتضمَّن عدَّة مُقوِّمات، يُحتَمل أن تُمزَج في توليفاتٍ مختلفة كثيرة.

أوَّلًا، لَدَينا حبُّ المنزل، ذلك المكانِ الذي نشأنا فيه، أو الأماكن التي كانت منازلَ لنا، وربَّما كانت أماكنَ كثيرة؛ وحبُّ جميع الأماكن القريبة منها والمُشابِهة لها جدًّا، وحبُّ مَعارفنا القُدامى، والمناظرِ المألوفة والأصوات والروائح المعهودة. لاحظْ أنَّ هذا، على نطاقه الأوسع، يَعني عندنا نحن الإنكليزَ حُبَّ إنكلترا أو وَيلز أو اسكُتلندا أو إيرلندا. إنَّما الأجنبيُّون والسِّياسيُّون هم وحدَهم يتحدَّثون بشأن

"بريطانيا".[٤] فمقولةُ كيپلنغ "لا أُحبُّ أعداء إمبراطوريَّتي" تعزف وترًا ناشزًا على نحوٍ مُضحِك. إمبراطوريَّتي! ومع حُبِّ المكان هذا يجري حبٌّ لنَمَط الحياة؛ للبيرة والشَّاي والنيران المضرمة في العراء، والقطارات ذاتُ المقاصير، وقوَّة الشُّرطة غير المسلَّحة، وكلِّ ما بقي؛ للَهجاتنا المحلِّيَّة ولُغتِنا الأُمِّ (بدرجةٍ أدنى قليلًا). وكما يقول تشسترتون، فإنَّ الأسبابَ التي تحدو المرءَ على عدم الرغبة في أن يحكمَ الغُرَباءُ بلدَه شبيهةٌ جدًّا بتلك التي تحدوه على عدم الرغبة في أن يُحرَقَ بيتُه ويُهدَم؛ لأنَّه "لن يستطيعَ حتَّى البدءَ" بإحصاء جميع الأشياء التي سيَفقدها.

وسيَكون صعبًا أن نجد أيَّةَ نقطة استشرافٍ مبرَّرة منها يمكن أن نشجبَ شعورًا كهذا. فكما أنَّ العائلةَ تُوفِّر لنا الخطوةَ الأولى لتَخطِّي حبِّ الذات، هكذا يوفِّر لنا هذا الشُّعورُ الخطوة الأولى لتَخطِّي الأنانيَّة العائليَّة. إنَّه طبعًا ليس محبَّةً مَحَضة؛ إذ يشتملُ على حُبِّنا لأقربائنا بالمعنى المحلِّيّ، وليس لقريبنا بالمعنى الربَّانيّ. ولكنَّ أولئك الذين لا يحبُّون أهلَ قريَتهم أو مدينتهم الذين قد رأوهم فعلًا لا يُرجَّح أن يكونوا قد قطعوا شَوطًا بعيدًا نحو محبَّة "إنسان" لم يَرَوه. فإنَّ جميع العواطف الطبيعيَّة، بما فيهنَّ هذه، يمكن أن يَصِرنَ مُنافِساتٍ للمحبَّة

٤ من المعروف أنَّ الدُّوَل المذكورةَ أعلاه تكوِّن معًا بريطانيا. لذا فإنَّ الأفراد العاديِّين يتحدَّثون بشأن بلدهم ومدينتهم ومنطقتهم بالتَّحديد، فيما يتحدَّث السياسيُّون بشأن "بريطانيا" عمومًا (الناشر).

الروحيَّة. ولكنَّهن قد يكُنَّ أيضًا مُحاكَيات تمهيديَّة لها، تمرّنات (إذا جاز التعبير) للعضلات الروحيَّة التي قد تُكلِّفها النِّعمة في ما بعد وظيفةً أسمى؛ مثلما تتعهَّد النِّساءُ دُمًى في صغَرِهنَّ، ثُمَّ يتعهَّدن الأولاد في ما بعد. قد تأتي مُناسَبةٌ لنَبذ هذا الحبِّ الطُّفوليّ- "لقَلع عينك اليُمنى". ولكنْ لا بُدَّ أن تكون لك عَينٌ أوَّلًا. فإنَّ المخلوقَ الذي ليسَت لَهُ عين- ولم يَحُز سوى نقطة "حسَّاسة للضوء"- يؤدّي مَهمَّةً سيِّئةً جدًّا في التأمُّل بتلك الآية الصارمة.

طبعًا، إنَّ وطنيَّةً من هذا النَّوع ليست عدائيَّة البتَّة. فهي تطلب فقط أن تُترَكَ وشأنَها. وهي تصير مُناضِلةً فقط للدِّفاع عمَّا تحبّ. وفي أيِّ ذهنٍ يملك قدْرًا ضئيلًا من الخيال، تُنتجُ مَوقفًا حسنًا تُجاهَ الغُرَباء. فكيف يمكن أن أُحبَّ مَوطني بغير أن أغدوَ مُدركًا أنَّ الآخرين يحبُّون مَوطنهم، على نحوٍ لا يقلُّ صحَّةً؟ ما إن تُدركْ أنَّ الفرنسيِّين يُحبُّون القهوة الفاخرة تمامًا كما نحبُّ نحنُ الإنكليزَ قَديدَ اللَّحم والبيض، حتَّى تقول: حسنًا، وفَّقهم الله، فليكُن لهم ذلك! فآخِرُ شيءٍ نُريدُه هو أن نجعلَ كلَّ مكانٍ آخر مُشابهًا لَموطِننا. ولَن يكونَ ذلك مَوطنًا لغيرنا إلَّا إذا كان مختلفًا عن مَوطِننا.

أمَّا المُقوِّم الثاني فهو موقفٌ مخصوصٌ حيالَ ماضي بلدنا. أعني حيالَ ذلك الماضي كما يعيش في الخيال الشَّعبيّ. أمَا تذكُر ماراثون (Marathon)؟ أمَا تذكُر واترلو (Waterloo)؟ "يجب أن نكون أحرارًا، وإلَّا فَلْنَمُت، نحن الذين نتكلَّم باللسان الذي به تكلَّم

شكسبير (Shakespeare)". ونحن نشعر بأنَّ هذا الماضيَ، في آنٍ معًا، يفرض علينا واجبًا ويُقدِّم إلينا ضمانًا: إذ يجب ألَّا نُقصِّر عن النَّموذج الذي أقامه لنا آباؤنا. ولأنَّنا أبناؤهم، فالأمل كبيرٌ بأنَّنا لن نُقصِّر.

ليس لهذا الشُّعور أمورٌ قويَّةٌ تسنده كالتي لمحبَّة المَوطن المحضة. فإنَّ التاريخَ الفعليَّ لكلِّ بَلَدٍ زاخرٌ بالأعمالِ المزرية، بل المخزيةِ أيضًا. والقصص البُطوليَّة، إذا عُدَّت نموذجيَّة، تُعطي انطباعًا زائفًا عن ذلك، وغالبًا ما تكون في ذاتها عُرضةً للنَّقد التاريخيِّ الجدِّيّ. من هنا كانت الوطنيَّة المؤسَّسة على ماضينا المجيد هدفًا مشروعًا لفاضح الزَّيف. وإذ تَزدادُ المعرفة، يمكن أن تتصدَّعَ تلك الوطنيَّة وتتحوَّلَ إلى خيبة أملٍ ساخرة خائبة، أو يمكن أن تُستَبقَى بإغماضٍ عن عمد للعيون. ولكنْ مَن يستطيع أن يشجبَ شيئًا يجعل بشرًا كثيرين، في لحظاتٍ مُهمَّة كثيرة، يتصرَّفون تصرُّفًا أفضل بكثير ممَّا كان ممكنًا أن يتصرَّفوهُ بمعزلٍ عن مساعدة ذلك الشَّيء؟

إنَّما أعتقد أنَّه يمكن أن نتقوَّى بصورة الماضي بغير أن ننخدعَ أو ننتفخَ على السواء. فالصُّورة تصيرُ خَطِرةً تمامًا بمقدارِ ما تُحسَبُ على نحوٍ خاطئ دراسةً تاريخيَّة منهجيَّة جدِّيَّة، أو تُستبدَلُ بهذه الصورة تلك الدراسة التاريخيَّة. إذ إنَّ القصَصَ تكونُ على أفضلِ حالٍ حين تُنقَلُ وتُقبَلُ باعتبارها قصَصًا. لستُ أعني بهذا أنَّها ينبغي أن تُنقَل كَرواياتٍ خياليَّة صِرف (وبعضُها حقيقيٌّ رُغمَ كلِّ شيء). غير أنَّ التَّشديد يجب أن يكونَ على القصَّة التي لها هذه الصِّفة،

على الصُّورة التي تُضرِم الخيال، على المِثال الذي يُشدِّد الإرادة. وينبغي للتِّلميذ الذي يسمع هذه القِصص أن يشعر على نحوٍ مُبهَم بأنَّه يسمع قِصَصَ مآثِرَ بُطوليَّة. وإن كان لا يستطيع بالطَّبع أن يُعبِّر عن ذلك بالكلمات. فَلْيَتحمَّسْ- "خارجَ المدرسة" كما يُفضَّل- "بالأعمال التي كَسبَت الإمبراطوريَّة" ويَتشوَّقْ إليها؛ ولكنْ كُلَّما قلَّلنا من مَزج ذلك "بِدُروس التاريخ" التي يتلقَّاها، أو قلَّلنا من إيهامه بأنَّها تحليلٌ جدِّيٌّ للسِّياسة الاستعماريَّة- وأسوأ من ذلك بَعدُ تسويغٌ لها- كان الأمر أفضلَ.

لمَّا كنتُ صغيرًا، كان عندي كتابٌ مملوءٌ بالصُّور المُلوَّنة، عنوانُه "قصَّةُ جَزيرتِنا" (Our Island Story). ولطالما بدا لي كلَّ حين أنَّ ذلك العنوان ضربَ الوترَ الصحيح تمامًا. ولم يبدُ الكتابُ قطُّ شبيهًا بكتاب مدرسيٍّ أيضًا. إنَّما ما يبدو لي بالفعل سامًّا، ما يُنشِئُ نوعًا من الوطنيَّة خبيثًا إذا دام في راشدٍ مُثقَّف، مع أنَّه لن يدومَ طويلًا على الأرجح، هو تلقينُ الناشئة تاريخًا يُعرَفُ بأنَّه مُزيَّف أو مُتحيِّز- تلقينهم الأساطير البطوليَّة التي تعمل بِرَتابة على إقناع قارئيها بوَصفها حقائقَ تَضمُّها الكتبُ المدرسيَّة. ومع هذا يندسُّ الافتراضُ الضِّمنيُّ أنَّ الأممَ الأخرى ليس لها أبطالُها على قدم المساواة؛ وربَّما أيضًا الاعتقادُ أنَّ في وسعنا أن "نَرِثَ" حرفيًّا تقليدًا ما- ولا شكَّ أنَّ هذا عِلمُ أحياءٍ رديءٌ جدًّا. وهذان يكادان يؤدِّيان حتمًا إلى أمرٍ ثالثٍ يُدعى "وطنيَّةً" أحيانًا.

هذا الأمرُ الثالث ليس عاطفة، بل عقيدة: اعتقادٌ ثابت، بل مُبتذَلٌ أيضًا، أنَّ أمَّتنا الخاصَّة، في الواقع الفعليّ، طالَما كانت وما تزال أسمى من جميع الأمَم الأخرى على نَحوٍ جَليّ. وقد تجرَّأتُ مرَّةً فقلتُ لرجُلِ دينٍ كبيرِ السنِّ كان يُجاهِر بهذا النَّوعِ من الوطنيَّة، وقد قلتُ له: "ولكنْ، سيِّدي، ألا يُقالُ لنا إنَّ كلَّ شعبٍ يحسبُ رجالَه أشجعَ الرِّجال ونساءَه أجملَ النِّساء في العالَم؟" فأجاب على نحوٍ غاية في الوَقار: "نَعم، ولكنَّ هذا الكلام صحيحٌ في إنكلترا!" وما كانت إجابته أكثرَ وَقارًا من ذلك لو كان يتلو قانون الإيمان عند المذبح. يقينًا أنَّ هذا الاقتناعَ لم يجعل صديقي (أراح الله نفسه!) وَغْدًا، بل مجرَّدَ شيخٍ عنيد محبوبٍ جدًّا. ولكنَّ ذلك يمكن أن يُنتِجَ أوغادًا يَنهشون ويُهشِّمون. وفي الجَناح المُتطرِّف، قد يُلقي الأمرُ بظلاله على الحقد العُنصريِّ الشعبيِّ الذي تحظرُه المسيحيَّة والعِلم على السَّواء.

وهذا يُوصِلُنا إلى المُقوِّم الرَّابع. فإذا كانت أمَّتُنا بالحقيقة أفضلَ بمقدارٍ كبيرٍ من الأمم الأخرى، فقد تُعدُّ صاحبةَ واجباتٍ أو حقوقٍ تُجاهَ تلك الأمم من قبيل ما يملكه الكائنُ المُتفوِّق. وفي القرن التاسع عشر باتَ الإنكليز واعينَ جدًّا لواجباتٍ من هذا النوع: "عبء الرَّجُل الأبيض". فمَن سمَّيناهم "أهلَ البَلَد" كانوا القاصرين الموضوعين في عُهدَتِنا، وكُنَّا نحنُ أوصياءَهم المُعيَّنين. ولم يكن هذا كلُّه رياءً أو نِفاقًا. فقد نفعناهم فعلًا ببعض الخير. ولكنَّ عادتَنا في التكلُّم كما لو كانت دوافعُ إنكلترا لاكتسابِ إمبراطوريَّةٍ (أو دوافعُ أيِّ شابٍّ لطلب

وظيفة في "الخدمة المدنيَّة الهنديَّة") لاأنانيَّةً بصورةٍ رئيسيَّة، قد أثارت غَثيانَ العالَم. غير أنَّ ذلك أظهرَ الشُّعورَ بالتَّفوُّق عاملًا في أفضل حالاته. وبعض الأمم التي ساورها هذا الشُّعورُ أيضًا شدَّدَت على الحقوق دون الواجبات. وفي نظرها أنَّ بعض الأجنبيِّين أردياءُ جدًّا بحيثُ يحوزُ المرءُ حقَّ إبادتهم. أمَّا الآخرون، وهم مؤهَّلون فقط لأنْ يكونوا حطَّابين وسقَّائين عند "الشَّعب النُّخبَة"، فخيرٌ لهم أن يُترَكوا ليَستمرُّوا في الاحتطاب والسَّقي. حقًّا إنَّ على المتسابقين أن يعرفوا المُراهِنينَ عليهم! وأنا بعيدٌ من أن أرتئيَ أنَّ كِلا الموقفَين هما على مُستوًى واحد. غير أنَّ كِلَيهما مُهلكان. فكلاهما يُطالِب بأنَّ المجالَ الذي ينشط فيه ينبغي أن يغدوَ "أوسعَ بعدُ وأوسع". وعلى كِلَيهما هذه الوصمة الشرِّيرة المُحقَّقة: بكونِهما رهيبَين فقط يتجنَّبان فعلًا أن يكونا مَدعاةً للسُّخرية. فلو لم تكن مُعاهداتٌ مَنقوضةٌ مع الهنود الحُمر، ولا إبادةٌ للأستراليِّين الأصليِّين التَّسمانيِّين (Tasmanians)، ولا حُجْراتُ غاز، ولا مُعَسكَراتُ اعتقال كالتي في بلزن الألمانيَّة (Belsen)، ولا فتنةٌ دمويَّةٌ في أمريتسار الهنديَّة (Amritsar)،[٥] ولا تَفرِقَةٌ بين بيضٍ وسودٍ وسُمر، ولا سياسةُ تمييزٍ عنصريّ، لكان تَباهي كِلا الفريقَين مسرحيَّةً هزليَّةً مُقَهقِهَة.

٥ هي مدينة في إقليم البنجاب الهنديّ قرب الحدود مع پاكستان، وهي مركز إيمان الطائفة السيخيَّة. في ١٣ نيسان (إبريل) عام ١٩١٩، قتلت القوَّات البريطانيَّة فيها مئاتٍ من الوطنيِّين الهنود (الناشر).

أخيرًا نصل إلى المرحلة التي فيها تُنكر الوطنيَّةُ بشكلها الشَّيطانيِّ نفسَها دونَ وعي. وقد تعمَّد تشسترتون التوقُّفَ عند بيتَين من شعر كپلنغ بوصفهما مَثَلًا كاملًا على ذلك. كان الأمرُ مُجحِفًا بحقِّ كپلنغ الذي عرف ما يمكن أن يعنيَه حبُّ الوطن، وذلك على نحو رائع إذ كان هائمًا (محتارًا في هويَّته الوطنيَّة) إلى حدٍّ بعيد. ولكنَّ ذَينكَ البيتَين، مَعزولَين، يمكن أن يُعدَّا تلخيصًا للموضوع. وهما يجريان على النحو التالي:

لو كانت إنكلترا أصلًا	كما تبدو عليه فعلًا،
لَنبذناها حالًا نَبْذا...	لكنَّها ليسَت هكذا!

إنَّما المحبَّةُ لم تتكلَّم قطُّ على هذا النَّحو. فذلك أشبهُ بأن تُحبَّ أولادَك فقط "إذا كانُوا جيِّدين"، وزوجتَكَ فقط إذا حافظَتْ على جمالها، وبأن تُحبِّي زوجَك فقط ما دام مَشهورًا وناجحًا. وقد قال واحدٌ من اليونانيِّين: "لا أحدَ يحبُّ مدينتَهُ لأنَّها عظيمة، بل لأنَّها مدينتُه". فمن أحبَّ بلادَهُ حقًّا يحبُّها في خرابها وانحطاطها: "يا إنكلترا، رُغمَ جميع عيوبك، ما زِلتُ أحبُّكِ!" ولئن كانَت في نظره "مسكينةً بائسة"، فإنَّهُ يُخاطبُها قائلًا: "إنَّما أنت لي". وقد يَحسبُها فاضلةً وعظيمةً حين لا تكون كذلك، لأنَّه يحبُّها؛ والتوهُّم مُمكنٌ اغتفارُه إلى حدٍّ ما. غير أنَّ جُنديَّ كپلِنغ يعكس الآية؛ فهو يُحبُّها لأنه يَحسبُها فاضلةً وعظيمة- يحبُّها من أجل استحقاقها. إنَّها مؤسَّسةٌ تجري حسنًا، ويُشبعُ فخرَه أن يكونَ فيها. فماذا يكون لو كفَّت عن أن تكون كذلك؟

الجوابُ معروضٌ بوضوح: "لنَبذناها حالًا نَبذا". عندما تبدأ السفينة تَغرق، يَتركُها حتمًا. وهكذا، فإنَّ نوعَ الوطنيَّة ذاك الذي ينطلقُ بأعظم استعراضٍ مُتَغطرسٍ تصحبه الطُّبول والرايات إنَّما يسيرُ فعلًا على الدَّرب الذي قد يؤدِّي إلى "ڤيشي".[٦] وهذه ظاهرةٌ سوف نلتقيها ثانيةً. فحينَ تصير المحبَّاتُ الطبيعيَّة جامحةً، لا تضرُّ المحبَّاتِ الأخرى فحسب؛ بل تكفُّ هي ذاتُها عن أن تكون تلك المحبَّاتِ التي كانَتها- تكفُّ عن أن تكون محبَّاتٍ على الإطلاق.

وهكذا، فإنَّ للوطنيَّة أوجُهًا عديدة. وأولئك الذين من شأنهم أن يَرفضوها كُلِّيًّا لا يبدو أنَّهم قد تَفكَّروا في ما سيَحلُّ محلَّها حتمًا، وهو أمرٌ قد بدأ يحلُّ فعلًا. فإلى أمَدٍ طويلٍ بَعدُ، أو ربَّما إلى الأبد، سوف تعيش الأوطان تحت الخطر. وعلى الحُكَّام، بطريقةٍ ما، أن يُشجِّعوا رعاياهم على الدِّفاع عنها، أو بالأقلِّ على الاستعداد للدِّفاع. فحيثُ تكون العاطفةُ الوطنيَّة قد تبلَّدتْ، لا يمكنُ القيام بذلك إلَّا بعرضِ كلِّ نزاعٍ دُوَليٍّ في ضوءٍ أخلاقيٍّ صرف. فإن كان الناس لا يبذلون العَرَقَ ولا الدَّم في سبيل "بلادهم"، يجب أن يُدفَعوا إلى الشعور بأنَّهم يبذلونهما في سبيل العدالة، أو المدنيَّة، أو الإنسانيَّة. وهذه دَرَجةُ نُزول، لا صعود. فلا داعيَ طبعًا لأنْ تستخفَّ العاطفةُ الوطنيَّة بالأخلاق.

٦ ڤيشي هي إحدى المدن الفرنسيَّة الواقعة في الوسط، و التي لم يحتلَّها الألمان النازيُّون أثناء الحرب العالميَّة الثانية، غير أنَّ بعض الڤيشيِّين ما لبثوا أن انقلبوا على بعضهم، إذ تحالفوا مع الألمان، فصارت وطنيَّتهم خيانةً لقَومهم (الناشر).

ينبغي أن يُقنَعَ الصالحون بأنَّ قضيَّةَ بلدهم عادلة؛ ولكنَّها ما تزال قضيَّة بلدهم، لا قضيَّة العدالة بحدِّ ذاتها. والفرقُ يبدو لي مهمًّا. فربَّما أعتقد، بلا برٍّ ذاتيٍّ ولا رياء، أنَّ من العدل أن أحميَ منزلي بالقوَّة من سارق. ولكنْ إذا شرعتُ أتظاهر بأنِّي سبَّبتُ له كَدمةً حول عَينه على أُسُسٍ خُلُقيَّةٍ صِرف- غيرَ مُبالٍ كُلِّيًّا بحقيقة كَون المنزل المَعنيِّ مِلكي- أصير شخصًا لا يُطاق. والادِّعاءُ بأنَّه حين تكون قضيَّةُ إنكلترا عادلةً نقف إلى جانبها- كما قد يقف مُحايدٌ مثل دونكيشوت (Don Quixote)[٧] الفارس المغوار المتحيِّز للشَّرف- من أجل ذلك السبب فحسْب، أمرٌ زائفٌ بالمِثل. ثُمَّ إنَّ الهُراءَ يَجرُّ الشرَّ وراءَه. فإذا كانت قضيَّةُ بلدنا هي قضيَّةَ الله، وجب أن تكونَ الحروبُ حروبَ إبادة. وهكذا يُضفَى سُموٌّ زائفٌ على الأشياء التي هي إلى أقصى الحدود من هذا العالَم.

إنَّ جلالَ الوجدان الوطنيِّ القديم كَمَنَ في كَونه ظَلَّ يَعرف ذاته بأنَّه وجدان، رُغمَ إمكانه أن يملأ الرِّجال بالعزم والتَّصميم للقيام بأقصى المآثِر. فقد كان مُمكنًا أن تكونَ الحروب بُطوليَّةً من غير أن تتظاهرَ بأنَّها حروبٌ مقدَّسة. ولم يكُن أحدٌ يخلط بين مَوت البطل ومَوت الشَّهيد. ثُمَّ إنَّ الوجدانَ نفسَه (وما أبهجَ هذا الأمر!) ذاك الذي كان يمكنُ أن يكونَ جدِّيًّا جدًّا في عمليَّة تستهدفُ ضَرْبَ حامية الجيش الخلفيَّة، يمكن أيضًا في زمن السِّلم أن يَسترسِلَ هو ذاتُه في المَرَح، شأنُه في ذلك

٧ دونكيشوت هو بطل رواية ألَّفها الروائيُّ الإسبانيُّ ثيربانتيس (Cervantes). كان دونكيشوت فارسًا مغوارًا مدافعًا عن الشرف، غير أنَّ قِيَمه الرفيعة لم تكن عمليَّة (الناشر).

شأنُ ما تفعله جميعُ المحبّات السَّعيدة أغلبَ الأحيان. حتَّى لَيمُكنُ أن يضحكَ على ذاته. فالأناشيدُ الوطنيَّة الإنكليزيَّة القُدمى لا يمكن أن تُنشَدَ من غير طرفةٍ في العَين؛ أمَّا تلك التي أعقبَتها فلها وَقعٌ يجعلُها أشبه بالتَّرانيم الدينيَّة.

لا بُدَّ أن يُلاحَظ أنَّ نوعَ المحبَّة الذي عكفتُ على وَصفه، بجميع مقوِّماته، يمكن أن يتوجَّه إلى شيءٍ ما غير الوطن: إلى مدرسة، أو فَوج عسكريّ، أو عائلة كبيرة، أو طَبَقة. فما تزال جميعُ الانتقادات نفسها تنطبقُ أيضًا. كذلك يمكن أن يُشعَرَ به أيضًا تُجاهَ كياناتٍ تستدعي ما يتخطَّى العاطفة الطبيعيَّة: تُجاهَ كنيسة، أو فرقةٍ في كنيسة (واحَسْرَتاه!)، أو أخويَّة دينيَّة. ومن شأن هذا الموضوع الرهيب أن يتطلَّب كتابًا مخصوصًا به. إنَّما يكفي هنا أن نقول إنَّ "المجتمعَ السماويَّ" هو أيضًا مجتمعٌ أرضيّ. فإنَّ وطنيَّتَنا (الطبيعيَّةَ فحسْب) تُجاهَ الأخير يمكن على نحوٍ غاية في السُّهولة أن تَستعير مَطالبَ الأوَّل السامية وتستخدمها لتسويغ أبغضِ الأعمال. ولو كُتِب الكتابُ الذي لن أكتُبَه البتَّة لَوجبَ أن يكونَ اعترافَ المسيحيَّة[٨] الكامل بإسهامها المُحدَّد في مجموع الوحشيَّة والخيانة البشريَّتَين. فإنَّ مساحاتٍ كبيرةً من "العالَم" لن تسمعَنا قبل أن نتبرَّأَ علانيَةً من قِسمٍ كبيرٍ من

٨ تجدر الإشارة هنا إلى أنَّ المؤلِّفَ استخدمَ الكلمةَ الإنكليزيَّة (Christendom) والتي تحمل معنى المسيحيَّة كنظام مؤسَّسيّ، وليس الكلمةَ الإنكليزيَّة (Christianity) والتي تعبِّر عن المسيحيَّة كإيمانٍ ومُعتقَداتٍ جوهريَّة (الناشر).

ماضينا. ولماذا ينبغي أن تسمعَنا؟ لقد هتفنا باسْم السيِّد المسيح فيما شرَّعنا خدمةَ مولك (الإله الوثنيّ الذي اعتادَ النَاسُ تقديمَ أولادهم ذبائح وتقدماتٍ إليه!).

وقد يُخيَّل لبعضهم أنَّه لا ينبغي أن أختم هذا الفصل دون كلمةٍ عن حُبِّنا للحيوانات. إلَّا أنَّ ذلك يناسب الفصلَ التالي على نحوٍ أفضل. فسواءٌ أُحسِبَت الحيواناتُ في الواقع في مستوًى "دون الأشخاص" أم لم تُحسَب، فهي لا تُحَبُّ أبدًا كما لو كانَت دون الأشخاص. إذ إنَّ حقيقةَ الشخصيَّة أو وَهمَها حاضران دائمًا، بحيث يكونُ حبُّ الناس للحيوانات بالحقيقة حالةً من حالات تلك العاطفة التي هي موضوعُ الفصل التالي.

٣

الحبُّ العاطفيُّ

أبتدئُ بأوَضع المحبَّات وأكثرِها انتشارًا، تلك المحبَّة التي فيها يبدو أنَّ اختبارَنا يختلف أقلَّ اختلاف عنِ اختبار الحيوانات. ولأُضِفْ حالًا أنّي لا أقولُ إنَّ لهذه المحبَّةَ أهمِّيَّةً دُنيا من أجل ذلك. فلَيس في الإنسان أيُّ شيءٍ أسوأ أو أفضل لكَوننا نُشارِكُ الحيوانَ فيه. وعندما نلوم شخصًا على كَونه "مجرَّدَ حيوان"، نعني أنَّه يُبدي خصائصَ حيوانيَّة (نُبديها جميعًا) ولكنَّه يُبدي هذه الخصائص، وحدَها دون سِواها، في مناسبات مطلوب فيها تلك البشريَّةُ على وجه التَّحديد. (وإذا وصفناه بأنَّه "وحشيٌّ" نعني عادةً أنَّه يرتكب فظائعَ تستحيلُ على معظم الوحوش الفعليَّة؛ فهذه الوحوش ليست ذكيَّة كفاية).

دعا اليونانيُّون هذه المحبَّةَ "ستورْجي" (Storge). وسأدعوها هُنا "عاطفة" فحسْب. وقد عرَّف القاموسُ اليونانيُّ اللفظةَ "ستورْجي" بأنَّها "الحُبُّ العاطفيّ، ولا سيَّما من الأبَوينِ لأولادهما"؛ ولكنَّها أيضًا تشمل عاطفةَ الأولاد نحو والِدَيهم. ولا شكَّ عندي في أنَّ ذلك

هو الشَّكلُ الأصليُّ للأمر، كما أنَّه أيضًا معنى الكلمة الجوهريّ. فالصُّورة التي يجب أن نبدأ بها هي صورة أُمٍّ تُرضِع طفلًا، أو كلبة أو هرَّة لها مِلءُ سلَّة من جراء الكلاب أو القِطَط؛ توجَدُ كلُّها معًا في كومة مُستكينة لدى أمِّها؛ حيثُ أصوات الحيوانات الصغيرة واللَّحْس والتَّدليل والحليب والدِّفءُ ونفحةُ الحياة الغَضَّة.

وتكمن أهمِّيَّةُ هذه الصُّورة في كَونها تُقدَّم إلينا من أوَّل الطريق مُفارَقةً مُعيَّنة. فإنَّ الحاجةَ ومحبَّةَ الاحتياج لدى الصِّغار واضحان؛ وكذلك أيضًا محبَّةُ المَنح لدى الأُمّ، إذ تَلِدُ الصغار وتُرضعهم وتوفِّرُ لهم الحماية. ومن الناحية الأخرى، يجبُ عليها أن تَلِدَ أو تموت، ويجب عليها أن تُرضِعَ أو تُعاني. وبهذه الطريقة، فإنَّ عاطفتَها أيضًا محبَّةُ احتياج. وهنا المُفارقة. فهي محبَّةُ احتياج، ولكنَّ ما تحتاج إليه هو أن تَمنَح. وهيَ محبَّةُ مَنح، إلَّا أنَّها تحتاجُ لأنْ يَدعُوَ إليها الاحتياج. وسَنُضطَرُّ إلى الرُّجوع إلى هذه النُّقطة بَعدُ.

ولكنْ حتَّى في حياة الحيوانات، وأكثرَ بَعدُ في حياتنا نحن، تمتدُّ العاطفةُ إلى ما يتخطَّى كثيرًا علاقةَ الأمِّ بالصِّغار. فإنَّ هذا الارتياحَ الدافئ، هذا الرِّضى الناجمَ عنِ المَعيَّة، يستوعب أغراضًا من كلِّ نوع. وهو بالحقيقة أقلُّ المَحبَّات تمييزًا. فهنالك نساءٌ يمكننا أن نتنبَّأ بأنَّه سيكون لهُنَّ مُتودِّدون قليلون، ورجالٌ يُرجَّح أن يكونَ لهم أصدقاء أقلَّاء. إذ إنَّ أولئك جميعًا لا يملكون ما يُقدِّمونه. ولكنَّ أيَّ شخص تقريبًا يمكن أن يصيرَ غرضًا للحُبِّ العاطفيِّ: القبيح، والمُغفَّل، بلِ

المُغضِب أيضًا. ولا داعيَ لأنْ يُوجَد تناسُبٌ جليٌّ بين الذين يَجمعُهم هذا الحُبّ. فقد رأيتُ هذا الحبَّ مَبذولًا لِمَعتوهٍ لا من قِبَل أبَويه فقط، بل من قِبَل إخوته أيضًا. وهو يتجاهلُ حواجزَ السنِّ والجنس والطَّبقة والثَّقافة. فقد يُوجَد بين شابٍّ ذكيٍّ من الجامعة ومُمرِّضة كبيرةِ السِّنّ، مع أنَّ عقلَيهما يُقيمان في عالَمَين مُختلِفَين. وهو يتجاهل حتَّى حواجز الأنواع أو الفصائل. فنحن نراه ليس فقط بين كلبٍ وإنسان، بل أيضًا بين كلبٍ وهِرّ- وهذا أدعى إلى العجب. وقد زعم جيلبرت وايت (Gilbert White) أنَّه اكتشفه بين حصانٍ ودجاجة.

ومِن الرِّوائيِّين مَن قبضوا على هذا الأمر جيِّدًا. ففي رواية "تريسْترام شاندي" (Tristram Shandy)،[1] تُعدُّ شخصيَّتا "والدي" (والد تريسْترام) والعمُّ طوبي (Uncle Toby) هما أبعدُ جدًّا من أن تجمعَهُما أيَّةُ مصالحَ أو أفكارٍ مشترَكة، بحيثُ لا يستطيعان أن يتحدَّثا عشرَ دقائق من غير غاياتٍ مُتضاربة؛ ولكنَّنا نُحمَل على الشعور بودَّتهما الشديدة المُتبادَلة. وهكذا حالُ دونكيشوت وسانشو پانزا (Don Quixote & Sansho Panza)، وپكوك وسام ولَر (Pickwick & Sam Weller)، ودِك سويڤلَر والمركيزة (Dick Swiveller & Marchioness). كذلك أيضًا في رواية "الرِّيحُ في شجرِ الصَّفصاف"

١ هي روايةٌ في تسعة مجلَّدات كتبها الروائيُّ لورانس ستيرن (Laurence Sterne)، صدرَ المجلَّد الأوَّل منها في عام ١٧٥٩م. يروي بطل القصَّة ترسْترام قصَّةَ حياته ويطرحُ أثناء ذلك أفكارَه (الناشر).

(The Wind in the Willows)، رُغمَ عدم تقصُّد الكاتب الواعي على وجه الاحتمال؛ حيثُ يوحي الرُّباعيُّ مول (الخُلد) وورات (الجُرَذ) وتود (الضفدع) وبادجر (الغُرَير، وهو شبيه بالضِّربان) بالتَّغايُرِ المُدهِش المُمكِن بين أولئك الذين تربطهم المَودَّة العاطفيَّة.

ولكنَّ للعاطفة معيارَها الخاصّ. فأغراضُها ينبغي أن تكون مألوفة. وفي وسعنا أحيانًا أن نُحدِّد اليوم والساعة اللذَين فيهما "وقعنا في الحُبّ" أو بدأنا صداقةً جديدة. إنَّما أشكُّ أنَّ في وسعنا أن نضبطَ اللحظة التي تبدأ فيها العاطفة. فأن نتنبَّه إليها هو أن نتنبَّه إلى أنَّها مستمرَّةٌ في نشاطها منذ زمن. واستخدامُ الصِّفة "قديمة" أو "مُعمَّرة" بالإشارة إلى العاطفة أمرٌ ذو مَغزًى ودلالة. فالكلب ينبح على الغُرَباء الذين لم يؤذوه قطّ، ويُحرِّك ذنَبه للمَعارِف القُدامى ولو لم يكونوا قد عاملوه بالحسنى قطّ. والوَلَدُ سيُحِبُّ بُستانيًّا كبيرَ السنِّ فظًّا قلَّما أبهَ له، وينكمش من زائر يبذلُ كلَّ محاولة ليَكسبَ مَودَّته. إنَّما يجب أن يكونَ ذاك بُستانيًّا "قديمًا"، لم يتوقَّف عن أن يكونَ هناك "دائمًا" (بالنسبة إلى الطفل). قد تكون تلك "دائمًا" قصيرةَ الأمد، لكنَّها على ما يبدو بالغةُ القِدَم (بالنسبة إلى الطفل رغم قِصَرها).

إنَّ العاطفة، كما قُلتُ، هي المحبَّة الأكثر تواضُعًا. فهي لا تختالُ متباهيةً. قد يفخر الناس بأنَّهم "في حالة الحُبّ" أو بالصَّداقة. أمَّا العاطفة فمُتواضِعة، بل خفيَّة مُختلِسة وخَجِلةٌ أيضًا. وحين أشرتُ مرَّةً إلى العاطفة التي تقوم أحيانًا غيرَ قليلةٍ بين هرَّة وكلب، أجاب صديقي:

"صحيح، ولكنّي على يقين بأنَّ أيَّ كلبٍ لن يعترف بذلك لباقي الكلاب". وهذه على الأقلِّ صورةٌ كاريكاتوريَّة جيِّدة لقسطٍ كبير من العاطفة البشريَّة. وقد قال كومس (Comus): "ولتَبقَ الوجوهُ المألوفة والبسيطة في بيوتها". والآن، فإنَّ للعاطفة وجهًا بسيطًا جدًّا. وهكذا هي وجوهُ الكثيرين ممَّن نشعر بعاطفة نحوَهم. وليس دليلًا على دماثتنا أو تَبصُّرنا الحاني أنَّنا نحبُّهم؛ ولا أنَّهم يحبُّوننا. فما سبق أن دعوته الحُبَّ التقديريَّ ليس عنصرًا جوهريًّا في العاطفة. ولا بُدَّ عادةً من الغياب أو الحرمان لكي نشرع في امتداح أولئك الذين تربطنا بهم العاطفةُ وحدها. فنحن نحسبهم أمرًا بديهيًّا مسلَّمًا به. أن نحسبهم هكذا هو أمرٌ صحيحٌ هنا ومؤاتٍ حتَّى نُقطةٍ معيَّنة، وإن كان في الحُبِّ الغَراميِّ إهانة. ذلك أنَّه يُناسِبُ طبيعةَ الشعورِ المُطْمَئِنَّة الهادئة. فالعاطفة لن تكونَ عاطفةً إذا عبَّر المرءُ عنها بضجيجٍ وكثرة؛ وإبداؤها في العَلَن شبيهٌ بإخراج أثاثِ بيتك للانتقال إلى مسكنٍ جديد. فالأثاثُ في مكانه داخلَ البيت يكون حسنًا جدًّا، ولكنَّه يبدو باليًا أو مُبهرجًا (على غير ذَوق) أو غريبًا تحت ضوء الشَّمس. والعاطفة تكاد تنسلُّ أو تنسابُ خُفيةً عبرَ حياتنا. فهي تعيش على أشياءَ خاصَّة بسيطة غير فاخرة: أحذيةٍ ليِّنة، نكاتٍ عتيقة، خَبطِ ذَنَبِ كلبٍ نعسانٍ على أرضيَّة المطبخ، صوتِ ماكينةِ خياطة، دُميةٍ سوداء بَشعة متروكة على عُشب الحديقة.

ولكنْ يجب أن أُصحِّح ما قلتُه حالًا. فأنا أتكلَّم عن العاطفة حينَ تُوجَد بمعزلٍ عنِ المحبَّات الأخرى. وهي في أحوالٍ كثيرة تُوجَدُ هكذا؛

وفي أحوال كثيرة لا. فكما أنَّ الجن (Gin) ليس مشروبًا في ذاته فقط بل هو أيضًا عُنصرٌ أساسيٌّ في عدَّة مَشروبات ممزوجة، كذلك العاطفةُ؛ ففضلًا عن كَونها محبَّةً في ذاتها، يمكن أن تتداخلَ في المحبَّات الأخرى وتُلوِّنَهُنَّ تمامًا وتصيرَ الوَسَطَ الذي فيه يَنشَطنَ من يوم إلى يوم. وربَّما لَولاها ما كان في وُسع المحبَّات الأخريات أن يَصمُدنَ. فأن تتَّخذَ صديقًا أمرٌ لا يُماثِلُ تمامًا حيازتك الحُبَّ العاطفيّ. ولكنْ حين يكون صديقُكَ قد صار صديقًا قديمَ العهد، فإنَّ جميعَ تلك الأمور التي لم يكُن لها في الأصل علاقةٌ بالصداقة تصير مألوفةً وعزيزةً بفضل العِشرة. أمَّا في الحبِّ الغَراميّ (Eros)، فلا يُمكِنُني أن أتصوَّر أمرًا أكرَهُ من اختبار ذلك إلَّا مُدَّةً قصيرةً جدًّا تكون بمعزلٍ عن هذا الرِّداء العاطفيّ غير المُتكلَّف. ومن شأن ذلك أن يكون وَضْعًا غير مريح جدًّا، إمَّا ملائكيًّا بإفراط وإمَّا حيوانيًّا بإفراط، و إمَّا كِلَيهما على التوالي؛ بحيثُ لا يكون البتَّة كبيرًا على نحوٍ يكفي الإنسان ولا صغيرًا على نحوٍ يكفيه. فهنالك بالحقيقة سِحرٌ خاصٌّ، في الصَّداقة وفي الحُبِّ الغراميِّ كِلَيهما، يُحيط بتلك اللحظات التي يستلقي فيها- إن جاز التعبير- الحُبُّ التَّقديريُّ مُتكوِّمًا على نفسه مُستسلِمًا للنَّوم، ويكتَنِفنا مجرَّدُ راحة العلاقة ومألوفيَّتِها (حيث يشعر كلا الزوجَين بالحرِّيَّة كما لو كان وحدَه، رُغم عدم كَون أيٍّ منهما وحيدًا). فلا داعيَ للحديث. ولا داعيَ لمُمارَسة الحبّ. ولا حاجة البتَّة، إلَّا رُبَّما لتَحريك النار (الاهتمام بالأمور العاديَّة للعلاقة).

إنَّ تمازُجَ المَحبَّاتِ وتداخُلَها اللذين طالما نَلحَظُهما تُبقيهما أمامَنا

حقيقةُ كَون المحبَّات الثَّلاث جميعًا، في معظم الأزمنة والأمكنة، يستخدمنَ القبلة على نحو مشترك لتعبِّر عنهُنَّ. ولئن تضاءلَ استخدامُ القُبلة في الصَّداقة، فإنَّ لها استخدامَها في الحُبِّ العاطفيِّ والحُبِّ الغَراميّ. وهي تنتمي إلى كِلَيهما تمامًا بحيث لا نستطيع الآن أن نُحدِّدَ أيَّ منهما استعارها من الآخر، هذا إن كانت قد حدثَت الاستعارة أصلًا. إنَّما لك من غير ريبٍ أن تقول إنَّ قُبلة الحبِّ العاطفيِّ تختلف عن قبلة الحبِّ الغَراميّ. صحيح، ولكنْ ليستْ جميعُ القُبلات بين المُحبِّين هي قُبلات مُحبِّين. ثُمَّ إنَّ هذين الحُبَّين يَميلان إلى استخدام "لغة الصغار" أو "أحاديث الأطفال"، وإن أحرجَ هذا عصريِّين كثيرين. وليس هذا مُقتصرًا على النَّوع البشريّ. وقد قال لنا البروفيسور لُورنز (Lorenz) إنَّه حين تكونُ طيور الزَّاغ مُتحابَّةً "تتكوَّن مناداتها لبعضها في مُعظَمه من أصوات طفليَّة تدَّخرها طيورُ الزَّاغ البالغةُ لهذه المُناسَبات" (خاتم الملك سُليمان King Solomon's Ring [p.158]). فنحن والطُّيور لنا العُذرُ عينُه. إذ إنَّ شكلَي الرقَّة المُختَلفَين كِلاهُما رِقَّة، ولُغَةُ الرِّقَّة الأولى التي عرفناها قديمًا تُستَدعى لكي تقومَ مقامَ النوع الجديد.

إنَّ واحدةً من أروع النتائج الجانبيَّة للعاطفة لم تُذكَر حتَّى الآن. فقد قلتُ إنَّها ليسَت بصورةٍ رئيسيَّة حُبًّا تقديريًّا؛ إذ إنَّها ليست مُميِّزة. وهي تستطيع أن "تُواصِلَ سَيرَها بصعوبة" مع الأشخاص غير الواعدين أكثرَ من سواهم. ولكنَّ هذه الحقيقة عينَها- على نحوٍ مُستغرَبٍ تمامًا-

تعني أنَّ العاطفة تستطيع في نهاية المطاف أن تُيسِّر تقديراتٍ لَولاها لرُبَّما لم تكُن وُجِدت قطعًا. فلنا أن نقول، على نحوٍ لا يخلو من الصحَّة، إنَّنا قد اخترنا أصدقاءَنا والمرأةَ التي نُحبُّ من أجل مزاياهم المُتنوِّعة- الجمال أو الصراحة أو طيبة القلب أو التعقُّل أو الذَّكاء أو ما شابه. ولكنْ وجبَ أن يكون ذلك ما نميلُ إليه من نَوعِ تعقُّلٍ مُحدَّد، أو نوع جمالٍ مُحدَّد، أو نوع طيبةٍ محدَّد؛ ولأذواقنا الشخصيَّة دورُها في هذه الأمور. لذلك السَّبب يشعر الأصدقاء والأحبَّاء بأنَّهم "صُنعوا بعضُهم لأجل بعض". فرَوعةُ العاطفة الخاصَّةُ هي أنَّها تستطيع أن تُوحِّدَ أشخاصًا يبدو على أجلى نحوٍ، بل على نحوٍ أدعى إلى السُّخريَة أيضًا، أنَّهم لا يُوحَّدون- أشخاصًا لو لم يَجِدوا أنفُسَهم قد وضعَهُمُ القَدَرُ في العائلة ذاتها أو الجماعة عينها، ما كان أيُّ شيءٍ ليجمعَ بعضَهم مع بعض. إذا نشأتِ العاطفة من هذا- وهي طبعًا لا تنشأ منه أغلبَ الأحيان- فإنَّ أعيُنَهم تبدأ تنفتح. فبعد أن أتعلَّقَ عاطفيًّا "بفُلانٍ من الناس مألوف" أوَّلَ الأمر فقط لأنَّه اتَّفق أنَّه كان موجودًا، فسرعان ما أبدأ أرى "أنَّ فيه شيئًا ما" رُغم كلِّ شيء. واللحظةُ التي فيها يقولُ المرءُ أوَّل مرَّة، وهو يعني ما يقول: "على الرُّغم من عدم كَونه رجُلًا من النَّوع الذي أبتغيه، فهو رجلٌ جيِّدٌ جدًّا على طريقته الخاصَّة"، إنَّما هي لحظةُ تحرير. إنَّ الأمر لا يبدو لنا كذلك، وقد نشعرُ بأنَّنا مُتساهلون ومُتسامحون فحسْب. ولكنَّنا فعلًا قد اجتزنا حدًّا فاصلًا. والعبارة "على طريقته الخاصَّة" تلك تعني أنَّنا نتخطَّى خُصوصيَّاتِ أمزِجَتنا، أنَّنا نتعلَّم تقديرَ

الطِّيبة أو الذَّكاء في ذاتهما، لا مجرَّد الطِّيبة أو الذَّكاء مُنكَّهَين ومُقدَّمَين بحيثُ يُرضيانِ أذواقَنا الشخصيَّة.

قال أحدهم: "ينبغي دائمًا أن يُربَّى الكلابُ والقطَط معًا، فإنَّ ذلك يُوسِّع مَداركَها كثيرًا". والعاطفة تُوسِّعُ مَداركَنا؛ فبَين جميع المحبَّات الطبيعيَّة، هي الأكثرُ جَمعًا والأقلُّ صُعوبةً إرضاءً والأوسعُ نطاقًا. فالأشخاصُ الذين أنتَ مُلقًى بينَهم في العائلة والجامعة والمطعم والسفينة ودارِ العبادة، هُم من وجهة النظر هذه دائرةٌ أوسعُ من أصدقائك الذين صادَقْتَهم في النِّطاق الخارجيّ. فبحيازتي عددًا من الأصدقاء كبيرًا جدًّا، لا أبرهِن أنَّ لديَّ تقديرًا واسعًا للتفوُّق البشريّ. ويُمكنك أيضًا أن تقول إنِّي أُبرهِن سعة تذوُّقي الأدبيَّ بقُدرتي على الاستمتاع بجميع الكُتب التي تضمُّها مكتبتي الشخصيَّة. فالجواب هو ذاته في كِلتا الحالتَين: "أنت اخترتَ تلك الكُتب، وأنت اخترتَ أولئك الأصدقاء، فمن الطبيعيِّ أن تُلائمك تلك وأولئك". والتذوُّق الواسع حقًّا في القراءة هو ذلك الذي يُمكِّن المرءَ من العثور على ما يَفي بأغراضه بين الكُتب الرخيصة الثمن المعروضة على منضدةٍ خارجَ مكتبةٍ تُباع فيها الكُتب المُستعملة. كذلك سيَعثر التذوُّق الواسع حقًّا في فَهم البشر على نحوٍ مماثل على شيءٍ تُقدِّره في فَهم عَيِّناتِ البشر التي يُضطرُّ المرء إلى الْتقائها كلَّ يوم. وفي اختباري أنَّ العاطفةَ هي التي تُولِّد هذا التذوُّق، مُعلِّمةً إيَّانا أوَّلًا أن نُلاحظ الأشخاص الذين "يتَّفق أنَّهم هُناك"، ثُمَّ أنْ نحتملَهم، ثُمَّ أن نبتسمَ لهم، ثُمَّ أن نتمتَّعَ

بهم، وأخيرًا أن نُقدِّرهم. أهُم مَصنوعون لنا؟ لا، والحمدُ لله! فما هم إلَّا أنفسُهم، أغرَبُ ممَّا كان مُمكنًا أن نعتقد، وأكثرُ قيمةً بكثيرٍ ممَّا افترَضنا.

والآنَ نقتربُ أكثرَ إلى نُقطة الخطر. فقد قُلتُ إنَّ العاطفة لا تختال متباهيةً؛ وقد قال الرسول بولس إنَّ المحبَّة لا تنتفخ. ففي وُسع العاطفة أن تحبَّ غير الجذَّابين؛ أمَّا الله وقدِّيسوه فيُحبُّون مَن لا يُحَبُّون. والعاطفة "لا تتوقَّع ما يفوق الحَدّ"، وتُديرُ عينًا عمياءَ صَوبَ العُيوب متغاضيةً عنها، وتنتعش بسهولة بعد المُخاصَمات؛ كذلك المحبَّة أيضًا تتأنَّى وترفق وتصفح. وتفتح العاطفةُ عيونَنا على صلاحِ ما كان مُمكنًا أن نراه، أو ما كُنَّا لِنُقدِّرَه لَولاها. كذلك تفعل القداسةُ المتضعة أيضًا. وإن أطَلنا المكوثَ حصرًا عند أوجُهِ الشَّبَه هذه، فقد نَنقادُ إلى الاعتقاد أنَّ هذه العاطفة ليست فقط إحدى المَحبَّات الطبيعيَّة بل هي المحبَّةُ نفسُه (أي الله) عاملًا في قلوبنا البشريَّة ومُكمِّلًا الناموس. فهل كان روائيُّو العصر الڤيكتوريِّ على حقٍّ رُغمَ كلِّ شيء؟ أيكون الحبُّ (من هذا النوع) كافيًا بالحقيقة؟ وهل "العواطفُ العائليَّة"، حين تكون في تطوُّرها الأفضل والأكمل، هي والحياة المسيحيَّة شيءٌ واحد؟ أودُّ التأكيد بكلِّ يقين أنَّ الجواب عن جميع هذه الأسئلة هو "لا".

لستُ أعني فقط أنَّ أولئك الرِّوائيِّين كتبوا أحيانًا وكأنَّهم لم يسمعوا قطُّ تلك الآية التي تذكر "بُغض" المرء لزوجته وأمِّه وحياته أيضًا. وذلك صحيحٌ طبعًا. فإنَّ التَّنافس بين جميع المحبَّات الطبيعيَّة ومحبَّةِ الله هو أمرٌ لا يَسَعُ المسيحيَّ المؤمنَ أن ينساه. ذلك أنَّ الله

هو المُنافسُ العظيم، الغَرَضُ الأسمى للغَيرة البشريَّة؛ ذلك الجمالُ، الرَّهيبُ كالغُرغونة،[2] والذي قد يسلبُني- أو يبدو كأنَّه سيَسلبُني- قلْبَ زَوجتي أو زَوجي أو ابنتي. ومرارةُ بعضِ عدم الإيمان تعود بالحقيقة إلى هذا الأمر، ولو تنكَّر عدمُ الإيمان- حتَّى على الذين يشعرون به- في زيِّ مُقاومة الإكليروس (مقاومة النفوذ السياسيِّ لرجال الدين) أو مقت الخُرافة. غير أنِّي حاليًّا لستُ مُفكِّرًا في ذلك التَّنافس؛ ولا بدَّ لنا من مواجهته في فصلٍ لاحق. أمَّا الآن، فنحن مَعنيُّون أكثرَ بما هو عَمَليّ.

كم واحدًا من هذه "البيوت السعيدة" يوجَدُ فعلًا؟ وما هو أسوأُ بَعد: أجَميعُ البيوتِ غير السعيدة هي غيرُ سعيدة لأنَّ العاطفة غائبة عنها؟ لستُ أظنُّ ذلك. إذ يمكنُ أن تكونَ حاضرةً ومُسبِّبةً لعدم السعادة. فجميع خصائص هذا الحبِّ تقريبًا مُتعارضة، وهي قد تؤول إلى السوء كما قد تؤول إلى الخير أيضًا. وهذا الحُبُّ وحدَه، إن تُرِك يجري في سبيله، يمكن أن يجعلَ الحياة البشريَّة مُظلمةً ومُنحطَّة. ولئن لم يكن فاضحو الزَّيف ومُناهضو العاطفيَّة قد قالوا الحقيقةَ كلَّها بشأنه، فإنَّ كلَّ ما قالوه حقّ.

لرُبَّما دلَّ على هذا ما تتَّسِم به من قُبح تقريبًا جميعُ تلك الأغاني الحُلوة والقصائد العذبة التي بها يُعبِّر الفنُّ الشعبيُّ عن الحبِّ العاطفيّ. وهي قبيحةٌ لأنَّها زائفة، إذ تُقدَّم كَوَصفةٍ جاهزة للسَّعادة (بل للصَّلاح

٢ الغُرغونة (Gorgon) إحدى أخواتٍ أسطوريَّات ثلاث، رؤوسُهنَّ مكسوَّة بالأفاعي بَدَلَ الشَّعر، كلُّ مَن نظر إليهنَّ يتحوَّل إلى حَجَر (المترجم).

أيضًا) ما هو بالحقيقة مُجرَّد فُرصة أو صدفة. فلا تلميحَ إلى أنَّ من واجبنا أن نفعلَ أيَّ شيء: ما علينا إلّا أن نَدَعَ العاطفة تنسكبُ علينا كمياهِ استِحمامٍ دافقة دافئة، وكلُّ شيءٍ سيَكون على ما يُرام، كما هو مُشارٌ إليه تضمينًا.

لقد رأينا أنَّ العاطفة تشتمل على حُبِّ الاحتياج وحُبِّ المَنح كِلَيهما. وها أنا أبدأ بالاحتياج- أبدأ بتَوقِنا إلى عاطفة الآخرين.

والآن، ثَمَّة سببٌ جليٌّ من أجله يصير هذا التَّوقُ بسهولة، دونَ كلِّ تَوقٍ مرتبطٍ بالحُبّ، هو الأكثرَ لاعقلانيَّةً. وقد قلتُ إنَّ أيَّ شخصٍ تقريبًا قد يكونُ غرضًا للحُبِّ العاطفيّ. أجل؛ وكلُّ شخصٍ تقريبًا يَتوقَّع أن يكون غرضًا له. فإنَّ السيِّد پونتيفِكس (Pontifex) الرهيب في كتاب ''طريقُ كلِّ ذي جسد'' (The Way of All Flesh) يستَشيطُ غضبًا إذ يكتشفُ أنَّ ابنه لا يحبُّه؛ إنَّه لَأمرٌ ''غيرُ طبيعيٍّ'' ألّا يحبَّ صبيٌّ أباه. ولا يخطر بباله أبدًا أن يسأل هل فعل هو- منذ أوَّل يوم يستطيع الصبيُّ أن يتذكَّره- أو قال أيَّ شيءٍ يُمكن أن يبعث على المحبَّة. وبالمثل، يُصوِّر البطل في مُستهَلِّ مسرحيَّة ''الملك لير'' (King Lear) رجُلًا كبيرَ السِّنِّ لا يُحَبُّ إلى أبعد حدّ، تلتهمه شهيَّةٌ نَهمة للحُبِّ العاطفيّ. وأنا أعمدُ إلى الأمثلة الأدبيَّة لأنَّنا، أنت أيُّها القارئ وأنا، لا نعيش في الجيرة عَينها؛ ولو كُنَّا نعيش لَمّا كان- واأسفاهُ!- من الصَّعب أن نستبدل بها أمثلةً من الحياة الواقعيَّة. فهذا الأمر يحدث كلَّ يوم. وفي وُسعنا أن نُدرك السَّبب. فنحن جميعًا نعلم أنَّ علينا أن نفعلَ

شيئًا، إنْ لم يكُن كي نستحقَّ فعلى الأقلِّ كي نستدرَّ الحُبَّ الغَراميَّ أو الصداقة. أمَّا الحبُّ العاطفيُّ فكثيرًا ما يُفترَض أنَّ الطبيعة تمدُّنا به جاهزًا؛ أنَّه ''في صُلب كِياننا''، ''مُركَّبٌ فينا''، ''هديَّةٌ من الإدارة''. فلنا حقٌّ في أن نتوقَّعه. وإن لم يبذله لنا الآخرون، فُهم ''غيرُ طبيعيِّين''.

لا شكَّ أنَّ هذا الافتراض هو تشويهٌ لحقيقة ثابتة. فإنَّ قسطًا كبيرًا قد ''رُكِّب في صُلب كِياننا''. فلأنَّنا نوعٌ أحيائيٌّ ثَدييٌّ، تمدُّنا الغريزةُ حتمًا على الأقلِّ بدرجةٍ ما- وبدرجةٍ عالية أغلب الأحيان- من الحُبِّ الأُموميّ. ولأنَّنا نوعٌ اجتماعيّ، توفِّر لنا العِشرةُ الأليفة بيئةً، إذا سار كلُّ شيء على نحوٍ حسن، تنشأ فيها العاطفةُ وتَتقوَّى بغير أن تَقتضيَ صفاتٍ مُتألِّقةً جدًّا لدى أغراضها. وما دُمنا نُعطاها عطاءً، فلن نُعطاها بالضَّرورة من أجل استحقاقاتنا؛ وقد نحصل عليها بعناء قليلٍ جدًّا. فمِن إدراكٍ قاتمٍ للحقيقة (أنَّ كثيرين يُحَبُّون بعاطفة تتخطَّى أهليَّتهم إلى أبعد الحدود) يَستخلص السيِّد پونتيفِكس هذا الاستنتاجَ المُضحِك: ''إذًا، لي أنا حقٌّ فيها، من دون استحقاق''. وما أشبهَ ذلك- على صعيدٍ أعلى بكثير- بأن نُحاجَّ هكذا: ما دام أيُّ إنسانٍ لا حقَّ له في نعمة الله من طريق الاستحقاق، فلأنّي لستُ حائزًا أيَّ استحقاق فأنا مؤهَّلٌ لها! إنَّما المسألةُ في كِلتا الحالتَين ليسَت مُتعلِّقةً بالحقوق. فإنَّ ما لَدَينا هنا ليس ''حقًّا في أن نتوقَّع'' بل هو ''تَوقُّعٌ مُبرَّر'' أن يُحبَّنا أصدقاؤنا الحميمون إن كنَّا نحنُ وهُم أناسًا أسوياءَ تقريبًا. ولكنْ ربَّما لا نكون كذلك. فقد نكون أناسًا لا يُطاقون. وإن كنَّا هكذا، فإنَّ

"الطبيعة" ستَعملُ ضدَّنا. فإنَّ ظروفَ الأُلفة التي تُيسِّر العاطفة- وبطريقة ليست أقلَّ طبعيَّة- هي نفسُها تُيسِّر نفورًا عُضالًا على نحوٍ غريب؛ كُرهًا سحيقًا راسخًا فاترًا، يكاد يكون لاواعيًا أحيانًا، حالُه حالُ شكل الحُبِّ المُقابل. وفي الأوپرا، لم يستطع سيغْفريد (Siegfried)[٣] أن يتذكَّر أيَّ وقتٍ قبلَ كلِّ مرَّةٍ فيها تفاقَمت كلُّ مُراوَغةٍ ودَمدمَةٍ وتَلمُلٍ من قِبَل أبيه بالتَّنشئة ذاك الذي كان قَزمًا. فنحن لا نتنبَّه البتَّة إلى هذا النَّوع من البُغض لحظةَ نشوئه، شأنُه شأنُ العاطفة. ذلك أنَّ هذا البُغض كان دائمًا مَوجودًا من قبل. ولنُلاحظ أنَّ وصفَ شيءٍ ما بأنَّه "قديم" قد يدلُّ على نُفورٍ مملٍّ كما قد يدلُّ على تَحبُّب: "ما زال على حِيَله القديمة"، "بطريقته القديمة"، "الشيءُ القديمُ نفسُه".

من السُّخف أن نقول إنَّ الملك لِير يشكو نقصًا في العاطفة. فبقَدْر كَون العاطفة محبَّةَ احتياج هو شبهُ مجنونٍ بها. وكما عبَّر هو، فلَولا محبَّتُه لبَناته ما كان يتوقُ ذاك التَّوقَ الشديد لأنْ يُحبِبنَه. فإنَّ أبغضَ أبٍ (أو أمٍّ أو وَلَد) قد يكون ممتلئًا بمثل هذا الحُبِّ النَّهِم. غير أنَّه يؤول إلى بؤسهم وبؤس كلِّ شخصٍ سواهم. ويصيرُ الوضعُ خانقًا. وإن كانَ الأشخاصُ لا يُحَبُّون أصلًا، فإنَّ استمرارَ المطالبة من قِبَلهم بأن يُحَبُّوا (كما لو كان ذلك حقًّا من حقوقهم)، وشعورَهم البادِيَ بالتأذِّي،

٣ هو شخصيَّةٌ في "أوپرا سيغفريد" للموسيقار العالميّ ريتشارد ڤاغنر (Richard Wagner). وقد عُرِضَت تلك الأوپرا في عام ١٨٧٦م (الناشر).

وتوبيخاتِهم- سواءٌ أجهريَّةً وصاخبة كانت أم مُتضمَّنةً فقط في كلِّ نظرةٍ وإيماءة تنمَّان عن رثاء الذات المقترن بالحقد- ذلك كُلُّه يُنشىء فينا شعورًا بالذَّنْب (وذلك كلُّه مقصود أن يُنشىء هذا) حيالَ غلطةٍ ما كان ممكنًا أن نتجنَّبها ولا نستطيع أن نكفَّ عن ارتكابها. إنَّهم يطمرون النَّبعَ ذاتَه الذي هُم عطاشٌ إليه. وإذا حدث مرَّةً، في لحظةِ إقبال، أن تحرَّكَتْ فينا أيَّةُ بذرةٍ من العاطفة تُجاهَهُم، فإنَّ مُطالبَتهم بالمزيد، وبالمزيدِ بَعد، تُحجِّرُنا من جديد. وأشخاصٌ كهؤلاء طبعًا يرغبون دائمًا في بُرهانِ محبَّتنا ذاته: علينا أن نقفَ في صفِّهم، وأن نسمعَ شكواهم على شخصٍ آخر ونُشاركَ فيها. لو كان ابني يحبُّني حقًّا، لرَأى كم أنَّ أباه أنانيّ... لو كان أخي يحبُّني، لَوَقفَ في صفِّي ضدَّ أختي... لو كنتَ تحبُّني، لَما تركتَني أعامَلُ هكذا...

ثُمَّ إنَّ أولئك يظلُّون دائمًا غافلينَ عن الدَّرب الصحيح. فقد قال أوڤيد (Ovid): "إذا شئتَ أن تُحَبّ، فكُنْ شخصًا يُحَبّ". ولئن كان هذا الماجنُ اللَّاهي القديمُ قد قصد فقط: "إذا شئتَ أن تجتذب النِّساء، فكُن جذَّابًا"، فإنَّ لِقَوله هذا الذي ذهب مَثَلًا، تطبيقًا أوسَع. وقد كانَ زيرُ النِّساء هذا أحكمَ في جيله من السيِّد پونتيفكس والملك لِير.

إنَّما الأمرُ المدهش حقًّا ليس هو أنَّ هذه المطالبَ النَّهمة التي يُصِرُّ عليها الذين لا يُحَبُّون يُعبِّرُ عنها عبثًا أحيانًا، بل أنَّها تُلَبَّى أغلبَ الأحيان. فالمرءُ أحيانًا يرى حداثةَ امرأةٍ وصِباها وسني رُشدها الطويلة حتَّى حافَةِ الشَّيخوخة- يراها تُطوَى في بَذل الطاعة والمُلاطَفة، وربَّما

أيضًا إعالة مَصّاصة دماء تؤدّي وظيفةَ الأمّ، وهذه لا تَشبعُ أبدًا من المُلاطَفة والطّاعة. ومع أنّ التّضحية جميلةٌ- إنّما ثَمّة رأيان بشأن ذلك- فإنّ العجوزَ التي تنتزعُ تلك التضحية فلَيست البتّة جميلة.

وهكذا، فإنّ طبيعةَ العاطفة "البديهيّةَ" أو غيرَ المُستَحقّة تستدعي إساءةَ تفسيرٍ قبيحة، كما تستدعي تلك الإساءةَ أيضًا سهولتُها وَطَبعيّتُها.

إنّنا نسمع الكثير عن سُوءِ أدب الجيل الناشىء. وأنا نفسي كبيرُ السنّ، وقد يُتوقّعُ منّي أن أقفَ في صفّ الكبار، غير أنّي في الواقع كثيرًا ما تأثّرتُ بسُوء تصرُّف الوالدَين تُجاهَ الأولاد أكثر من تأثّري بسُوء تصرُّف الأولاد تُجاهَ الوالدَين. ومَن منّا لم يكُنْ مرّةً الضّيفَ المُحرَجَ في مأدُبة عائليّة، حيثُ عامَلَ الأبُ أو الأمُّ وَلَدَهما الرّاشد بفَظاظة لو أُبدِيَت لأيّ شابٍّ آخر لَقَطعت العلاقةَ في الحال؟ فإنّ التوكيداتِ الجازمةَ في مسائلَ يفهمها الأولادُ فيما لا يفهمُها كبارُهم، والمُقاطَعاتِ التي لا تَرحَم، والمُناقَضاتِ السّافرة، والاستهزاءَ بأمورٍ يأخذُها الشّبابُ على مَحمل الجدّ، بما فيها أحيانًا موقفُهم الدّينيّ، والتلميحاتِ المُهينةَ إلى أصدقائهم، هذه الأمورَ كُلّها تمدُّنا بجواب سهلٍ عن السؤال: "لماذا يقضون وقتَهُم كُلَّه خارجًا؟ لماذا يحبُّون كلَّ مَنزلٍ آخرَ على نحوٍ أكبر ممّا يحبُّون بيتَهُم؟" ومَن لا يُفضّلُ اللُّطفَ والكياسة على الوحشيّة والفظاظة؟

إن سألتَ أيًّا مَن هؤلاء الأشخاص الذين لا يُطاقُون- وليسوا كلُّهم من الآباء أو الأمّهات طبعًا- عن سبب تصرُّفهم بتلك الطريقة في

البيت، فإنّهم يُجيبون: "أُوه، فلنَصرِف النّظر عن هذا كُلّه، فالإنسان يأتي إلى بيته ليَسترخِيَ ويستريح. والمرءُ لا يستطيع دائمًا أن يتصرّف على أفضلِ نحو. فإذا لم يَستطِع الإنسان أن يكون على سَجيتِه في بيته، فأين يستطيع ذلك؟ ونحن طبعًا لا نحتاج إلى آداب السُّلوك الاجتماعيّة في البيت. فإنّنا عائلة سعيدة. ولنا أن نقول أيَّ شيءٍ بعضُنا لبعض. فلا أحدَ يهمُّه ذلك، وجميعنا مُتَفهّمون".

ومرّةً أخرى، يكادُ الأمر يكون صحيحًا، ولكنّه خاطئٌ على نحوٍ مُهلك. فليسَتِ العاطفةُ مسألةَ ملابسَ عتيقةٍ مُريحة، أو استرخاءً، أو لحظاتِ تَحرُّر، أو تَخطياتٍ لآداب السُّلوك، إذا قُمنا بها أمام الغُرَباء كانت تصرُّفًا يفتقر إلى التّهذيب. غير أنّ الثيابَ العتيقة شيء؛ أمّا أن نرتديَ القميصَ نفسَهُ حتّى يُنتنَ فهو شيءٌ آخر. وهنالك ثيابٌ مُناسبةٌ لحفلة في حديقة؛ ولكنّ الثياب التي تُرتدَى في البيت يجب أن تكون مُناسبةً أيضًا، بطريقتها الخاصّة المُختلفة. وبالمثل، هنالك فَرقٌ بين الكياسة الاجتماعيّة والكياسة البيتيّة. إنّ المبدأ الأساسيَّ في كلتَيهما هو ذاته: "ألّا يُعطيَ أحدٌ نفسَهُ أيَّ نوعٍ من التّفضيل". ولكنْ كُلّما كانت المُناسبة أكثرَ عُموميّةً، زادت مُراعاتُنا لهذا المبدإ "نَمَطيّةً" أو إضفاءً للصّفة الرسميّة. إنّما هنالك "أصولٌ" لآداب السلوك الحسنة. فكُلّما زادَتِ المُناسَبةُ حميميّةً، قلّ إضفاءُ الصّفة الرسميّة عليها؛ ولكنّها لا تكون من ثَمّ أقلّ اقتضاءً للكياسة. بل على العكس، تُمارِسُ العاطفةُ في أفضل حالاتها كياسةً أكثرَ لطفًا وإحساسًا

وعُمقًا من النَّوع العموميّ على نحوٍ لا يُضاهى. ففي العَلَن، لا بأسَ بمُراعاة طَقسٍ أو شكل. أمَّا في البيت، فيجب أن تُمارَسَ الحقيقةُ التي يُمثّلها ذلك الطَّقس، وإلَّا فإنَّ الانتصارات المُصمَّمَةَ من قِبَل الشخص الأكثر أنانيَّةً هي ما سيكون حاضرًا. فعليكَ بالحقيقة ألَّا تُعطيَ نفسَك أيَّ تفضيل؛ وفي حفلةٍ ما يكفي أن تُخفيَ التفضيل. من هُنا كان المَثَلُ القديم: "تعالَ وأقِم معي في بَيتي، تعرِفْ حقيقتي". ومن ثَمَّ، فإنَّ سلوكَ المرء في بيته يُظهِرُ أوَّلًا القيمةَ الحقيقيَّة (ويا لَها من عبارة بغيضة بصورةٍ لافتة!) لسُلوكه في أثناء "العشرة" أو في "المَحافِل". فإنَّ أولئك الذين يُخلِّفون آدابَ سلوكهم وراءَهم حين يرجعون إلى بيوتهم من حفلة الرَّقص أو المُنادَمة، لا تكون لديهم آدابُ سلوكٍ أصيلةٌ هُناك أيضًا. وهم إنَّما كانوا يُقلِّدون أولئك الذين لديهم آدابٌ حقيقيَّة.

"لنا أن نقولَ أيَّ شيءٍ بعضُنا لبعض". إنَّ الحقيقة الكامنة وراء هذا هي أنَّ العاطفةَ في حالتها الفُضلى تستطيع أن تقولَ كلَّ ما ترغب في قَوله، بصرف النظر عن الأُصول التي تتحكَّم في الكياسة العموميَّة؛ فإنَّ العاطفة في حالتها الفُضلى لا ترغب في أن تَجرح، ولا أن تُهين، ولا أن تتسلَّط. فقد تُخاطِبُ زوجتك العزيزة واصفًا إيَّاها بأنَّها "ساهيةٌ لاهية!" إذا شربَت سَهوًا شرابك فضلًا عن شرابها. وقد تُقهقِهُ تهكُّمًا على القصَّة التي يحكيها أبوك مرارًا وتكرارًا. وقد تُضايقُ وتُخادِع وتُمازِح. وفي وُسعك أن تقول: "سُكوت! أريدُ أن أقرأ". في وُسعك أن تفعلَ أيَّ شيء بالنَّبرة الصحيحة وفي اللَّحظة

المُناسبة: تَينكَ النبرة واللَّحظة اللَّتَين لا يُقصَدُ بهما أن تَجرَحا، ولن تَجرَحا. وكلَّما كانت العاطفة أفضل، عرفتَ على نحوٍ أقلَّ خطأً حقيقةَ هذه الأمور (لكلِّ محبَّةٍ فَنُّ المحبَّة الخاصُّ بها). ولكنَّ الفظَّ المنزليَّ يعني شيئًا مختلفًا تمامًا عندما يدَّعي الحرِّيَّة في أن يقول "أيَّ شيء". فإذ له شخصيًّا نوعٌ من العاطفة ناقصٌ كثيرًا، أو ربَّما لا شيءَ من العاطفة ذاكَ الحين، ينتحلُ أوجُهَ الحرِّيَّة الجميلةَ التي من حقِّ العاطفة المُثلى أن تحوزَها، كما أنَّها تعرف كيف تَستخدمُها. ومن ثَمَّ يَستخدمُها بقصد الإغاظة مُطاوَعةً لاستياءاته؛ أو بلا شفقة مُطاوَعةً لأنانيَّته؛ أو بغباءٍ في أفضلِ حال، إذ يفتقر إلى "الفنّ". وقد يكون له طوالَ الوقت ضميرٌ صافٍ. فهو يعلم أنَّ العاطفةَ "ترفعُ الكلفة" مُتصرِّفةً بحرِّيَّة. وهو يتصرَّف رافعًا الكلفة. ولذلك (كما يستخلص هو)، فإنَّه يحبُّ حبًّا عاطفيًّا. فإن امتعضتَ من أيِّ شيء، يقول إنَّ نقصَ المحبَّة هو من جانبك أنت. أمَّا هو، فقد جُرِح، وقد أُسيءَ فهمُه.

ثُمَّ إنَّه أحيانًا ينتقمُ لنَفسه بامتطائه حصانَه العالي "وتأدُّبَه" المدروس. والتَّضمينُ هو طبعًا: "أوه! إذًا لا ينبغي أن نكونَ وَدودين؟ أمَا علينا أن نتصرَّف كما لو كنَّا مَعارف، ليسَ غير؟ كنتُ أرجو... ولكنْ لا بأس. فليكُن ما تشاء". وهذا يوضِحُ بجلاء الفرقَ بين كياسة المَودَّة والكياسة الرسميَّة. فعلى وجه الدقَّة، ما يُناسِبُ الواحد، قد يُمثِّل ثُغرةً في نظر الآخر. فأن تكونَ على سجيَّتك وراحتك حينَ تُقدَّمُ إلى غريبٍ بارزٍ أمرٌ يُنافي آدابَ السُّلوك الحسنة؛ وأن تُمارِسَ المُجامَلاتِ الرسميَّةَ

والاحتفاليَّةَ في البيت (''وجوهٌ عموميَّة في أماكنَ خصوصيَّة'') أمرٌ مُناف- ومقصودٌ به دائمًا أن يكون مُنافيًا- لآداب السُّلوك الحسنة. وفي ''تريستْرام شاندي'' مَثَلٌ لذيذٌ على التصرُّف الحَسَن فعلًا داخلَ البيت. ففي وقتٍ غير مُناسب على وجهٍ خاصّ، كان العمُّ طوبي مُسترسِلًا في إلقاء خُطبةٍ في موضوع ''التَّحصين'' المفضَّل عنده. وإذا ''والدي'' - وقد دفَعَ عندئذٍ خارجَ نطاق ما يقدر على احتماله- يُقاطعُه بانفعالٍ شديد. ثُمَّ ينظرُ وجهَ أخيه، وجهَ طُوبي المُسالمَ تمامًا، مجروحًا في الصميم، ليس من الإهانة لشخصه- فهو ما كان ليُفكِّر فيها إطلاقًا- بل من إهانة الفَنِّ النَّبيل. وفي الحال يتوب ''والدي''، ثُمَّ يُقدِّم اعتذارًا، وتتمُّ المُصالَحة. ولكي يُبيِّنَ العمُّ طوبي كم أنَّ صَفحَه كامل، وكي يُظهِرَ أنَّه غيرُ مَعنيٍّ بصَونِ كرامته، يستأنفُ محاضرتَهُ التي تَتناول التَّحصين.

إلَّا أنَّنا لم نتطرَّق بعدُ إلى الغَيرة. وفي رأيي أنْ لا أحدَ يعتقد الآن أنَّ الغَيرةَ مَنوطةٌ بالحُبِّ الغراميِّ على وجه الخصوص. فإذا اعتقدَ شخصٌ ذلك، فإنَّ سلوكَ الأولاد، والمُوظَّفين، والحيوانات الأليفة، ينبغي أن يُحرِّرَهُ من الوهم سريعًا. ذلك أنَّ كلَّ نوعٍ من الحُبّ، وكلَّ نوعٍ من التَّرافُق تقريبًا، عُرضَةٌ لها. وغَيرةُ العاطفة ترتبط ارتباطًا وثيقًا بتعويلها على ما هو قديمٌ ومألوف. كذلك أيضًا بعدم الأهمِّيَّة، الكُلِّيِّ أو النِّسبيّ، لما أدعوه الحبَّ التقديريَّ بالنِّسبة إلى العاطفة. إنَّنا لا نُريد ''للوجوه القديمة المألوفة'' أن تصيرَ أكثر إشراقًا أو جمالًا، وللعوائد القديمة أن تتغيَّر ولو نحو الأفضل، وللنِّكات والاهتمامات القديمة أن

تُستَبدل بها مُستَحدَثاتٌ مُشوِّقة. فالتَّغيير إنَّما هو تهديدٌ للعاطفة.

رُبَّ أخٍ وأُخت، أو أخَوَين- فالجنسُ هنا ليس ناشطًا- يكبران حتَّى سنٍّ مُعيَّنة متشاركَين في كلِّ شيء. لقد قرأا المجلَّات الهزليَّةَ عينَها، وتسلَّقا الأشجارَ ذاتَها، وباشرا جمعَ الطوابع معًا وأقلعا عنه في اللَّحظة نفسها، ولعبا معًا لُعبةَ القراصنة أو رُوَّاد الفضاء. ثُمَّ يحدُثُ أمرٌ مُروِّع: يندفع أحدُهما إلى الأمام بسرعة البرق، إذ يكتشف الشِّعر أو العلم أو الموسيقى الجدِّيَّة، أو ربَّما يجتاز اختبارَ تغييرٍ دينيًّا. ومن ثَمَّ يغمر الاهتمامُ الجديد حياته. ولا يستطيع الآخر أن يُشاركَهُ في ذلك، فيَتخلَّف عنه. وإنِّي لَأتساءلُ هل كانت حتَّى خيانةُ زوج أو زوجة تُثير إحساسًا بالهُجران أشقى- أو غَيرةً أقسى- ممَّا يمكن أن يفعلَه ذلك أحيانًا. وليست هذه بَعدُ غَيرةً من الأصدقاء الجُدد الذين سيَكسبُهُم الهاجرُ سريعًا. إنَّ هذه الغَيرة ستأتي، وستكون أوَّلًا غَيرةً من الشَّيء في ذاته- من ذلك العلم، وتلك الموسيقى، ومن الله (الذي يُدعى دائمًا ''الدِّينَ'' أو ''هذا التديُّنَ كلَّه'' في سياقاتٍ مثل هذه). ويُحتمَلُ أن يُعبَّرَ عن الغَيرة بالاستهزاء. فالاهتمام الجديد ''هُراءٌ تافه''، صبيانيٌّ على نحوٍ مُخزٍ (أو شيخانيٌّ على نحوٍ مُستَهجَن)، وإلَّا فالهاجرُ غيرُ مَعنيٍّ به أبدًا، بل هو يتبجَّح ويتظاهر، والأمرُ كُلُّه تَباهٍ وتفاخُر. ثُمَّ لا تلبث الكُتبُ أن تُخبِّأ، والنماذج العلميَّة أن تُتلَف، والرَّاديو مُكرهًا أن يُحوَّل عن البرامج الكلاسيكيَّة. فإنَّ الحُبَّ العاطفيَّ هو أشدُّ المَحبَّات غَرَزيَّةً (نسبةً إلى الغريزة)، وحيوانيَّةً من هذا القبيل؛ وغَيرتُه شرسةٌ

وفتّاكةً تبعًا لذلك. إنّها تُكشّر عن أنيابها، مِثلَ كلبٍ انتُزِع منه طعامُه. ولماذا لا تفعل ذلك؟ لقد انتَزَعَ شيءٌ أو شخصٌ من الولد الذي أصِفهُ طعامَ عُمرِه، ذاتَهُ الأخرى، فباتَ عالَمه خرابًا.

ولكنْ ليس الأولادُ وحدَهم يتفاعلون هكذا. ففي أيّام السِّلْم المُعتادة التي يشهدها بلدٌ مُتمدّن، تكون أمورٌ قليلةٌ أشدَّ وحشيَّةً على وجه التقريب من الضَّغينة التي بها تتجمَّعُ عائلةٌ غيرُ مؤمنة كلُّها على واحدٍ من أفرادها صارَ مؤمنًا بالسيِّد المسيح، أو عائلةٌ ضئيلةُ الثقافة كلُّها على الفرد الذي تبدو عليه أماراتٌ تُبيِّن أنّه سيَصير عالمًا أو مُفكّرًا. ليس ذلك الأمرُ، كما اعتقدتُ حينًا، مجرَّدَ تشبيه بُغض الظُّلمة للنُّور الذي هو فِطريٌّ ولامُبالٍ، إنْ جازَ التّعبير. فإنَّ عائلةً تُواظِبُ على الذّهاب إلى الكنيسة، وقد صار أحدُ أفرادها مُلحدًا، لن تتصرَّف دائمًا تصرُّفًا أفضل على الإطلاق. تلك هي ردَّة الفعل على الهجران، بل على السَّلب أيضًا. فإنَّ شخصًا أو شيئًا قد سلبَنا "ابنَنا" (أو ابنتَنا). وذاك الذي كان واحدًا منّا، صار واحدًا منهم. فأيُّ حقٍّ لأيِّ شخصٍ في أن يفعلَ ذلك؟ إنّه لنا. ولكنْ حالَما يبدأ التغيير هكذا، مَن يدري إلى أين سيؤدّي؟ (ونحن كُنّا غايةً في السعادة والراحة قبل ذلك، وما كُنّا نؤذي أحدًا قطّ!).

وأحيانًا يشعر المرء بغَيرةٍ مزدوَجة غريبة، أو بالأحرى بغَيرتَين مُتعارِضتَين، تُطارِد إحداهُما الأخرى في ذِهن الفرد الذي يُعاني. فمن جهة، "هذا الأمر" كُلُّه "هُراء، سَفاسِفُ مُثقّفينَ

ثقيلة، مُخادَعةٌ يتغنّى بها صاحبُها". ولكنْ من جهةٍ أخرى: "لنفترضْ- مجرَّدَ افتراضٍ لأنَّ الأمر لا يمكن أن يكونَ صحيحًا ويجبُ ألّا يكون- أنّه كان في الأمر ما يستحقُّ الاهتمام؟" لنفترضْ أنَّ في الأدب، أو في الإيمان المسيحيّ، ما هو مُهِمّ؟ ماذا لو أنَّ الهاجرَ قد دخل بالفعل عالَمًا جديدًا لم يَحسبِ الباقون منّا قَطُّ أنّه ربَّما كان موجودًا؟ ولكنْ إن كان هذا هو الواقع، فلَيس من إنصاف؟! لماذا هو وحدَه؟ لماذا لم ينفتحْ ذاك لنا نحنُ قَطّ؟ "فتاةٌ وَقحة وصبيٌّ مُدَّعٍ تُكشَف لهما أمورٌ تَخفى على الكبار؟"

ولمّا كان ذلك لا يُصدَّق ولا يُحتَمل، كما هو جليّ، تنكفئُ الغَيرةُ إلى الفَرضيَّة "هُراءٌ بهُراء".

ويكون وَضعُ الوالدَين في هذه الحالة أكثرَ راحةً من الإخوة والإخوات. فماضيهما مجهولٌ لدى أولادهما. ومهما كان عالَمُ الهاجرِ الجديدُ، يمكنهما دائمًا أن يدَّعيا أنّهما قد اجتازاه هُما أنفُسُهما وقد خرجا من الطَّرَف الآخر. وهما يقولان: "إنّها مرحلة، ولا بُدَّ أن تنقضي". ولا شيءَ يمكن أن يكون أكثرَ إرضاءً. فلا يُعقَل أن يُدحَض الأمر في ذَينكَ المَكان والزمان، لأنّه تصريحٌ يخصُّ المُستقبل. ومع أنّه يَلسَع، فإنّه كما يُقالُ بشكل غاية في التَّساهُل، الاستياءُ منه صَعْب. وأفضلُ من ذلك بعدُ أنَّ الكبارَ قد يعتقدونه بحَقّ. أمّا أفضَلُ الكُلّ، فقد يتبيَّن أخيرًا أنّه كان صحيحًا. ولن تكونَ الغلطةُ غلطتَهم إذا لم يحصل ذلك.

"يا ولدي، إنَّ مُقرَّراتكَ الدراسيَّةَ الغريبةَ هذه ستفطر قلبَ

أمِّك!" وربّما كان هذا الاتّهامُ، الڤيكتوريُّ على نحو بارز، صحيحًا أغلبَ الأحيان. فإنَّ العاطفةَ جُرحت جُرحًا مُوجعًا لمّا سقط أحد أفراد العائلة من الرُّوح البيتيَّة وتقاليدها إلى قلبِ ما هو أردأ: القمار، السُّكر، مُعاشَرةُ فتاةِ أوبرا. إنّما يكاد يكون ممكنًا بالمِثل – واأسفاه! – أن تفطر قلب أمِّك بالارتفاع فوق الرُّوح البَيتيَّة وتقاليدها. فإنَّ عنادَ العاطفة المُحافظ ينشط في كِلا الاتّجاهين. ويمكن أن يكون نظيرًا عائليًّا لنوع التربية الانتحاريِّ وطنيًّا ذاك الذي يصدُّ الولدَ الواعدَ لأنَّ المُتبطِّلين والمُغفَّلين قد "يتأذَّون" إذا دُفع بطريقةٍ غير ديمقراطيَّة إلى صفٍّ أعلى من صفِّهم.

إنَّ انحرافاتِ العاطفة هذه كُلَّها مرتبطةٌ على نحو رئيسيٍّ بالحُبِّ العاطفيِّ باعتباره محبَّةَ احتياج. ولكنَّ للحُبِّ العاطفيِّ، باعتباره محبَّة مَنح، انحرافاته أيضًا.

ها أنا أُفكِّرُ في السيِّدة فدجت (Fidget) التي تُوفِّيت منذ بضعة أشهُر. فإنَّ سيماء الكآبة قد فارقت وجه زوجها؛ وقد بدأ يتمكَّن من الضَّحك. وابنُها الأصغر الذي طالمَا حَسِبتُه مخلوقًا صغيرًا مُنغَّصًا يشاكسُ غيرَه، تبيَّن أنّه آدميٌّ تمامًا. أمَّا الأكبر الذي لم يكد يُوجَد في المنزل إلّا إذا كان في سريره وقت النوم، فبات الآن هُنالك كلَّ حينٍ تقريبًا، وقد باشر إعادةَ تنسيق الحديقة. وأمَّا البنت، تلك التي عُدَّت "ضعيفة" دائمًا (مع أنّي لم أدرك قطُّ تمامًا ماذا كانت مشكلتُها)، فهي عاكفةٌ الآن على دروس ركوب الخيل التي كانت غير واردة، وهي ترقص طوال اللَّيل، كما أنَّها تلعب التَّنس كثيرًا. حتّى الكلبُ الذي لم يكن يُسمَحُ له قطُّ

بالخروج إلّا وهناك مَن يقوده، بات الآن عُضوًا معروفًا في "نادي الكلاب الهائمة" في حيِّ تلك العائلة، ومقرُّه عمود النُّور في الشارع.

كثيرًا ما قالت السيِّدة فدجت إنَّها تعيش لأجل عائلتها. ولم يكُن ذلك غير صحيح. فكُلُّ مَن في الجيرة كان يعلمُ ذلك. وقد قالوا: "إنَّها تعيش لأجل عائلتها. يا لها من زوجةٍ وأُمّ!" وهي كانت تتولّى غَسلَ الثياب كلّها. صحيح أنّها لم تُحسِن القيامَ بذلك؛ وكان في وُسعهم أن يبعثوا بالثّياب إلى المصبغة، وقد توسَّلوا إليها أغلبَ الأحيان ألّا تَغسِل، غير أنَّها كانت تَغسِل. وقد تَوافر دائمًا غداءٌ ساخن لأيِّ شخصٍ يكون في المنزل، ووجبةٌ ساخنة في المساء (ولو في عزِّ الصَّيف). وكانوا يلتمسون منها ألّا تُعِدَّ طعامًا مثل ذاك، ويحتجُّون بعيونٍ تكاد تدمع (وبصدق) بأنَّهم يحبُّون الوجبات الباردة. غير أنَّ ذلك لم يُحدِث أيَّ فرق. فهي كانت تعيش لأجل عائلتها. وكانت تبقى كلَّ حينٍ ساهرةً كي ما "تُرحِّب" بك عائدًا إلى المنزل إذا كنتَ خارجَه إلى وقتٍ مُتأخِّر من اللَّيل، حتّى الساعة الثانية أو الثالثة فجرًا، لا فرق. فإنَّك كنتَ كلَّ حينٍ تجد الوجهَ الضئيل الشاحب المُتعَب بانتظارك، وكأنَّه اتّهامٌ صامت. وقد عَنى ذلك بالطَّبع أنَّك لا تستطيع أن تخرجَ أغلبَ الأحيان، إذا كُنتَ ذا لَياقة أصلًا. وكانت تعكف دائمًا على صُنع الملابس أيضًا؛ إذ كانت حسب تقديرها الخاصّ (ولَستُ أنا في موقع الحَكَم) خيّاطةً هاوية مُمتازة وحبّاكةً ماهرة بالصنارة. وكان عليك بالطَّبع – إلّا إذا كنتَ جلفًا مُتحجِّر القلب – أن ترتدي تلك

الملابس. (قال لي القسّيس إنَّ هِباتِ تلك العائلة وحدَها "للمَبيعات المشغولة" - مُنذُ وفاتها- فاقت مجموعَ هِباتِ جميع أعضاء أبرشيَّته). وأمَّا عن عنايتها بصحَّتهم، فحدِّث ولا حَرَج! فهي حملت وحدَها كامل عبء "ضَعف" تلك الابنة. والطبيب- كان صديقًا قديمًا ولَم يُعالجها على نفقة وزارة الصِّحَّة- لم يُسمَح له قَطُّ بمُناقشة المسائل مع مريضته. فبعدَ أقصر فحص لها، كانت الأمُّ تصحبه إلى غُرفةٍ أخرى. إذ ما كان يجب أن يُساوِرَ الفتاةَ أيُّ قلق بشأن صحَّتها، كما لم يكن عليها أن تتحمَّلَ أيَّة مسؤوليَّة بشأن صحَّتها هي. وكان عليها فقط أن تتلقَّى العناية العطُوف، فضلًا عن التدليل والمُلاطفة، وتتناولَ الأطعمة الخُصوصيَّة والأشربةَ المُقوِّية الكريهة، والفَطورَ في السرير. فإنَّه كان من شأن السيِّدة فِدجت، كما كانت تقول كثيرًا، أن "تعملَ جاهدةً جدًّا" لأجل عائلتها. ولم يكونوا يستطيعون أن يُوقِفوها. كما لم يستطيعوا أيضًا- لكَونهم أسرةً مُحترَمة- أن يقفوا مَكتوفي الأيدي ويُراقِبوها تقوم بذلك. فقد كان عليهم أن يُساعِدوها. وبالحقيقة أنَّهم كانوا مُضطرِّين دائمًا إلى مساعدتها. أعني أنَّهم كانوا يقومون لها بأمورٍ كي يُساعِدوها أثناء قيامها بأمورٍ لا يريدون منها أن تَعملَها. أمَّا الكلبُ المُدلل، فقد كان عندَها "كواحدٍ من الأولاد"، كما كانت تقول. وهو كان بالحقيقة كواحدٍ منهم كما استطاعت أن تجعله. ولكنْ لمَّا لم يكُنْ ذا وَساوِس، فقد سارَت أمورُه خيرًا من أمورهم. ومع أنَّه كان يتلقَّى التَّطبيب والحِمية والرِّعاية الدائمة، فقد كان يحتال أحيانًا للوصول

إلى صفيحة القُمامة أو إلى كلب الجيران المجاورين.

لقد قال القسّيس إنَّ السيِّدة فدجَت مُستريحة الآن. فلْنَرجُ أن تكون كذلك. أمَّا ما هو مؤكَّدٌ تمامًا أنَّ عائلتَها قد استراحتْ.

وسَهلٌ أن نرى كيف أنَّ احتمالَ حُدوثِ هذه الحالة هو- إذا جاز التعبير- فِطريٌّ مُتأصِّلٌ في غريزة الأُمومة. فهذه، كما رأينا مَحبَّةُ مَنح، غير أنَّها محبَّةٌ تحتاجُ لأنْ تَمنح؛ ولذلك تحتاجُ لأنْ تدعوَ إليها الحاجة. ولكنَّ الهدف الموافق للعطاء هو أن نضعَ المُتلقِّيَ في حالةٍ لا يعود فيها مُحتاجًا إلى عطيَّتنا. فنحن نُطعِمُ الأولاد حتَّى يتمكَّنوا سريعًا من إطعام أنفُسهم؛ ونُعلِّمُهم حتَّى لا يعودوا سريعًا في احتياج إلى تعلمينا إيَّاهم. وعليه، فإنَّ مَهمَّةً جسيمةً مُلقاةٌ على محبَّة المَنح هذه. ويجب أن تعمل هي في سبيل التخلِّي عن دورها. كما يجب أن نهدف نحن إلى تَيسير عمليَّة الاستغناء عنَّا. وينبغي أن تكون مُكافأتَنا تلك الساعةُ التي فيها يتسنَّى لنا أن نقول: "إنَّهم لن يحتاجوا إليَّ بَعد". غير أنَّ الغريزة، حسبَ طبيعتها المُجرَّدة، لا تَقوى على العمل بموجب هذا القانون. فالغريزة ترغب في خيرِ غَرَضِها، ولكنْ ليس هذا فحسْب؛ بل فقط في الخير الذي تستطيعُ هي أن توفِّره. ولكنَّ محبَّةً أسمى بكثير- محبَّةً ترغَب في خير غرضها بحدِّ ذاته من أيِّ مصدرٍ أتى ذلك الخير- يجب أن تتدخَّلَ وتُسعفَ الغريزةَ، أو تُروِّضَها، قبل أن يَتسنَّى لها التخلِّي عن دَورها. وهي بالطبْع تفعلُ ذلك أغلبَ الأحيان. ولكنْ حيث لا تفعلُ ذلك، لا بدَّ للاحتياج النَّهِم لأنْ تدعوَ إليها الحاجةُ من أن يُشبِعَ ذاتَهُ

إمَّا بإبقاء أغراضها مُحتاجين وإمَّا باستنباط احتياجاتٍ وهميَّة لَدَيهم. وهي ستفعل هذا بمزيد من عدم الشَّفَقة أيضًا لأنَّها تعتقد (عن حقٍّ بمعنًى من المعاني) أنَّها محبَّةٌ مَنح، ولذلك تعدُّ نفسَها "غير أنانيَّة".

وليس الأمَّهات وحدَهنَّ مَن يُمكن أن يفعل ذلك. فإنَّ جميع تلك المحبَّات العاطفيَّة التي- سواءٌ بالاشتقاق من الغريزة الوالديَّة أم بتَشابُه الوظيفة- تحتاجُ لأنْ تدعوَ إليها الحاجةُ، تَتَردَّى في الهُوَّة ذاتها. وعاطفةُ الكفيل، أو الوَصِيّ، من نحو المكفول، أو المَحميّ، واحدةٌ منها. ففي رواية جايْن أوستِن "Jane Austen"، تَنوي إيما (Emma) أن تتمتَّع هاريت سميث (Harriet Smith) بحياةٍ سعيدة، إنَّما بنوع الحياة السعيدة ذاك الذي خطَّطَته لها إيما نفسُها. ومِهنتي الخاصَّة، من حيثُ كَوني أستاذًا جامعيًّا، تنطوي على خطرٍ من هذا القَبيل. فإنْ كُنَّا خَيِّرين، يجبُ أن نكونَ دائمًا عاملين في سبيل اللحظة التي فيها يَغدو طلَّابنا مؤهَّلين لأن يصيروا نُقَّادَنا وأندادَنا. وينبغي لنا أن نُسَرَّ حين نصلُ تلك اللَّحظة، كما يُسَرُّ مُدرِّبُ المبارَزة حينَ يَقوى تلميذُه على طَعنه وتَجريده من سَيفه. وكثيرون منَّا مَسرورون حقًّا.

إنَّما ليس الجميع. ولي من العُمر ما يُتيحُ لي أن أتذكَّر الحالة المُحزنة التي آل إليها أمرُ الدكتور كوارتْز (Dr. Quartz). فما من جامعةٍ تأتَّى لها أن تفتخرَ بأستاذٍ يفوقه تأثيرًا وتَفانيًا. وقد كان غرضًا لقسطٍ وافرٍ من عبادة الأبطال التي استحقَّها بجدارة. ودأب طلَّابُه، بطَبَعيَّةٍ وسرور، في زيارته بعد انتهاء العلاقة التعليميَّة- إذ كانوا يزورون منزله مساءً، حيث

يتباحَثون ويتحاوَرون بأحاديثَ ذاع صيتُها. غير أنَّ الأمرَ الذي يدعو إلى الفضول هو أنَّ ذلك لم يدُم طويلًا. فعاجلًا أو آجلًا- ربَّما في غضونِ بضعة أشهُر أو أسابيع- حلَّ المساءُ المصيريُّ، إذ قرعوا باب الدُّكتور فقيلَ لهُم إنَّه مشغول. وبعد ذلك تكرَّرت دائمًا حُجَّة كَونه مشغولًا، حتَّى أُبعدوا عنه إلى الأبد. وقد كان ذلك لأنَّهم، في اجتماعهم السابق، تمرَّدوا. فإنَّهم أكَّدوا استقلاليَّتهم، إذ خالفوا أستاذَهم في الرأي وأيَّدوا وجهة نظرهم، بغير نجاحٍ على وجه الاحتمال. ولمَّا واجهَ الدُّكتور كوارتْز تلك الاستقلاليَّة عينَها التي طالما عمل في سبيل إحداثها، وقد كان واجبُه أن يُحدثها إذا استطاع، تعذَّر عليه أن يحتملَها. لقد كابدَ "وُتان" (Wotan) العناء لكي يُكوِّنَ سيغْفريدَ الحُرّ؛ ولمَّا تقدَّم إليه سيغْفريدُ الحُرُّ، استشاط غضبًا. وهكذا غدا الدكتور كوارتْز إنسانًا كئيبًا.

هذا الاحتياجُ الرهيب لأنْ يحتاجَ الآخرون إلينا يجد له مُتنفَّسًا أكثرَ الأحيان في تدليل حيوانٍ أليف. وأن نعلمَ أنَّ أحدًا "مُولَعٌ بالحيوانات" أمرٌ لا يكشف لنا إلَّا القليل، قبل أن نعرفَ بأيَّة طريقةٍ هو مُولَعٌ بها. فإنَّ هنالك طريقتَين. فمن جهة، يكون الحيوانُ الأعلى والمُدجَّن، إذا جاز التعبير، "جسرًا" بينَنا وبين باقي الطبيعة. ونحن جميعًا نشعر أحيانًا، على نحوٍ مؤلم إلى حدٍّ ما، بعُزلتنا عن العالَم الدُّوبَشَريِّ (أي العالَم ما دون البشر): ضُمورِ الغريزة الذي يقتضيه ذكاؤنا، وَعْينا المُفرط لذَواتنا، تعقيداتِ وضعنا التي لا تُحصَى، عدم قدرتنا على العَيش في الحاضر. وحبَّذا لو نستطيع أن نتخلَّص من ذلك

الشُّعور! إنَّما يجب ألَّا نصيرَ بهائم، وقد اتَّفقَ أنَّنا لا نستطيعُ أن نصير. ولكنَّ في وُسعنا أن نكون مع البهائم. ولئن كان شخصيًّا بما فيه الكفاية أن نُضفيَ على اللفظة "مع" معنًى حقيقيًّا، فهي تبقى إلى أبعدِ حدٍّ حُزمةً صغيرةً لاواعيةً من الحوافز البيولوجيَّة. فلها ثلاثُ قوائمَ في عالَم الطبيعة وقائمةٌ واحدة في عالَمنا. وهي حلقةُ وَصْل، أو سفيرة. وعلى حدِّ تعبير بوزانكوت (Bosanquet): "ومَن الذي لا يرغب أن يكونَ له مُمثِّلٌ في بَلاط پان (Pan) (إله الغابات والرعيان والقُطعان)؟" فوجودُ إنسانٍ مع كلب يَسدُّ ثُغرةً في الكون. غير أنَّ الحيوانات طبعًا غالبًا ما تُستخدَم بأسلوبٍ أسوأ. فإن كنتَ بحاجةٍ لأن تدعوَ إليكَ الحاجَة؛ وإن كانت عائلتك، على نحو مؤاتٍ تمامًا، تأبى أن تحتاجَ إليك، يكون حيوانٌ أليفٌ بديلًا بديهيًّا. وفي وُسعك أن تُبقيَهُ مُحتاجًا إليك طولَ حياته. كما أنَّ في وُسعك أن تُبقيَهُ طفوليًّا على نحوٍ دائم، وتُقلِّصَه إلى كائنٍ سقيمٍ باستمرار، وتَحرمَهُ كلَّ رفاهةٍ حيوانيَّةٍ أصيلة، وتُعوِّضَ عن ذلك باستنباط تدليلاتٍ يسيرة لا تُحصَى، تستطيعُ أنت وحدَك أن توفِّرها. وهكذا يصير ذلك المخلوق التَّعسُ نافعًا جدًّا لسائر أهل البيت. إنَّه يؤدِّي دَور بالوعةٍ أو مَصرَف: فأنت مشغولٌ جدًّا بإفسادِ حياةِ كلبٍ بحيثُ لا تُفسدُ حياةَ أهل البيت. والكلاب أفضل من القطط لهذا الغرض. وقد قيل لي إنَّ القردَ أفضلُ الكُلّ. ثُمَّ إنَّه يُشبه الأصل أكثرَ من سواه. ولكنْ لا ريبَ في أنَّ الأمرَ كلَّه سوءُ حظٍّ بالنِّسبة إلى الحيوان. إنَّما يُحتمَل أنَّه لا يستطيعُ أن يُدرِكَ إلى التَّمام كاملَ الظُّلم

الذي أوقعتَه به. وأفضلُ من ذلك بَعدُ أنَّكَ لن تَدريَ البتَّة كونَه يُدرك ذلك حقًّا. فإنَّ الآدميَّ الذي يَلقى أشدَّ اضطهاد، متى جاوزَتْ معاناتُه كلَّ حدّ، قد يلتفتُ يومًا ما وينطقُ فجأةً بحقيقةٍ رهيبة. أمَّا الحيواناتُ فلا تستطيع أن تتكلَّم.

إنَّ أولئك الذين يقولون "كُلَّما زاد ما أراه من البشر، أحببتُ الكلابَ حبًّا أفضل" – أولئك الذين يجدون في الحيوانات إراحةً من مطاليب عِشرة البشر– يُنصَحون حسنًا بأن يفحصوا أسبابَهم.

أرجو ألَّا يُساءَ فهمي. فإنْ أدَّى هذا الفصل بأحدٍ لأنْ يشكَّ في أنَّ الافتقار إلى "العاطفة الطبيعيَّة" هو حرمانٌ، أكون قد أخفقت. كذلك أيضًا لا أرتاب لحظةً بأنَّ للعاطفة دورًا أساسيًّا في أيَّة سعادة راسخة ودائمة تشتمل عليها حياتُنا الطبيعيَّة. ولذلك سأتعاطف بعضَ الشَّيء مع أولئك الذين يتَّخذ تعليقُهم على الصفحات القليلة الأخيرة هذا الشكل: "طبعًا طبعًا، هذه الأمور تحدثُ فعلًا. فالأشخاص الأنانيُّون أو العُصابيُّون (Neurotics) قد يَحرفون أيَّ شيء، حتَّى الحُبَّ، إلى شكلٍ من أشكال البؤس أو الاستغلال. ولكنْ لماذا التشديد على هذه الحالات الهامشيَّة؟ إنَّ قليلًا من الفِطرة السَّليمة، ومن الأخذ والعطاء، يحول دون حدوثها بين ذوي اللياقة". ولكنِّي أعتقد أنَّ هذا التعليق عينَهُ يُعوِزه تعليق.

أوَّلًا، في ما يتعلَّق بوَصف قوم كهؤلاء بأنَّهم "عُصابيُّون"، لستُ أعتقد أنَّنا سنرى الأمور رؤيةً أجلَى بتصنيف جميع حالات الحبِّ

العاطفيّ غير السويَّة باعتبارها مَرَضيَّة. مع أنَّ هنالك بالفعل ظُروفًا مَرَضيَّة تجعل التَّجربة بالنِّسبة إلى تلك الحالات صَعبةً صُعوبةً فائقة، أو حتَّى مُتعذِّرةَ المُقاومة لدى أشخاص مخصوصين. فليَكشف الأطبَّاءُ على هؤلاء بأيَّة طريقة مُمكنة. ولكنِّي أعتقد أنَّ كلَّ مَن كان صادقًا مع نفسه لا بُدَّ أن يعترفَ بأنَّه قد خَبِر هذه التَّجارب. فحدوثُها ليس مَرَضًا؛ أو إذا كان كذلك، فاسْمُ ذلك المَرَض هو كَونُ المرء إنسانًا ساقطًا. ولدى الأشخاص الأسوياء، ليس الاستسلام لها مَرَضًا- ومَن لا يستسلم أحيانًا؟- بل هو خطيَّة. فالإرشادُ الرُّوحيُّ هنا يساعدنا أكثرَ من العلاج الطِّبِّيّ. ذلك أنَّ الطبَّ يجتهدُ في سبيل إرجاع البنية "الطبيعيَّة" أو الوظيفة "السَّويَّة". أمَّا الجشع والأنانيَّة وخداعُ النفس ورثاءُ الذَّات، فليست غير طبيعيَّة أو غيرَ سَويَّة بالمعنى نفسه الذي به يُقال "لابؤريَّةٌ في العين" (Astigmatism) أو "كُلْيةٌ عائمة" (Floating Kidney). فمَن- بحقِّ السماء- يصف الإنسانَ الذي تغيبُ عنه هذه العيوبُ كلِّيًّا بأنَّه طبيعيٌّ أو سَويّ؟ وإن شئتَ فقُل إنَّه "طبيعيٌّ" بمعنًى مختلف تمامًا: طبيعيٌّ بصورة فائقة، أو غيرُ ساقط. ونحنُ لم نَرَ إلَّا إنسانًا واحدًا فقط بهذه الصِّفة، وهو لم يكُن قطُّ على الصُّورة التي يرسمها عالمُ النَّفس عن المُواطِن المُتكامِل، المُتَّزن، المُتكيِّف اجتماعيًّا، السَّعيد في زواجه، الموظَّف، المحبوب. فلا يمكنُكَ في الحقيقة أن تكون "مُتكيِّفًا" على نحوٍ حسن جدًّا مع عالَمِكَ إذا قال "إنَّ بكَ شيطانًا"، ثُمَّ انتهى إلى تسميرك عاريًا على صليب من خشب!

أمَّا ثانيًا، فالتعليق بلُغته الخاصَّة يعترفُ بما أحاولُ أن أقولَه تمامًا. ذلك أنَّ العاطفة تُنتِج سعادةً إذا- فقط إذا- وُجدت فطرةٌ سليمة وأخذٌ وعطاءٌ و"لياقة". وبكلمة أخرى، فقط إذا أُضيفَ شيءٌ أكثرُ من العاطفة ومختلفٌ عنها. فمُجرَّد الشعور لا يكفي. إذ إنَّك تحتاج إلى "فطرة سليمة"، أي عقلٍ صائب. وتحتاج إلى "أخذ وعطاء"؛ أي تحتاج إلى عدلٍ أو إنصاف، بحيثُ تحفز دائمًا العاطفة المُجرَّدة عندما تذوي، وتضبطها دائمًا عندما تنسى فنَّ المحبَّة أو تميلُ إلى تحدِّيه. وأنت تحتاج إلى "لياقة". ولا سبيلَ إلى إنكارِ حقيقة كَون هذه تعني الصَّلاح: الصَّبرَ ونكران الذات والاتِّضاع، والتدخُّلَ المستمرَّ من قِبَلِ نوع من المحبَّة أسمى بكثيرٍ ممَّا تستطيع العاطفةُ في ذاتها أن تكونَه على الإطلاق. ذلك هو بيتُ القصيد كاملًا: إنْ حاولنا أن نعيشَ بالعاطفة وحدَها، فإنَّ العاطفة سوف "تفسد لدينا".

غيرَ أنِّي أعتقد أنَّنا نادرًا ما ندرك ذلك، وأسفاه! فهل كان ممكنًا بالحقيقة أنَّ السيِّدة فدجت لم تكن مُتنبِّهةً تمامًا إلى الخيبات والآلام التي لا تُحصَى، تلك التي أنزلَتْها بعائلتها؟ إنَّ ذلك يتخطَّى التصديق. فهي قد علمت- يقينًا علمت- أنَّ مساءَك كلَّه يتكدَّر إذا أويتَ إلى البيت فوجدتَها "جالسةً بانتظارك" من غير جَدوى وبتوجُّهٍ اتِّهاميّ. وقد عكفَت على هذه المُمارَسات كلِّها لأنَّها لو أقلعَت عنها لَواجَهت الحقيقة التي كانت عاقدة العزم على ألَّا تراها؛ لَعرفَت أنَّها كانت غير ضروريَّة. ذلك هو الدَّافع الأوَّل. ثُمَّ

إنَّ كدحَ حياتها بحدٍّ ذاته قد أخرسَ شكوكَها الخفيَّة بشأن نوعيَّة محبَّتها. فكلَّما تفاقمَ ألَمُ قدمَيها ووجع ظهرها، كان أفضل، لأنَّ هذا العَناء همسَ في أذنها: "كم أكونُ مُحِبَّةً لهم حتمًا إذا فعلتُ هذا كُلَّه!" وذلك هو الدَّافع الثاني. ولكنِّي أعتقد أنَّ هنالك عُمقًا أدنى. فإنَّ عدم تقدير الآخرين، كما عبَّرتْ عنه الكلماتُ الرهيبة الجارحة- وأيُّ شيءٍ لا بدَّ أن "يجرح" مَن كان على شاكلة السيِّدة فدجت- تلك الكلماتُ التي بها توسَّلوا إليها أن تبعثَ بالغسيل إلى المصبغة، مكَّنها من أن تشعر بسوء مُعاملتها، وتاليًا من أن تُضمِرَ أسًى مُستديمًا، وتستمتعَ بمسرَّات الاستياء. وإن قال أحدٌ إنَّه لا يعرف تلك المسرَّات فهو إمَّا كذَّاب وإمَّا قدِّيس. صحيحٌ أنَّها مسرَّات فقط بالنسبة إلى الذين يُبغِضون. ولكنَّ حُبًّا مثل حبّ السيِّدة فدجت يحوي إذ ذاك مقدارًا كبيرًا من البُغض. فعن الحبِّ الغراميِّ قال الشاعرُ الرومانيّ: "أنا أُحِبُّ وأُبغض"، ولكنَّ أنواعًا من الحُبِّ تعترفُ بهذا الخليط عَينه. إذ إنَّها تحمل في ذاتها بذورَ البُغض. وإذا جُعِلَت العاطفةُ السيِّدةَ المُطلقةَ على الحياة البشريَّة، فإنَّ البذور لا بدَّ أن تُفرِخ. فإذا ما صار الحُبُّ إلهًا، يصيرُ شيطانًا.

٤

الحُبُّ الإخوانيُّ

عندما يتحدَّث المرءُ بموضوع الحُبّ العاطفيّ أو الحُبّ الغَراميّ، يَلقى آذانًا صاغية. وما تزال أهمِّيَّةُ كِلَيهما وجماليَّتُه تحظيان بالتَّوكيد، وبالتَّضخيم إلى حدٍّ ما، مرارًا وتكرارًا. حتَّى أولئك الذين يميلون إلى فَضح زَيْفهما يتفاعلون واعينَ مع هذا التقليد المدحيّ، ويتأثَّرون به إلى ذلك الحدّ. ولكنَّ أقلَّاء جدًّا من أهل هذا العصر يحسبون الحُبَّ الإخوانيَّ، أوِ الصَّداقة، حُبًّا ذا قيمة مُماثلة، أو حتَّى حُبًّا على الإطلاق. ولا أستطيع أن أتذكَّر أنَّ أيَّةَ قصيدة منذُ رائعة تنيسون (Tennyson) "إن مُوريام" (In Memoriam) في تأبين صديقه العزيز، أو أيَّةَ رواية، قد أشادتْ بهذا النَّوع من المحبَّة. فإنَّ تريستان وإيزولد (Tristan and Isolde)، وأنطونيوس وكليوباترا (Antony and Cleopatra)، وروميو وجولييت (Romeo and Juliet)، لهم جميعًا أندادٌ في الأدب الحديث. أمَّا داوُد ويوناثان (David and Jonathan)، وبيلادِس وأُوريستِس (Pylades and Orestes)، ورولان وأُوليڤر (Roland and Oliver)، وأَميس

وأَميل (Amis and Amil)، فليس لهم. وفي نظر الأقدمين، بَدَت الصَّداقةُ أبهجَ جميعِ المحبَّات وأكثرَها إنسانيَّةً على الوجه الأكمل؛ فهيَ تاجُ الحياة ومدرسةُ الفضيلة. أمَّا العالَم الحديث، على سبيل المُقارنة، فيُهملُها. إنَّنا نعترف طبعًا بأنَّ الرَّجُل، فضلًا عن الزوجة والعائلة، يحتاج إلى بضعة "أصدقاء". ولكنَّ لهجةَ الاعتراف ذاتَها؛ ونوعيَّةَ المُعاشرات التي توصَف بأنَّها "صداقات" من قِبَل مَن يُدلون بذلك الاعتراف، تُبيِّنان بوضوح أنَّ ما يتحدَّثون بشأنه هو ذو علاقة واهية بتلك "المودَّة" (Philia) التي صنَّفها أرسطو بين الفضائل، أو بتلك "المؤاخاة" (Amicitia) التي كتبَ سيسَرو (Cicero) عنها كتابًا. فذلك شيءٌ هامشيٌّ تمامًا؛ وليس لونًا رئيسيًّا في مأدُبة الحياة، بل شكلٌ من التَّسلية، شيءٌ تُسَدُّ به الشُّقوق الحادثة في وقت المرء. فكيفَ آلَ الأمرُ إلى هذه الحال؟

إنَّ الجواب الأوَّل والأكثر بَدَهيَّةً هو أنَّ قليلين يُقدِّرون الصَّداقة لأنَّ قليلين يختبرونها. ثُمَّ إنَّ إمكانيَّةَ عَيشِ الحياة من دون ذلك الاختبار مُتأصِّلةٌ في الحقيقة التي تفصل الصداقة بوضوح عن كِلتا المحبَّتَين الأخرَيَين. فالصَّداقة- بمعنًى لا ينتقص أبدًا من قدرها- هي أقلُّ المحبَّات طبعيَّةً؛ أقلُّها غريزيَّةً، أو عضويَّةً، أو بيولوجيَّةً، أو اجتماعيَّةً، كما أنَّها أقلُّها ضرورة. ولها أقلُّ تواصلٍ مع أعصابنا؛ وليس فيها ما يجعلُ الصَّوت يصيرُ أجشًّا؛ ولا ما يُسَرِّع خَفَقانَ قلوبنا، أو ما يجعلنا نحمرُّ ونشحُب. وهي جوهريًّا بين أفراد؛ فلحظةَ يصيرُ شخصانِ

صديقَين يكونان بدرجةٍ ما قد انسحبا معًا إلى خارج السِّرب. فلولا الجنسُ ما كان أيُّ واحدٍ منَّا قد وُلِد؛ ولولا العاطفة ما كان أيٌّ منَّا قد رُبِّيَ. غير أنَّنا نستطيع أن نعيشَ ونتناسلَ بمعزلٍ عن الصَّداقة. ذلك أنَّ النَّوعَ الأحيائيَّ، منظورًا إليه من الناحية البيولوجيَّة، ليس بحاجةٍ إلى الصداقة. حتَّى إنَّ السِّربَ أو القطيع- الجماعةَ المُشتركة- قد ينفرُ منها ويُسيءُ الظنَّ فيها. وكثيرًا جدًّا ما يفعلُ قادَتُه هذا. فمُديرو المدارس ومُديراتُها، ورؤساءُ الجماعات الدينيَّة، والجنرالات، ورَبابنةُ السُّفن، يمكن أن يشعروا بالانزعاج حين تنشأ صداقاتٌ وثيقةٌ ومتينة بين حلقاتٍ صغيرة من تابعيهم.

فهذه الميزةُ "غيرُ الطبيعيَّة" (كما تُوصَف) في الصَّداقة تبلغ إلى حيثُ تُعلِّل دواعيَ تمجيدِها في الأزمنة القديمة وأزمنة القرون الوُسطى، في حين تصير محطَّ استخفافٍ في زماننا. إنَّ الفكرَ الأعمق والأبقى في تلك العصور كان زاهدًا ونابذًا للدُّنيا. فقد كانت الطبيعة والعاطفة والجسدُ تُخشَى باعتبارها أخطارًا تُهدِّد نفوسنا، أو تُزدرى باعتبارها انحطاطاتٍ لمقامنا الإنسانيّ. واستَدعى ذلك حتميًّا أن يُقدَّرَ التقديرَ الأسمى نوعُ المحبَّة ذاك الذي بدا أكثر استقلاليَّةً- بل تحدِّيًا أيضًا- للطَّبيعة المُجرَّدة. وكان واضحًا بصورةٍ بديهيَّة جليَّة جدًّا أنَّ الحُنُوَّ العاطفيَّ والهوى الجنسيَّ مُرتبطان بأعصابنا، وأنَّنا نُشارك البهائم فيهما. ففي وُسعك أن تشعر بهذين يتنازعان في أحشائك ويَتَذبذبان في حجابِكَ الحاجز. أمَّا في الصَّداقة- في عالَم العلاقات المختارة بحُرِّيَّةٍ ذاكَ النيِّر

الهادئ العاقل – فإنّك تغدو بمنأًى عن ذلك كلّه. فهذه وحدَها، دون سائر المحبّات، بدا أنّها ترفعُك إلى مَصَفّ الآلهة أو الملائكة.

ولكنْ بعد ذلك جاءت "الحركة الرُّومنطيقيّة" (Romanticism) و"الكوميديا الباكية" (The tearful comdey) و"العودة إلى الطبيعة" (The return to nature) والإشادة بالعاطفة؛ وفي موكبهنّ كلُّ ذلك التقلُّب العاطفيّ الذي استمرَّ مُنذُئذ، وإن كان يُنتقَد أغلبَ الأحيان. وأخيرًا، تمجيدُ الغريزة، و"آلهة الظلام التي تسري في دمائنا"؛ وقد يكون أنصارُهُ غيرَ قادرين على الصَّداقة بين الرِّجال. ففي ظلّ هذا النِّظام الجديد، كلُّ ما جعل هذه المحبَّةَ في الماضي موضعَ استحسان بدأ يعمل ضدَّها. إذ ليس فيها من الابتسامات الدَّامعة والتَّذكارات ولغة الأطفال ما يكفي لأنْ يُرضيَ العاطفيّين (Sentimentalist). ولا يرتبطُ بها من الدِّماء والشجاعة ما يكفي لاجتذاب الفطرانيّين (Primitivists).[1] فقد بدَت نحيلةً ومسلوبةَ العافية؛ نوعًا من البديل النباتيّ للمحبّات الأكثر عُضويّةً.

ثُمَّ إنَّ أسبابًا أخرى ساهمت مع هذه. فبالنِّسبة إلى الذين ينظرون إلى الحياة البشريّة كما لو كانت مجرَّدَ تَطوُّر من الحياة الحيوانيّة وتعقيد لها– وهم يُشكّلون الأكثريّة الآن– يُخيِّم الشكُّ على جميع أشكال السلوك التي لا تستطيع إبرازَ شهادات تُثبت منشأها الحيوانيّ وقيمتَها البقائيّة. وشهادات الصَّداقة ليست مُرضيةً جدًّا. ثُمَّ إنَّ تلك النظرة

١ هم أفرادٌ يؤمنون بأنَّ حالةَ الفطرة للإنسان أفضلُ من حالة المدنيّة العصريّة (الناشر).

التي تُثمّن الجماعةَ أكثرَ من الفرد لا بُدَّ أن تحطَّ من قدْر الصداقة، لكَونها علاقةً بين الأشخاص على مُستوى فردانيّتهم الأعلى. فهي تصرف الأشخاص عن "المعيَّة" الجَماعيَّة مثلما يُمكن أن تصرفَهم عنها يقينًا العُزلةُ نفسُها؛ وعلى نحوٍ أخطر أيضًا، لأنّها تصرفُهم اثنينَ اثنين أو ثلاثةً ثلاثة. وبعضُ أشكال الشُّعور الديمقراطيّ تُعاديها بصورة طبيعيّة، لأنّها انتقائيّةٌ وشأنٌ من شؤون القلّة. فأنْ تقول "هؤلاء هم أصدقائي" يعني ضمنًا "أولئك ليسوا كذلك". لهذه الأسباب كلّها، إذا كان شخصٌ يعتقد (على غِراري) أنَّ تثمينَ الصداقة القديمَ كان التَّثمينَ الصَّحيح، فلا يكاد يستطيع أن يكتبَ عنها فصلًا إلّا على سبيل إعادة الاعتبار.

وهذا يفرض عليَّ في المُستهَلّ مقدارًا ضئيلًا من النَّقض مُضجرًا جدًّا. فقد بات من الضَّروريّ فعليًّا في زماننا أن ندحضَ النظريَّة القائلة إنَّ كلَّ صداقةٍ متينة ورَزينة هي في الواقع علاقةٌ مِثليّة.

إنَّ العبارة الخطيرة "في الواقع" مُهمَّةٌ هنا. فأنْ نقول إنَّ كلَّ صداقة هي على نحوٍ مُدرَك ومُحدَّد علاقةٌ مِثليّة أمرٌ من شأنه أن يكون خاطئًا على نحوٍ غاية في الوضوح؛ والمُتعالِمون (مُدَّعو الحكمة) يَعتَصِمون بالتُّهمة الأقلّ محسوسيّة بأنَّ تلك في الواقع– على نحوٍ لاواعٍ وغامض وبمعنًى وصفيٍّ يبدو تقريريًّا– علاقةٌ مِثليّة. إنَّما هذا لا يمكن أبدًا أن يُفنّد طبعًا، وإن كان لا يمكن أن يُبرهَن. وحقيقةُ تعذُّر اكتشاف دليل قاطع على العلاقة المِثليّة في سلوك صديقَين لا تُربِكُ المُتعالِمينَ أبدًا. ومن

ثمَّ يقولون برَزانة: "ذلك هو تمامًا ما ينبغي أن نتوقَّعه". وهكذا، فإنَّ الافتقارَ إلى دليلٍ يُعامَل كأنَّه دليل؛ مثلما يُبرهِن عدمُ ظهور الدُّخان أنَّ النار مُخفاةٌ بكلِّ حرص- هذا إذا كانت النار موجودةً أصلًا. ولكنْ يجب علينا أوَّلًا أن نُبرهِنَ وجودَها، وإلَّا كُنَّا نُحاجُّ على غرارِ شخص يقول: "إذا كان على ذلك الكُرسيِّ هرٌّ غيرُ مرئيّ، فلا بدَّ أن يبدوَ الكُرسيُّ خاليًا؛ ولكنَّ الكرسيَّ يبدو بالفعل خاليًا؛ ولذلك يوجد عليه هرٌّ غيرُ مرئيّ".

ربَّما كان من غير الممكن أن يُفنَّدَ منطقيًّا اعتقادُ وجودِ هِرَرةٍ غير مرئيَّة، ولكنَّه يكشف لنا قسطًا وافيًا عن الذين يعتنقونه. فإنَّ الذين لا يستطيعون أن يتصوَّروا الصَّداقةَ مودَّةً حقيقيَّة، بل مُجرَّدَ قناعٍ أو تطويرٍ للهوى الجنسيّ، يَنمُّون عن حقيقة كَونهم لم يحوزوا صديقًا قطّ. والباقون منَّا يعلمون أنَّه وإن كان ممكنًا أن نحوز حبًّا غراميًّا وصداقةً للشَّخص نفسه، رغمَ ذلك فَلَيس شيءٌ أقلَّ شبهًا بالصداقة من العلاقة الغراميَّة، وذلك في نواحٍ عدَّة. فالعُشَّاق دائمًا يكلِّمون بعضُهم بعضًا عن حُبِّهم؛ أمَّا الاصدقاء فلا يكادون يتكلَّمون أبدًا عن صداقتهم. والعاشقان عادةً يكونان وجهًا لوجه، مُستغرقَين أحدُهما في الآخر؛ في حين يكون الأصدقاء جنبًا إلى جنب، مُنهمكينَ في مصلحةٍ مُشترَكة. وقبل كلِّ شيء، يكون الحبُّ الجنسيُّ بالضَّرورة (ما دام قائمًا) بينَ اثنَين فقط. ولكنَّ الاثنين، بعيدًا عن كَونه العددَ الضروريَّ للصَّداقة، ليس هو حتَّى الأفضلَ. وسببُ هذا مُهمّ.

يقول لامب (Lamb) في موضعٍ ما إنَّه- بينَ ثلاثة أصدقاء (أ وب وج)- إذا مات أ، فإنَّ ب لا يفقد أ فقط، بل أيضًا "حصَّة أ في ج"، في حين أنَّ ج لا يفقد أ فقط، بل أيضًا "حصَّة أ في ب". ففي كلِّ واحدٍ من أصدقائي شيءٌ ما لا يستطيع أن يُطلِعَه تمامًا إلَّا صديقٌ آخر سِوانا. وأنا وحدي لستُ مُتَّسعًا بما يكفي لأنْ أبعثَ بالنَّشاط في كاملَ الرَّجُل؛ فإنِّي أحتاج إلى أضواءٍ أخرى غير ضوئي لكَشف جميع أوجهه. فالآن، بعد وفاة شارل (Charles)، لن أرى بَعدُ أبدًا تفاعُلَ رولان (Roland) حيال طُرفةٍ شارليَّة على وجه الخصوص. وناهيكَ بحيازتي المزيدَ من رولان، إذ قد صار في مُتناوَلي شخصيًّا بعدما رحل شارل، بتُّ حاصلًا من رولان على ما هو أقلّ. ومن ثَمَّ، فإنَّ الصداقة الحقيقيَّة هي أقلُّ المحبَّات غَيرةً. ذلك أنَّ صديقَين يَسرُّهما أن ينضمَّ إليهما ثالث، وثلاثةً يسرُّهم أن ينضمَّ إليهم رابع، فقط إذا كان الوافد مؤهَّلًا لأنْ يغدوَ صديقًا صَدوقًا. عندئذ يُتاح لهم أن يقولوا ما قالته النُّفوس المَغبوطة في دانتي (Dante): "ها قد أتى شخصٌ سوف يُعزِّزُ محبَّتَنا". فإنَّه في هذه المحبَّة "أن تُوزِّعَ لا يعني أن تنتزع". لا شكَّ أنَّ نُدرةَ أشقَّاء الرُّوح- فضلًا عن الاعتبارات العمليَّة بشأن حجم الغُرَف ومَسموعيَّة الأصوات- تضع حُدودًا لتَوسيع الدائرة؛ ولكنْ ضمنَ تلك الحدود نمتلك كلَّ صديق- ليس أقلَّ بل أكثرَ- إذ يتضاعَفُ عددُ الذين نتشارك معهم فيه. وفي هذا، تُبدي الصَّداقةُ "قُربًا بالمشابَهة" مجيدًا إلى السماء بعَينها، حيثُ جمهورُ المَغبوطين (الذي

لا يستطيع أحدٌ أن يَعدَّه) يُضاعفُ في ذاته تمتُّعَ كلِّ واحدٍ بالله. فإنَّ كلَّ نفس، إذ تُشاهده بطريقتها الخاصَّة، تُبلِّغ جميعَ النُّفوس الأخرى تلك الرُّؤيا الفريدة. ولذلك- كما قال كاتبٌ قديم- فإنَّ السَّرافيم في رؤيا إشعياء "هذا نادى ذاك وقال: "قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ قُدُّوس"!" (إشعياء ٦: ٣). فكُلَّما تضاعفَت مُشاركتُنا هكذا في خُبز السماء بعضنا مع بعض، تتضاعف حصَّتنا فيه.

لذا تبدو لي النظريَّة المثليَّة غيرَ معقولة ولا مقبولة من الأساس. ولستُ أقول هنا إنَّ الحُبَّ الإخوانيَّ في الصَّداقة والهوى الجنسيَّ الشاذَّ لم يترابطا قطّ. إذ يبدو أنَّ حضاراتٍ مُعيَّنةً في مراحلَ مُحدَّدةٍ كانت تميل إلى هذه المَفسَدة. وفي المجتمعات المولَعة بالحرب، كان مُحتَملًا على وجه الخصوص، كما أعتقد، أن تتسلَّلَ تلك المَفسَدة إلى العلاقة بين الباسِل الراشد ومُرافقه أو حاملِ سلاحه قليل الخبرة. ولا شكَّ أنَّه كان لغياب النِّساء عن الرِّجال في دَرب الحرب شيءٌ من العلاقة بذلك. وعندَ تقريرنا- إن اعتقدنا أنَّه ينبغي لنا ونستطيع أن نُقرِّر- أين تَسلَّلَت وأين لم تتسلَّل، يجب حتمًا أن نستهديَ بالدَّليل (إذا وُجِد أيُّ دليل)، وليس عبر أيَّة نظريَّة افتراضيَّة، أو استنباطيَّة. فإنَّ القُبلات والدُّموع والمُعانقات ليست كلُّها في ذاتها دليلًا على العلاقة المثليَّة. وقد تكونُ المضامين هزليَّةً فوقَ الحدّ، إن لم تكُن شيئًا آخر. أتقولُ إنَّ المُعانقة بين رُثغار وبيُوَلف[٢] (Hrothgar and Beowulf)، وبين

٢ "بيُوَلف" هي ملحمةٌ شعريَّةٌ من الأدب الأنغلوساكسونيِّ تتألَّف من أكثر من ٣١٠٠ سطر

جونسون وبُزْوَل (Johnson and Boswell)، وهذا ثُنائيٌّ مُشتهٍ للجنس الآخر على نحوٍ سافرٍ إلى حدٍّ بعيد، وأيضًا بين جميع أولئك الضبَّاط الكبار، الصِّلاب العود عند مؤرِّخ القرن الأوَّل الرومانيِّ تاسيتوس (Tacitus)، حيث يلتصقُ أحدُهم بالآخر مُتَوسِّلًا قبلات الوداع لدى انهيار الجيش، كانت دليلًا على شذوذ هؤلاء كلِّهم؟ لكَ أن تقولَ هذا إذا كنتَ تستطيع أن تُصدِّق أنَّك قادرٌ على تصديق أيِّ شيء! فعلى نطاقِ نظرةٍ تاريخيَّة واسعة، من غير رَيب، ما يستدعي تفسيرًا خاصًّا ليس هو علامات التعبير العاطفيِّ عن الصَّداقة بين أسلافنا، بل بالأحرى غياب علاماتٍ كهذه عن مجتمعنا الحديث. فنحن النَّاشِزون، لا هُم.

قلتُ إنَّ الصَّداقة هي أقلُّ محبَّاتنا بيولوجيَّةً. فالفرد والجماعة كلاهما يستطيعان أن يعيشا من دونها. ولكنَّ هنالك أمرًا آخَر، غالبًا ما يُخلَطُ بينه وبين الصداقة، إليه تحتاج الجماعةُ فعلًا- أمرًا يُشكِّل مَنشأً للصَّداقة، مع أنَّه ليس الصداقةَ بعَينها.

ففي المُجتمعات البدائيَّة، لم يكُنِ التعاونُ بين الرِّجال بصفتهم صيَّادينَ أو مُحاربينَ أقلَّ ضَرورةً من إنجاب الأولاد وتربيَتهم. وكان من شأن القبيلة التي ليس لديها مَيلٌ إلى أحدِ هذين النَّشاطَين أن تموت حتمًا، شأنُها في ذلك شأنُ القبيلة التي لديها مَيلٌ إلى النَّشاط الآخر.

شعريّ، أمَّا "رُثغار" فهو ملك دانمركيٌّ أسطوريّ، يظهرُ في تلك الملحمة ملكًا من بدايات القرن السادس الميلاديّ (الناشر).

وقبل بدء التاريخ بزَمان طويل، كنَّا نحنُ الرِّجالَ نجتمع معًا بمعزل عن النِّساء لننجزَ أمورَنا. وقد كان ذلك أمرًا لا بدَّ منه. وأن يحبَّ الإنسانُ ما يجب أن يُعمَل مَزيَّةٌ ذاتُ قيمة بَقائيَّة. ثُمَّ إنَّه كان علينا ليس فقط أن نعملَ الأمور، بل أيضًا أن نتكلَّم بشأنها. فقد وجبَ أن نُخطِّطَ للصَّيد أو للمعركة. حتَّى إذا انتهيا، وجبَ أن نعقدَ حديثًا تاليًا للحادثة ونستخلص العبَرَ في سبيل استخدامها مُستقبلًا وكان هذا يروقُنا أكثرَ بَعدُ. إذ كنَّا نَسخر ممَّن كان جبانًا وأخرقَ ونُعاقبه، ونُثني على الأفراد المَهَرة المُتفوِّقين، ونستمتع كثيرًا بالتِّقنيَّات. (''ربَّما وجب عليه أن يعرفَ أنَّه ما كان قطُّ ليقتربَ إلى الحيوان (المُراد اصطياده)، فيما الريحُ تهبُّ بهذا الاتِّجاه''... ''تَرَون أنَّ رأسَ سَهمي كان أخفَّ وزنًا؛ وهذا هو ما أنهى الأمر''... ''ما أقولُهُ دائمًا هو...''... ''اضربوه على هذا النَّحو تمامًا، مفهوم؟ انظروا طريقةَ حَملي لهذه العصا''...) إنَّنا بالحقيقة كنَّا نتحدَّث بشؤون مهنتنا. وقد تمتَّعنا كثيرًا بعشرة بعضنا البعض: فنَحنُ البواسل، نحن الصيَّادين، تجمعنُا معًا المهارةُ المشترَكة، كنَّا نتشارك في الأخطار والمشقَّات، والنِّكات المقصورة علينا، بعيدًا عن النِّساء والأولاد. وكما قال أحدُ الظُّرفاء، فرُبَّما كان إنسانُ العصر الحجريِّ القديم يُلقي هِرواةً على كتفه أو لا يُلقيها، ولكنْ كان له نادٍ فعلًا. وربَّما كان ذلك جزءًا من ديانته؛ مثلَ ''نادي التدخين'' المُقدَّس ذاك الذي فيه كان البدائيُّون ''مشهورين بإعجابهم بأنفسهم'' كلَّ مَساءٍ من حياتهم- على حدِّ وصف مَلفيل (Melville) لهم في روايته تايبي (Typee).

وماذا كانت النِّساء يفعلنَ في أثناء ذلك؟ كيف لي أن أعرف؟ فأنا رجلٌ ولم أتجسَّس قطُّ على أسرار حلقات النِّساء. لقد كان لهنَّ أغلبَ الأحيان بالطَّبع شعائرُ يُقصَى عنها الرِّجال. ولمَّا كانت شؤون الزراعة تُوضَع في أيديهنَّ، كما كان يحدُثُ أحيانًا، فلا بدَّ أنهنَّ- مثلَ الرِّجال- كُنَّ يَتشاركن في بضع مهاراتٍ ومجهوداتٍ وانتصارات. ومع ذلك فرُبَّما لم يكن عالَمهنَّ قطُّ أنثويًّا على نحو مُبينٍ مثلمَا كان عالَمُ رِجالهنَّ ذُكوريًّا. وكان الأولاد يُلازِمونهنَّ؛ وربَّما بقيَ الرجال المُسنُّون معهنَّ أيضًا. ولكنِّي أخمِّن تخمينًا ليس غير، إذ لا يَسَعُني أن أتقصَّصَ أصولَ الصَّداقة المُوغِلَةَ في القِدَم إلَّا على خطِّ الرجال.

هذه المسرَّة الكامنة في التعاوُن، وفي مُناقشة شؤون العمل، وفي الاحترام والفهم المُتبادَلَين، بين رجالٍ يُعاين بعضُهم بعضًا يُختبَرون يوميًّا، هي مُهِمَّةٌ على الصعيد البيولوجيّ. ولكَ، إذا شئت، أن تحسبها نتيجةً ''للغريزة الاجتماعيَّة''. أمَّا بالنسبة إليَّ فتبدو طريقًا غيرَ مباشرة لبُلوغ أمرٍ بتْنا نفهمه كلُّنا أفضل بكثير ممَّا فهمَ أحدٌ الكلمة ''غريزة'' على الإطلاق- أمرٍ يجري هذه اللحظةَ في عشراتٍ من غُرَف الضبَّاط والحانات وحُجَر الاستراحة والحشود وأندية الغولف. وأنا أفضِّل أن أدعُوَ هذا رِفقةً أو مُخالَطةً اجتماعيَّة.

غير أنَّ هذه الرِّفقة ليست سوى مَنشَإِ الصَّداقة. إنَّها تُدعى صداقةً أغلبَ الأحيان، وكثيرون حين يتحدَّثون بشأن ''أصدقائهم'' يَعنون رُفقاءَهم فحسْب. ولكنَّها ليست صداقةً بالمعنى الذي أُضْفيه على الكلمة.

وإذ أقول هذا، لا أنوي البتّة أن أنتقصَ من قدْر علاقة المُخالطة الاجتماعيَّة المجرَّدة. فنحن لا نحطُّ من قيمة الفضَّة إذا ميَّزناها من الذَّهب.

تنشأ الصداقة من مُجرَّد الرِّفقة حين يكتشف اثنان من الرُّفقاء- أو أكثر- أنَّهما يشتركان في تبصُّر أو اهتمام، أو حتَّى ذَوق، كان كلاهما حتَّى تلك اللَّحظة يعتقد أنَّه كنزُه (أو عبؤُه) الفريد. ومن شأن التَّعبير النَّموذجيِّ عند استهلال الصداقة أن يكونَ شيئًا من هذا القبيل: "ماذا؟ أنت أيضًا؟ كنتُ أحسب أنِّي الشَّخص الوحيد..." ولنا أن نتصوَّرَ أنَّه بين أولئك الصيَّادين والمُحاربين الأوَّلين رأى أفرادٌ مُفرَدون- واحدٌ كُلَّ قرن؟ واحدٌ كلَّ ألف سنة؟- ما لم يَرَهُ الآخرون؛ رأوا أنَّ الغزال كان جميلًا كما كان صالحًا للأكل أيضًا، وأنَّ الصَّيد متعةٌ فضلًا عن كَونه ضروريًّا، وحلموا بأنَّ آلهتهم قد تكون طاهرةً إضافةً إلى كَونها قادرة. ولكنْ ما دام كلُّ واحد من هؤلاء الأشخاص المُدركين يموت بغير أن يلتقيَ شقيقًا لروحه، فلا شيءَ (كما يُخيَّل إليَّ) ينتجُ من ذلك؛ وما كان ليُولَد فَنٌّ ولا رياضةٌ ولا ديانةٌ روحيَّة. فعندما يكتشفُ شخصان من هذا النَّوع أحدُهما الآخر، وعندما يتشاركان في رؤيتهما- سواءٌ بصعوباتٍ هائلة وتلمُّساتٍ يُعوزُها الوضوح أم بسرعةٍ تبدو لنا مُذهلةً وخارقة- عندئذٍ تُولَد الصَّداقة. وفي الحال يقف الاثنان معًا في عُزلةٍ هائلة.

إنَّ العُشَّاق يَنشدون السرِّيَّة. أمَّا الأصدقاء فيجدون، سواءٌ أرادوا ذلك أم لم يُريدوه، عزلةً حوالَيهم، حاجزًا بينهم وبين

السَّرب. وكم يسرُّ الأصدقاء أن يُقلِّصوا تلك العُزلة. فالصديقان الأوَّلان يسرُّهما أن يجدا ثالثًا.

وفي زماننا أيضًا، تنشأُ الصداقة بالطريقة نفسها. إنَّما النَّشاطُ المشترَك بالنِّسبة إلينا، ومن ثَمَّ الرِّفقة التي تَليه، لن يكونَ بالطبع أغلبَ الأحيان نشاطًا بدنيًّا كالصَّيد أو القتال. فقد يكون موقفًا دينيًّا مُشتركًا، أو دراساتٍ مُشتركة، أو مهنةً مُشتركة، أو حتَّى تسليةً مُشتركة. وجميع الذين يَتشاركون في ذلك النشاط سيَكونون رُفقاءنا؛ ولكنَّ واحدًا أو اثنين أو ثلاثةً ممَّن يُشاركوننا في شيءٍ إضافيٍّ سيَكونون أصدقاءنا. في هذا النَّوع من المحبَّة، كما قال إمرسون (Emerson): هل تحبُّني؟ يعني هل ترى الحقيقة عينَها؟ فالشَّخص الذي يتَّفق معنا على أنَّ سؤالًا ما، قلَّما يُعيره الآخرون اعتبارًا هو ذو أهمِّيَّةٍ بالغة، يمكن أن يكونَ لنا صديقًا. ولا داعيَ لأنْ يُوافقَنا على الجواب.

لاحظْ أنَّ الصَّداقةَ هكذا تُكرِّر على مُستوًى أكثرَ فردانيَّةً، وأقلَّ ضرورةً من الناحية الاجتماعيَّة، طبيعةَ الرِّفقة التي كانت مَنشأً لها. فإنَّ الرِّفقة كانت بين شخصَين كانا يفعلان معًا بعضَ الأمور، من صَيدٍ أو درسٍ أو رسمٍ أو ما شئتَ. والصَّديقان سوف يقومان بَعدُ معًا بشيءٍ ما، ولكنْ بشيءٍ أكثرَ روحانيَّة وأضيقَ تَشارُكًا وأقلَّ سُهولةَ تحديد؛ فهُما ما يزالان صيَّادَين، إنَّما لطريدةٍ ما غير ماديَّة؛ وما يزالان يتعاونان، إنَّما في عملٍ ما لا يحسبُ له العالَمُ حسابًا، أو لم يحسبْه بَعد؛ وما يزالان رفيقَي سَفر، إنَّما في رحلةٍ مختلفةِ النَّوع. من ثَمَّ نُصوِّر العاشِقَين وجهًا لوَجه،

لكنّنا نصوّرُ الصَّديقَين جنبًا إلى جنب؛ وأعيُنهما تنظر إلى الأمام.

ولذلك السبب لا يستطيع الأشخاصُ المُحزنون أولئك، والذين "يريدون أصدقاء" فحسْبُ أن يَكسبوا أيَّ صديق. فالشَّرط الأوَّليُّ في كَسْب الأصدقاء أنَّه ينبغي لنا أن نبتغيَ شيئًا آخر فضلًا عن الأصدقاء. وحيث الجوابُ الصادق عن السؤال: "هل ترى الحقيقة عينها؟" يكون "لا أرى شيئًا، ولا تَعنيني الحقيقة، فأنا إنَّما أريد صديقًا فحسْب"، لا يمكن أن تقومَ أيَّةُ صداقة- وإن كان ممكنًا أن يقومَ حبٌّ عاطفيٌّ طبعًا. فلن يكون إذ ذاك للصداقة أيُّ شيءٍ تُعنَى به؛ ولا بدَّ للصداقة من أن تُعنى بشيءٍ ما، حتَّى لو كان هذا شَغفًا بلُعبة الدُّومينو أو بالفئران البيض. فالذين لا يملكون شيئًا، لا يمكن أن يَتشاركوا في شيء؛ والذين يَذهبون إلى لامكان، لا يمكن أن يكونَ لهم رُفقاء سَفر.

وحين يكون الشخصان اللذان يكتشفان على هذا النحو أنَّهما على الطَّريق السرِّيِّ عينِه مُختلِفَي الجنس، فإنَّ الصَّداقة التي تنشأ بينَهُما ستتحوَّل على نحوٍ غاية في السهولة إلى حبٍّ غَراميّ، وربَّما حصل ذلك في النصف الساعة الأولى. وبالحقيقة أنَّه يكاد يكون من الحَتميِّ أن يحصل عاجلًا أو آجلًا، إلَّا إذا كانا مُنفِّرَين أحدُهما للآخر على الصَّعيد الجَسَدانيّ، أو كان أحدُهما أو كِلاهما يحبُّ شخصًا آخر أصلًا. وعلى العكس، قد يؤدِّي الحُبُّ الغَراميُّ إلى الصَّداقة بين الحبيبَين. غير أنَّ هذا، وهو أبعدُ ما يكون عن طَمسِ الفارق بين هاتَين المحبَّتَين، يُسلِّط عليه ضوءًا أجلى. فإذا حدث

أنَّ فتاةً كانت أوَّلًا صديقتك، بالمعنى العميق والكامل، تَبدَّت بعد ذلك- إمَّا بالتدريج وإمَّا فجأةً- بصفتها حبيبتك، فإنَّك حتمًا لن تُريد أن تُشرِك أيَّ شخص ثالث في حُبِّ محبوبتك الغراميّ. ولكنْ لن تُثارَ غَيرتُك أبدًا من جهة المُشارَكة في الصَّداقة. فلا شيءَ يمكنُ أن يُغنيَ حُبًّا غَراميًّا بمقدار اكتشافك أنَّ في وُسع محبوبتك أن تدخل، على نحوٍ عميق وصادق وتلقائيّ، في علاقة صداقةٍ بالأصدقاء الذين لديك أصلًا: أن نشعر بأنَّنا لسنا فقط اثنَين يجمعهما الحبُّ الغَراميّ، بل أيضًا أنَّنا نحنُ الثلاثةَ أو الأربعة أو الخمسة، مُسافِرون معًا إلى المُراد عينه ولنا جميعًا رؤيةٌ مُشتركة.

ثُمَّ إنَّ وجودَ الحُبِّ الإخوانيِّ والحُبِّ الغراميِّ قد يساعد بعضَ العصريِّين على أن يُدركوا أنَّ الصَّداقة هي بالحقيقة محبَّة، بل أيضًا محبَّةٌ عظيمة مثلَ الحبِّ الغَراميّ. تخيَّل أنَّ السَّعادةَ قد وافَتك حتَّى "وقعتَ في حُبِّ" صديقتك وتزوَّجتَها. وتخيَّل الآنَ إمكانيَّة أنَّه أتيح لك الاختيار بين مُستقبلَين: "إمَّا أن تكفَّا كلاكما عن أن تكونا عاشِقَين ولكنَّكما تبقيان إلى الأبد طالِبَين مُتَشارِكَين للإله نفسه، والجمالِ عينه، والحقيقة ذاتها، وإمَّا- إذا فقدتُما ذلك كلَّه- أن تحتفظا ما دُمتما حيَّين بحماسات الحبِّ الغراميِّ وحرارته، وكلِّ ما فيه من روعةٍ وتَوقٍ جامح. اختَر من هذين الخِيارَين أيَّ واحدٍ تشاؤه". فأيًّا منهما تختار؟ وأيُّ خِيار لا ينبغي أن نندمَ عليه بعدَ اعتماده؟

لقد شدَّدتُ على الجانب "غير الضَّروريِّ" في طبيعة الصداقة،

وهذا يقتضي بالطَّبع تسويغًا أكثرَ ممَّا أوردتُ بشأنه حتَّى الآن.

ربَّما يُجادلُ بعضٌ بأنَّ للصَّداقات قيمةً عمليَّةً بالنِّسبة إلى الجَماعة المُشترَكة. فكلُّ حركةٍ دينيَّةٍ مُتقدِّمة بدأت بمجموعة صغيرة من الأصدقاء. والرياضيَّات بدأت فعليًّا لمَّا تلاقى أصدقاءُ يونانيُّون أقلَّاء كي يتحدَّثوا بشأن الأعداد والخطوط والزَّوايا. وما هو الآن "الجمعيَّة المَلَكيَّة" كان في الأصل بضعةَ رجالٍ مُحترَمين يجتمعون معًا في أوقات فراغهم ليَتباحثوا في أمورٍ كان لديهم (وليس لدى كثيرين سِواهُم) وَلَعٌ بها. وما ندعوه الآن "الحركة الرومنسيَّة" (Romantic movement) كان في ما مضى حديثَ وليَم وُردزورث (William Wordsworth) وصموئيل كولريدج (Samuel Coleridge)، ولا سيَّما الثاني، بلا انقطاع عن رؤيا سرِّيَّة خاصَّة بهما. ثُمَّ إنَّ الشُّيوعيَّة والكَراريسيَّة[٣] والميثوديَّة، وحركةَ مُناهضةِ الاسترقاق (عبوديَّة البشر)، والإصلاحَ والنَّهضةَ الأوروبيَّة، قد يُقال- بغيرِ كثيرٍ من المُبالغة- إنَّها جميعًا بدأت بالطريقة عَينها.

إنَّ في هذا شيئًا. ولكنَّ كلَّ قارئ تقريبًا يُحتمَل أن يحسبَ بعضَ هذه الحركات جيِّدةً للمجتمع وبعضَها سيِّئة. ومن شأن اللائحة

٣ هي حركة انطلقتْ في إنكلترا أواسط القرن التاسع عشر، وقد سُمِّيَت أوَّلًا بحركة أكسفورد (Oxford Movement)، ثُمَّ ما لبثت أن سُمِّيَت "الكراريسيَّة" (Tractarianism) بعد أن نشر أتباعُها سلسلةً بعنوان: "كراريس لوقتنا هذا" (Tracts for the Times). وقد دأب أنصارُها في نشر تلك الكراريس (النُّبَذ) وتوزيعها في الأعوام ما بين ١٨٣٣-١٨٤١م (الناشر).

بكاملها، إذا ما قُبِلَت، أن تَميلَ لأنْ تُبيِّن، على أفضل حال، أنَّ الصَّداقة قد تكون على السواء مُحسنةً إلى الجماعة المشتركة وخطرًا عليها في آنٍ معًا. حتَّى إنَّها، بصفتها مُحسنة، لَن تكونَ لها قيمةٌ بقائيَّة بمقدار ما يُمكن أن ندعوَه "قيمةً حضاريَّة"؛ إذ من شأنها أن تكون (بعبارة أرسطوطاليسيَّة) أمرًا يُساعِد الجماعةَ لا على أن تَعيش بل على أن تعيش جيِّدًا. ثُمَّ إنَّ القيمة البقائيَّة والقيمة الحضاريَّة تَتوافقان في بعض المراحل وفي بعض الظُّروف، ولكن ليس في جميعهنَّ. وما يبدو مؤكَّدًا على كلِّ حال هو أنَّه عندما تحمل الصداقة ثمارًا تستطيع الجماعةُ أن تستفيد منها فلا بدَّ أن تحملها عَرَضيًّا، كنتيجة ثانويَّة. فالأديان المُستنبَطة لغاية اجتماعيَّة، كعبادة الإمبراطور الرُّومانيَّة أو المحاولات الحديثة "لترويج" المسيحيَّة بوصفها وسيلةً "لإنقاذ المدنيَّة"، لا تُحرِز نجاحًا يُذكَر. إنَّما الحلقاتُ الصَّغيرة التي تضمُّ أصدقاءَ يُديرون ظُهورَهم نحو "العالَم" هي التي تُغيِّره حقًّا. وقد كانتِ الرِّياضيَّاتُ المصريَّة والبابليَّة عمليَّة واجتماعيَّة، إذ جرت مُتابَعتُها في خدمة الزِّراعة والسِّحر. أمَّا الرِّياضيَّاتُ اليونانيَّة، وقد تابعَها أصدقاءُ كنشاطٍ اشتغلوا به في أوقات الفراغ، فإنَّها كانت أكثرَ أهمِّيَّةً بالنِّسبة إلينا.

ومن شأن آخرين أيضًا أن يقولوا إنَّ الصَّداقةَ نافعةٌ إلى أقصى الحدود، وربَّما ضروريَّةٌ في سبيل البقاء، بالنِّسبة إلى الفرد. وفي وُسعهم أن يأتوا بشواهِدَ كثيرة، منها: "مكشوفُ الظَّهرُ الذي ليس وراءه أخ" و"يُوجَد مُحِبٌّ (صديق) ألزَقُ من الأخ". ولكنْ

حين نتكلّم هكذا، نقصدُ استخدامَ صديق بمعنى "حليف". إنّما في الاستخدام المألوف، تعني الكلمةُ صديق- أو ينبغي أن تعني- أكثر من ذلك. لا ريبَ أنَّ الصديق سيُثبت أنّه حليفٌ أيضًا حين تدعو الحاجة إلى المُحالَفة؛ فهو سيُقرِضُ أو يُعطي حين نكون مُحتاجين، ويعتني بنا في مرضنا، ويُناصرنا وسطَ أعدائنا، ويفعل ما يقدر عليه لأجل أراملنا وأيتامنا. ولكنَّ خدماتٍ كريمةً كهذه ليست قِوامَ الصَّداقة، ومُناسَباتُها تكاد أن تكون عوائقَ لها. فهي من جهةٍ وثيقةُ الصِّلة بها، ومن جهةٍ ليست كذلك. إنّها وثيقة الصِّلة، لأنّك تكون صديقًا زائفًا إن كنتَ لا تؤدّيها حينَ تدعو الحاجة؛ وهي غيرُ وثيقة الصِّلة، لأنَّ دَورَ المُحسِن يبقى كلَّ حينٍ عارضًا، بل أيضًا غريبًا بعض الشيء، بالنسبة إلى دَورِ الصَّديق. وهو يكاد يكون مُحرِجًا. فإنَّ الصَّداقةَ بريئةٌ تمامًا من احتياجِ العاطفة لأنْ تدعوَ إليها الحاجة. ونحن مُتأسِّفون لأنَّ الضَّرورة استدعَت أيَّ قرض أو تقدمة أو سَهَر. حتّى عِرفانُ الجميل ليس تعزيزًا لهذه المحبَّة. والأقوال المُقولَبة مثل "دَعكَ من ذِكرِ هذا!" أو "هذا أقلُّ الواجب" - كما نقول في العربيَّة- هُنا تُعبِّر عن حقيقة شعورنا. فعلامةُ الصَّداقة الكاملة ليسَت أن يُقدِّمَ العَونُ عند الضَّرورة (وسيُقدَّم طبعًا)، بل ألّا يُحدِثَ أيَّ فرق إطلاقًا بعد تقديمه. إذ إنّه كان إلهاءً، أو خَرقًا للمألوف. لقد كان تبديدًا مروِّعًا للوقت المُتاح لنا كي نكونَ معًا، وهو دائمًا أقصرُ من المنشود. فرُبَّما أُتيحت لنا ساعاتانِ لنتحدَّثَ فيهما، ولكنْ

وجب علينا (باركَنا الله!) أن نُخصِّص منهما عشرين دقيقة للعمل وتصريف الشؤون!

فإنّنا طبعًا لا نُريد أن نعرفَ أمورَ صديقنا البتَّة. إذ إنَّ الصداقة، على خلاف الحبِّ الغَراميّ، ليست فُضوليَّة. فأنت تصيرُ صديقَ رجُلٍ من دون أن تعرف- أو تُبالي- كَونَهُ مُتزوِّجًا أو أعزبَ، ولا كيف يكسب رِزقَه. وأيَّةُ علاقة لهذه "الأمور الشخصيَّة التي لا تَعنينا" بالسؤال الحقيقيّ: هل تَريَان الحقيقة نفسها؟ ففي دائرةِ أصدقاءَ صادقين، كلُّ إنسان هو ما هو فحسْب: إنّه لا يُمثِّل أيَّ شيء سوى ذاته. ولا أحدَ يعنيه البتَّةَ تقريبًا عائلةُ أيِّ شخصٍ آخر، أو مِهنتُه، أو طبقتُه، أو سُلالتُه، أو تاريخه السابق. لا شكَّ سوف تغدو مُطَّلعًا على معظم هذه الأمور في آخرِ المطاف، إنّما من غير قصد. فهي ستبَرز شيئًا فشيئًا، لكي توفِّر مَثَلًا إيضاحيًّا أو تشبيهًا، أو تؤدِّيَ دورَ مَن يشجبُ نادرَة (قصَّةً طريفة)؛ ولكنْ ليس من أجل ذاتها أبدًا. تلك هي فخامة الصَّداقة. فنحن نتلاقى كأمَراءِ دُوَلٍ مُستقلَّة ذوي سيادة، في الخارج، على أرضٍ حياديَّة، مُحرَّرين من أُطُرِنا. وهذه المحبَّة (جوهريًّا) لا تتجاهل فقط أجسامَنا المادِّيَّة، بل أيضًا كاملَ المُجسَّم الذي يتكوَّن من عائلتنا ومهنتنا وماضينا وعلاقاتنا. ففي البيت، فضلًا عن كَوننا بيتر (Peter) أو جاين (Jane)، نحمل أيضًا صِفةً عامَّة: زوجًا أو زوجة، أخًا أو أختًا، رئيسًا أو زميلًا أو تابعًا. ولكنْ ليس بين أصدقائنا. فالحُبُّ الإخوانيُّ هو شأنٌ عُقولٍ مُتحرِّرة أو مُتجرِّدة. والحُبُّ الغَراميُّ يبتغي أجسادًا مُجرَّدة؛ أمَّا الصداقة فشخصيَّاتٍ مُجرَّدة.

لهذا السبب جاء وصْفُ (إن كُنتَ لن تُسيء فهمي) هذا الحُبَّ باعتباطيَّة ولامسؤوليَّة شديدَتين. فليس عليَّ أيُّ واجبٍ بأن أكونَ صديقَ أيِّ شخص، وليس على أيِّ إنسانٍ في الدُّنيا واجبٌ بأن يكون صديقًا لي. فلا مَطالب، ولا ظِلُّ ضَرورة. ذلك أنَّ الصداقة غيرُ ضروريَّة، شأنُها شأنُ الفلسفة، وشأنُ الفنّ، وشأنُ الكون نفسه (فإنَّ الله لم يكُنْ مُضطرًّا لأنْ يخلق). وليس للصَّداقة قيمةٌ بَقائيَّة؛ بل هي بالأحرى واحدٌ من تلك الأمور التي تُضفي قيمةً على البَقاء.

لمَّا تكلَّمتُ عن قيام الأصدقاء جنبًا إلى جنب، أو كَتِفًا إلى كَتِف، كنتُ أنبِّه إلى مُفارَقة ضَروريَّة بين حالهم وحال المُحبِّين الذين نُصوِّرهم وجهًا إلى وجه. ولستُ أريد للصُّورة أن تُضغَط إلى ما وراءَ تلك المُفارَقة. فالغاية أو الرؤية المُشترَكة التي تُوحِّد الأصدقاءَ لا تُجهدهم بحيثُ يظلُّون مُتجاهلين أو مُهمِلين بعضُهم بعضًا. ولكنَّها، على العكس، تُشكِّل الوَسَطَ عينَهُ الذي فيه يوجَدُ حُبُّهم ومعرفتُهم المُتبادَلان. ولا أحدَ يعرف المرءَ جيِّدًا مثلَ "صاحبِه". فكلُّ خطوة من الرِّحلة المُشترَكة تَمتَحِنُ مَعدِنَه؛ والامتحاناتُ امتحاناتٌ نفهمُها تمامًا لأنَّنا نحن أنفُسَنا نجتازها. وهكذا، فإذْ يتبيَّن أنَّه أصيلٌ مرَّةً بعد مرَّة، يُزهِرُ تعويلُنا واحترامُنا وإعجابُنا في حُبٍّ تقديريٍّ من نوع قويٍّ ووافي الاطِّلاع على نحوٍ فريد. ولو كُنَّا منذ البداية قد عُنينا أكثرَ به وأقلَّ بالشيءِ الذي تدور صداقتُنا "عليه"، لَمَا توصَّلْنا إلى معرفته أو محبَّته بهذه الطريقة الجيِّدة. فإنَّك لن تَجِدَ المُحارِب، أو الشاعر، أو

الفَيلسوف، أو المسيحيَّ الحقيقيّ، بالتحدِّيق إلى عينَيه كما لو كان خليلتَك (عشيقتك): بل أفضَلُ أن تُحارِبَ إلى جانبه، أو تقرأ معه، أو تُحاوِرَه، أو تُصلِّيَ معه.

وفي رأيي أنَّ هذه المحبَّة التقديريَّة، في الصداقة الكاملة، هي أغلبَ الأحيان عظيمةٌ جدًّا وراسِخةُ الأساس تمامًا بحيثُ إنَّ كلَّ عضوٍ في الحلقة يشعر، في قرارة نفسِه، بالاتِّضاع أمامَ جميع الباقين. حتَّى إنَّه يُسائل نفسَه أحيانًا عمَّا يفعل هناك بين أشخاصٍ مُتفوِّقين عليه. فهو سعيدُ الحظِّ فوقَ استحقاقه بكَونه في رفقة كهذه- ولا سيَّما حينَ تكون المجموعةُ كلُّها معًا- إذ يُطلعُ كلُّ واحدٍ مِمَّا في الآخرين جميعًا ما هو الأفضلُ أو الأحكم أو الأطرَف. تلك هي الجلسات الذهبيَّة؛ حينَ نكونُ نحنُ الأربعةَ أو الخمسة، بعدَ مسيرةِ نهارٍ مُتعِبة، قد أوَينا إلى فُندُقنا؛ حين تكونُ أحذيتُنا في أقدامنا، وأرجُلنا ممدودة نحو المَوقِد المُضطرِم، وأشربَتُنا في مُتناوَلِنا؛ حين ينفتح العالَمُ بكامله- وشيءٌ يتخطَّى العالَم- أمامَ عُقولنا ونحن نتحدَّث؛ وليس لأيٍّ منَّا أيُّ مطلب أو أيَّة مسؤوليَّة تُجاه الآخر، بل كُلُّنا أحرارٌ وأندادٌ كما لو كنَّا قد تلاقَينا أوَّلَ مرَّة منذ ساعة، في حينِ تكتنفُنا عاطفةٌ عتَّقتها السُّنون. ليس لدى الحياة- الحياةِ الطبيعيَّة- عطيَّةٌ أفضلُ تُعطيها. ومَن كان يمكن أن يستحقَّها؟

يتَّضح ممَّا قيل أنَّ الصَّداقات، في مُعظَم المُجتمعات وأغلب الأوقات، ستقوم بين رجالٍ ورجال أو بين نساءٍ ونساء. فهذانِ الجِنسان يكونان

قد اجتمعا أحدُهما بالآخر في إطار العاطفة والحُبِّ الغراميّ، ولكنْ ليس في إطار هذه المودَّة الإخوانيَّة. لأنَّهما نادرًا ما يكونان قد ترافقا في مُخالطة النشاطات المُشتركة، تلك التي تُشكِّل مَنبتَ الصداقة. فحيثُ يكون الرِّجالُ مُثقَّفين على خلاف النِّساء؛ وحيثُ يكون أحد الجنسَين عاملًا والآخَرُ خاملًا، أو حيثُ يقومان بعملٍ مُختلف كلِّيًّا، لن يكون لديهما عادةً أيُّ شيءٍ يتصادقان بشأنه. ولكنْ يمكننا أن ندركَ بسهولة أنَّ هذا العَوَز، لا أيَّ شيءٍ في طبيعتَيهما، هو الذي يَستبعِد الصداقة؛ فإنَّهما حيث يمكن أن يترافقا يمكن أيضًا أن يتَصادَقا. ومن ثَمَّ، ففي مهنةٍ يعمل الرجال والنِّساء فيها جنبًا إلى جنب (كمهنتي)، أو في حقل الخدمة الإرساليَّة، أو بينَ الأدباء والفنَّانين، نجد مثلَ هذه الصداقة شائعةً. ومن غير ريب، ما يَبذلُه أحدُ الطَّرفَين على أنَّه صداقةٌ قد يحسبُه الطَّرف الآخر بالغلط حُبًّا غراميًّا. ولكنَّ قولَنا إنَّ شيئًا ما يمكنُ أن يُحسَبَ بالغلط شيئًا آخر، أو يتحوَّلَ إليه، لا يعني إنكارَ الفارق بينهما، بل بالأحرى أنَّ هذا مُتضمَّنٌ في ذاك؛ وإلَّا فلا داعيَ لأنْ نتكلَّم بشأن تحوُّله إليه أو حسبانه إيَّاه بالغلط.

إنَّ المجتمعَ الغربيَّ الحديث، من ناحية، سيِّئُ الحظّ. فالعالَم الذي فيه لا يَجمعُ الرجالَ والنِّساءَ أبدًا عملٌ مشترك، أو تعلُّمٌ مشترك، يمكن على وجه الاحتمال أن يجريَ مجراه بهناءة كافية. إذ إنَّ الرِّجالَ فيه يلتفتون بعضُهم إلى بعض- فقط بعضُهم إلى بعض- طلبًا للصَّداقة، وهم يستمتعون بها أيَّ استِمتاع. وأرجو أن تستمتعَ

النساءُ برفقة صديقاتهنَّ على حدٍّ سواء. وكذلك أيضًا العالَم الذي فيه تَجمعُ الرجالَ والنِّساءَ أرضيَّةٌ مشتركة كافية، يمكنه أيضًا أن يكون هانئًا. غير أنَّ أهل المجتمع الغربيِّ الحديث واقعون في مأزقٍ كبير. فالأرضيَّة المُشتركة الضَّروريَّة، أي المَنبت، موجودةٌ بين الجنسَين في بعض المجتمعات، إنَّما ليس في الأخرى. وهي غائبة خصوصًا في كثيرٍ من الضَّواحي السَّكنيَّة. ففي حيٍّ أثرياء، حيثُ يقضي الرِّجالُ حياتَهم كلَّها في تكديس المال، بعضُ النِّساء على الأقلِّ استخدمنَ وقتَ فراغهنَّ لإنشاء حياةٍ فكريَّة- وقد صار بعضُهنَّ موسيقيَّاتٍ أو أديبات. وفي مثلِ هذه الأماكن يبدو الرِّجالُ بين النِّساء كهَمَجيِّين بين قوم مُتمدِّنين. أمَّا في حيٍّ آخر، فإنَّك تجد الوضع معكوسًا. فكلا الجنسَين، في الواقع، "ارتادا المدرسة". ولكنْ مُنذُئذٍ تلقَّى الرِّجال تعليمًا أكثرَ جدِّيَّة، فصاروا أطبَّاءَ أو مُحامين أو رجالَ دين، أو مُهندسين معماريِّين أو ميكانيكيِّين، أو أدباءَ أو كُتَّابًا. وتكونُ النِّساءُ عندئذٍ كالأولاد بالنِّسبة إلى الراشدين. ففي كلا الحيَّين، لا تكون الصَّداقة الحقيقيَّة بين الجنسَين واردةً أبدًا. ولكنَّ من شأن هذا، رُغمَ كَونه نقصًا، أن يكونَ مُمكنَ الاحتمال، إن أقرَّ به الأفراد وقبلوه. إنَّما مشكلةُ هذا العصر الخصوصيَّةُ هي أنَّ الرِّجال والنِّساء في هذا الوضع، إذ تنتابُهم إشاعاتٌ وإلماعاتٌ عن جماعاتٍ أسعدَ حالًا حيث لا تُوجَدُ هُوَّةٌ من هذا النَّوع بين الجنسَين، وإذ تَفتنُهم فكرةُ المُساواة القائلة إنَّ ما هو مُتاحٌ لبعض الناس ينبغي أن يكونَ مُتاحًا للجميع (ومن ثَمَّ فهو مُمكنٌ لهم)،

يأبَون أن يخضعوا للواقع. وهكذا، فمن جهةٍ تبرز لدَينا الزَّوجة كما لو كانت "مُعلِّمةَ مدرسة"، امرأةً مُثقَّفةً تحاولُ دائمًا أن ترفع زوجها "إلى مُستواها الرَّاقي". فهي تجرُّه إلى الحَفلات والمُحاضرات، وتَودُّ أن يتعلَّمَ رقصة موريس (Morris-dancing) الشعبيَّة الإنكليزيَّة، وتدعو إلى المنزل قومًا "مُثقَّفين". ومن العَجَبِ أنَّ ذلك لا يُخلِّف إلَّا قدْرًا قليلًا من الضَّرَر. فالرَّجُل الكهل يملك طاقاتٍ كبيرةً من المُقاوَمة السَّلبيَّة، ومن الانغماس (لو أنَّها عَلِمَت بذلك!)؛ "لا بدَّ أن تكونَ للنِّساء أهواؤهنَّ أو هواياتُهنَّ". إنَّما يحدُثُ شيءٌ أشدُّ إيلامًا بكثير حين يكون الرِّجال مُتمدِّنين على خلاف النِّساء، وحين يكتفي جميعُ النِّساء، وكثيرون من الرجال أيضًا، برفض الاعتراف بهذا الواقع.

وحين يحدث ذلك، نحصل على مَظهرٍ لطيف ومُتأدِّب ومتعب وباعثٍ على الشَّفَقة. فإنَّ النِّساء "يقتضي" (كما يقول المحامُون) أن يكُنَّ عُضواتٍ كاملاتٍ في حلقة الرِّجال. وحقيقةُ كَونهنَّ الآن يُدَخِّنَّ ويَشرَبن مثلَ الرِّجال- مع أنَّها في ذاتها حقيقةٌ غير مُهمَّة- تبدو للسُّذَّج بُرهانًا على أنَّهنَّ بالفعل في حلقة الرِّجال. فلا يُسمَح بإقامة حفلاتٍ مقصورةٍ على الرِّجال وحدهم. وكلَّما اجتمعَ الرِّجال، وجب أن تأتيَ النساءُ أيضًا. وقد تعلَّمَ الرِّجالُ أن يعيشوا وسطَ الأفكار. فهم يعلمون ما تعنيه المناقَشة والبَرهَنة وضَرب الأمثلة. والمرأةُ التي تلقَّت فقط الدُّروسَ المدرسيَّة، وأهملَت بُعَيدَ زواجها أيَّة لمحة "ثقافيَّة" يُعطونَها إيَّاها، لا يمكنها بالحقيقة أن تدخل حلقةً كتلك، ما دامت مُطالَعتُها

تقتصر على المجلَّات النِّسائيَّة وحديثُها العامُّ يكادُ أن يكونَ سرديًّا بجُملته. في وسعها أن تكون، مَكانيًّا ومادِّيًّا، حاضرةً في الحلقة داخلَ الغُرفة ذاتها. ولكنْ ماذا يمكن أن يحصل؟ إذا كان الرِّجال مُتحجِّري القلوب، فإنَّها تقعدُ مُتضجِّرةً صامتةً في أثناء حديثٍ لا يعني لها شيئًا. وإن كانوا أحسن مَعشرًا، من غير ريب، يحاولون أن يُشرِكوها في الحديث. إنَّهم يشرحون لها الأمور، ويُحاوِلون أن يُرَقُّوا مُلاحظاتِها الخارجة عن الموضوع والمُضطرِبة إلى شيءٍ ذي معنى. ولكنْ سرعان ما تُخفِق المجهودات، وما كان يمكن أن يكون نقاشًا حقيقيًّا يُخفِّف عمدًا ويتبدَّد وسط القِيل والقال والنَّوادر والنِّكات، وذلك على سبيل التأدُّب. وهكذا فإنَّ حضور المرأة يُبدِّد الأمرَ عينَهُ الذي جيءَ بها لكي تُشارك فيه. وليس في وسعها البتَّة أن تدخلَ الحلقةَ فعلًا، لأنَّ هذه تكفُّ عن أن تكونَ هي إيَّاها عندما تدخُلها- مثلما لا يعود الأفقُ هو الأفقَ عندما تصل إليه. وبتَعلُّمِها أن تشرب وتُدخِّن، وربَّما أن تحكيَ القصص المبتذَلة غير المحتشمة، لا تكون- في سبيل هذه الغاية- قد اقتربَت من الرجال قيدَ أُنمُلةٍ أكثرَ ممَّا اقتربَت إليهم جدَّتُها. غير أنَّ جدَّتَها كانت أكثرَ سعادةً وواقعيَّةً منها بكَثير. فتلك كانت تُلازِم بيتها وتتحدَّث حديثَ نساءٍ حقيقيًّا مع زائراتها، ولعلَّها كانت تفعل ذلك بكثيرٍ من الحُسنِ والحِسّ، بل البلاغة أيضًا. وربَّما كانت هي نفسُها قادرةً على أن تفعلَ مثل ذلك. وقد تكون مُعادِلةً في الذَّكاء للرِّجال الذين أفسدتْ أُمسيَّتَهم، أو قد تكون أذكى منهم. غيرَ أنَّها ليست

مَعنيَّة حقًّا بالأمور ذاتها، ولا مُتقنةً للأساليب عينها. (ونحن جميعًا نبدو كالمُغفَّلين حين نتظاهر بالاهتمام بأمورٍ لا نُبالي بها أبدًا).

إنَّ وجودَ نساءٍ كهؤلاء، وهُنَّ يُحصَين بالآلاف، يُسهم في تعليل الاستخفاف بالصَّداقة في هذا العصر. فإنَّهنَّ غالبًا ما يُحرزن الانتصار الكلِّيّ. وهُنَّ يُبدِّدنَ رِفقةَ الرِّجال- وتاليًا صداقتَهم- بعضهم لبعض من أحياء برُمتِّها. ففي العالَم الوحيد الذي يَعرفنَه، يحلُّ محلَّ حوار العقول "مُزاحٌ" ثرثرةٍ لا ينتهي. وجميعُ الرِّجال الذين يَلتقينَهُم يتحدَّثون حديثَ نساء ما دامت النِّساءُ حاضرات.

غالبًا ما يكون الانتصار على الصداقة غيرَ مقصود. غير أنَّ ثَمَّةَ نوعًا من النِّساء أكثرَ مَيلًا إلى القتال يُخطِّط له عمدًا. فقد سمعتُ إحداهُنَّ تقول: "لا نَدَعَنَّ رجُلَين يقعدان معًا، وإلَّا فإنَّهما يُباشران التَّحدُّث بموضوع ما، ثُمَّ لا يلبث المَزحُ أن يتبدَّد". وما كان مُمكنًا أن يوضِحَ أيَّ أمرٍ مُرادَها بدقَّة أجلى ممَّا أوضحَته هي: لنَتحدَّثْ مهما كلَّف الأمر؛ فكلَّما أكثرنا من التَّحدُّث، كان أفضل؛ لتَتدفَّقْ شلَّالاتٌ لا تتوقَّفُ من الأصوات البشريّة؛ ولكنْ- رجاءً- بلا موضوع! فيجب ألَّا يكون الحديث بشيءٍ مخصوص.

هذه السيِّدة المَرِحة- هذه المُضجرة المُتأنِّقة "الفاتنة" التي لا تُطاق- كانت تطلبُ فقط تسليةَ كلِّ مساء، لجَعل الجلسة "تنقضي". ولكنَّ الحربَ المقصودة على الصداقة يمكن أن تُخاضَ على مُستوًى أعمق. فهنالك نساءٌ ينظرنَ إليها بعَين المَقتِ والحسد والخوف، باعتبارها

عدوَّة للحبِّ الغَراميّ، وأيضًا- ربَّما أكثرَ بَعدُ- للعاطفة. وفي يدِ امرأةٍ من هذا النوع مئةُ حِيلةٍ لتقويضِ صداقاتِ زوجها. فهي ستَتشاجر بنفسها مع أصدقائه، أو مع زوجاتهم، وهذا أفضلُ بَعد. وستُبدي مُلاحظاتٍ ساخرةً، وتُعرقِل، وتكذب. وهي لا تُدركُ أنَّ الزَّوجَ الذي تنجح في عزله عن أفراد جنسه لن يكون جديرًا تمامًا بأن يُقتَنى؛ إذ قد جرَّدَته من رُجولته. وسوف تغدو، هي نفسُها، مُستَحيةً به. ثُمَّ إنَّها لا تتذكَّر أين يكمنُ القسط من حياته حيثُ لا يمكنها أن تُراقِبَه. وستَنشأ صداقاتٌ جديدة، ولكنَّها في هذا الحين ستكون سِرِّيَّة. وذلك خيرٌ لها، بصرفِ النظر عن استحقاقها، إن لم تقُم أسرارٌ جديدةٌ أيضًا على وجه السُّرعة.

طبعًا، هؤلاء كلُّهنَّ نساءٌ ساذجات. فالنِّساء العاقلات اللواتي إذا شئنَ فمن شأنهنَّ حتمًا أن يكُنَّ قادراتٍ على تأهيل أنفُسهنَّ للخوض في ميدان التَّباحُث والأفكار، هُنَّ تمامًا أولئك اللواتي إذا كُنَّ غير مؤهَّلات لا يُحاولنَ أبدًا أن يَدخُلنَه ولا أن يُدمِّرنَه. إذ لَهُنَّ أمور أخرى يُعنَينَ بها. ففي حفلةٍ مُختلَطة، يَنتحينَ رُكنًا من القاعة ويتحدَّثن حديثَ نساءٍ بعضُهنَّ مع بعض. وهُنَّ لا يُردنَنا، لغايةٍ من هذا النوع، أكثرَ ممَّا نُريدهنَّ نحنُ على الإطلاق. فإنَّما الرَّعاع من كِلا الجنسَين هم الذين يُريدون أن يَظلُّوا مُلازِمين الجنسَ الآخرَ بلا انقطاع. ولكنَّ الأفضل هو أن تعيشَ وتتركَ غيرك يعيش. إنَّهنَّ يضحكن علَينا مقدارًا لا بأس به. وهذا هو تمامًا ما ينبغي أن يكون. فحيثُ يُتاحُ للجنسَين، إذ ليس لهما أنشطةٌ مشترَكة فعليَّة، أن يتلاقيا فقط في إطار الحبِّ العاطفيِّ

والحبِّ الغَراميّ- ولا يمكنها أن يكونا صديقَين- يكونُ أمرًا سليمًا أن يحوزَ كلاهما إحساسًا حيويًّا بظَرافة الآخر. وهذا بالحقيقة أمرٌ سليمٌ دائمًا. فلا أحدَ قطعًا قدَّر أفرادَ الجنس الآخر حقَّ قدرهم- كما لا يُقدِّر أحدٌ الأولادَ أو الحيوانات حقًّا- من غير أن يشعرَ أحيانًا بكَونهم مُضحكين. ذلك أنَّ كلا الجنسَين هكذا. فالبشريَّة تضمُّ معًا عناصرَ تراجيديَّة وأخرى كوميديَّة؛ ولكنَّ انقسامها إلى جنسَين يُمكِّن كلَيهما من أن يرى في الآخر النُّكتةَ التي غالبًا ما تَفوتُه بحدِّ ذاتها، والعُنصُرَ المُثير للشَّفقة أيضًا.

لقد نبَّهتُ إلى أنَّ هذا الفصل سيكونُ في معظمه رَدَّ اعتبار. وآمل أنَّ الصفحات السابقة أوضَحت السببَ الذي من أجله- في نظري على الأقلّ- لا يبدو أمرًا عجيبًا أنَّ أسلافَنا عدُّوا الصَّداقة شيئًا يكاد يرفعنا فوق المستوى البشريّ. فهذه المحبَّة، وهي خلوٌ من الغريزة، وخلوٌ من كُلِّ واجبٍ ما عدا تلك الواجبات التي تأخذُها المحبَّة على عاتقها بملء الحرِّيَّة، وخلوٌ إلى التَّمام تقريبًا من الغَيرة، وخلوٌ من الاحتياج لأن تدعوَ الحاجةُ إليها، هي حبٌّ رُوحانيّ. إنَّها محبَّةٌ من النَّوع الذي يمكن أن يتصوَّره المرءُ بين الملائكة. فهل وجدنا هنا محبَّةً طبيعيَّة هي المحبَّةُ بذاته؟

قبل أن نندفعَ إلى أيِّ استنتاج من هذا النَّوع، حَذارِ الغُموضَ في الكلمة روحانيٌّ (أو روحيّ). ففي كتاب العهد الجديد قرائنُ كلام كثيرةٌ فيها تَرِدُ الكلمة بمعنَى "مُتعلِّقٌ بالرُّوح (القُدُس)". وفي قرائنَ كهذه؛ الرُّوحانيُّ- تعريفًا- خيِّر. ولكنْ حينَ تُستخدَم الكلمة روحانيٌّ

كمُجرَّدِ نقيضٍ للكلمة جسدانيٌّ، أو غريزيّ، أو حيوانيّ، لا تكون الحال كذلك. فهنالك شرٌّ روحيٌّ كما أنَّ هنالك خيرًا روحيًّا أيضًا. وهنالك ملائكةٌ أشرار كما أنَّ هنالك ملائكةً أطهارًا. وأسوأُ خطايا البشر هي روحانيَّةٌ. فعلينا ألَّا نحسب أنَّنا إذ نجد الصداقة روحانيَّة نكون قد وجدناها بحدِّ ذاتها طاهرةً أو معصومةً أو مُنزَّهة. إنَّما يبقى أن ننظرَ بعين الاعتبار إلى ثلاث حقائقَ مُهمَّة.

أمَّا الحقيقة الأولى، وقد سبق أن ذُكِرت، فهي الارتياب الذي تميل السُّلطات إلى إضماره من جهة الصَّداقة الوثيقة بين أتباعها. وربَّما كان ارتيابًا غير مُبرَّر، أو كان له أساسٌ ما.

وأمَّا الحقيقة الثانية فهي موقف الأكثريَّة تُجاهَ جميع الحلقات التي تضمُّ أصدقاءَ حميمين. وكلُّ اسم يُطلقونه على حلقةٍ من هذا النوع ازدرائيٌّ تقريبًا. فهي في أحسن الأحوال "عُصبة"، إذا كانت سعيدة الحظّ؛ وإلَّا فهي "شلَّة"، أو "عصابة"، أو "مجلس مُصغَّر" أو "جمعيَّةُ إعجابٍ مُتبادَل". وأولئك الذين لا يعرفون في حياتهم الخاصَّة إلَّا العاطفة والرِّفقة والحبَّ الغَراميّ، يَشتَبهون بأنَّ الأصدقاء "مُتزمِّتون مُتكبِّرون يحسبون أنفسَهم أصلحَ من أن نُناسبَهم". ولا شكَّ أنَّ هذا صوتُ الحسد. غير أنَّ الحسدَ يأتي دائمًا بأصدق تُهمَة- أو بالتُّهمة القُربى إلى الحقيقة- بين ما يستطيعُ أن يصوغَه؛ ولذلك فهو يؤلِمُ أكثرَ. مِن هُنا وجبَ أن ننظرَ بَعدُ في هذه التُّهمة.

وأمَّا الحقيقة الثالثة فأنَّ علينا أن نُلاحِظَ أنَّ الصداقةَ نادرًا جدًّا

ما تكون هي الصُّورةَ التي بواسطتها تُعبِّر الكلمة المُقدَّسة عن المحبَّة بين الله والإنسان. إنَّها لا تُهمَل كلِّيًّا؛ ولكنَّ الكلمة المقدَّسة، أحيانًا أغلبَ بكثير، إذ تلتمس رمزًا إلى أسمى نوع من المحبَّة على الإطلاق، تضربُ صفحًا عن هذه العلاقة التي تكاد تبدو ملائكيَّة، وتغوص في أعماق ما هو أكثر طَبَعيَّةً وغَرَزيَّة. فالعاطفة تُتَّخذ صُورةً حين يُمثَّلُ الله بوَصفه أبانا؛ أمَّا الحُبُّ الغَراميُّ فحين يُمثَّلُ السيِّدُ المسيح بوَصفه عريسَ الكنيسة.

لنبدأ بارتيابات أولئك الذين يشغلون مناصبَ سُلطة. فأنا أعتقد أنَّ لديهم أساسًا، وأنَّ النظر في هذا الأساس يُبرز إلى النُّور أمرًا مهمًّا. لقد قُلتُ إنَّ الصداقة تُولَد لحظةَ يقول شخصٌ لآخر: "ماذا! أنت أيضًا؟ كنتُ أحسب أنْ لا أحدَ سواي..." . ولكنَّ التذوُّقَ أو الرؤيةَ أو وجهةَ النظر المُشتركةَ التي تُكتَشفُ على هذا النَّحو، لا تكون بالضَّرورة حسنةً كلَّ حين. فمن لحظة كهذه يمكن كثيرًا أن ينشأ الاهتمامُ بالفَنِّ أو الفلسفة، أو الارتقاءُ في الدِّين أو الأخلاقيَّات؛ ولكنْ لماذا ليس أيضًا التعذيب أو الوحشيَّة أو التضحية بالبَشَر؟ يقينًا أنَّ مُعظَمنا اختبروا في أيَّام الشباب ما تتميَّز به لحظاتٌ كهذه من طبيعة مُتضاربة. لقد خالَجَنا شعورٌ رائع لمَّا التقَينا أوَّلَ مرَّة شخصًا مَعنيًّا بقصيدتنا المُفضَّلة. فالأمر الذي كنَّا نستحي به بعضَ الشيء، أقرَرنا به آنذاك بطيب خاطر. ولكنَّ الأمر لم يكن قطُّ أقلَّ إبهاجًا لمَّا التقَينا أوَّلَ مرَّة شخصًا شاركناه في شرٍّ سرِّيّ. فهذا أيضًا صار مَلموسًا وصريحًا أكثر بكثير؛ وقد بِتنا لا

نستحي به أيضًا. حتَّى إنَّنا الآن، في أيِّ عُمرٍ كنَّا، نعرف جميعًا الفتنةَ الخَطِرة المُتعلِّقة بضغينة أو مَظلَمة مشتركة. (يصعب ألَّا تُحَيِّيَ تحيَّةَ صديقٍ في الجامعة الشخصَ الآخر الوحيد الذي يُدرِكُ فعلًا أخطاءَ مساعد رئيس الجامعة).

حين أكون وحدي بين رُفَقاءَ غيرِ مُتعاطفين، أتمسَّك متخوِّفًا ببعض الآراء والمعايير، خَجِلًا بعضَ الشيء بأن أجاهرَ بها، وشاكًّا بعضَ الشيءِ في كَونها صحيحةً على كلِّ حال. إنَّما ضَعني من جديد بين أصدقائي، وفي غضون نصف ساعة- بل في عشر دقائق- تعودُ تلك الآراء والمعايير عينُها غيرَ قابلة للجدل مُجدَّدًا. فإنَّ رأيَ هذه الحلقة الصغيرة، ما دمتُ فيها، يَرجَحُ على رأيِ ألفِ غريبٍ عنها؛ وإذ تتقوَّى الصَّداقة، فإنَّها تؤدِّي هذا العمل حتَّى حينَ يكون أصدقائي بعيدين جدًّا. ذلك أنَّنا كلَّنا نرغب في أن يحكم علينا أندادُنا، أولئك الأشخاصُ الذين هم "حسب قلبنا". فهم وحدَهم يعرفون فكرنا حقًّا، وهم وحدهم يحكمون عليه بمعاييرَ نعترفُ بها تمامًا. ومدحُهم هو المدح الذي نتوق إليه حقًّا، كما أنَّ لَومهم هو اللَّوم الذي نخشاه حقًّا. وقد بقِيَت الجيوب الصغيرة التي ضمَّت المسيحيِّين الأوَّلين حيَّة لأنَّ هؤلاء عُنُوا عنايةً حصريَّةً بمحبَّة "الإخوة"، وصمُّوا آذانهم عن رأي المجتمع الوثنيِّ حوالَيهم. ولكنَّ حلقةً تضمُّ مُجرمين، أو مَهووسين، أو مُنحرفين، تبقى حيَّة بالطريقة عينها تمامًا: بصمِّ الآذان عن العالم الخارجيّ، بإهمال آرائه باعتبارها ثرثرةَ "غُرَباءَ لا يفهمون" و"تقليديِّين" و"بورجوازيِّين"

و"تابعين للكنيسة الرسميَّة"، ومُتزمِّتين ومُحتشمين ودجَّالين.

ولذلك يسهل أن نرى لماذا يتجهَّم وجه السُّلطة تُجاه الصَّداقة. فكلُّ صداقة حقيقيَّة هي نوعٌ من الانعزال، بل تمرُّدٌ أيضًا. وقد تكون تمرُّدًا من قِبَل مُفكِّرين جادِّين على هُراء مقبول، أو من قِبَل أنصار مُوضَة ما على ذَوق حسن مقبول؛ من قِبَل فنَّانينَ أصيلين على قُبح شائع، أو مُشعوذين على ذَوق راقٍ؛ من قِبَل أناسٍ صالحين على فساد المجتَمع، أو أناسٍ فاسدين على صلاحه. فأيًّا كانت الصَّداقة من هذه الكلمات، فلن تلقى ترحيبًا لدى عِليَة القوم. وفي كُلِّ حلقة أصدقاءَ "رأيٌ عامٌّ" قطاعيٌّ يُحصِّن أعضاءها ضدَّ الرأي العامِّ المقبول في المجتمع عمومًا. ولذلك تُعَدُّ كلُّ حلقة جَيبًا من جيوب المقاومة المُحتَملة. فالأشخاص الذين لهم أصدقاءُ حقيقيُّون تقلُّ سهولةُ ترويضِهم أو "التمكُّنِ منهم"؛ وهم أصعبُ من أن تُصلحَهم السُّلطاتُ الصالحة أو تُفسدَهم السُّلطاتُ الفاسدة. ومن ثَمَّ، فإذا ما أحرز حُكَّامُنا- إمَّا بالقُوَّة وإمَّا بالدِّعاية حول "المعيَّة" وإمَّا بجعل العُزلة ووقت الفراغ مُستحيلَين من غيرِ تدخُّل مباشر- نجاحًا في إنشاءِ عالَم يكون الجميع فيه رُفقاء ولا يوجد بينهم أيُّ أصدقاء، فإنَّهم يكونون قد لاشَوا أخطارًا مُحقَّقة، كما يكونون أيضًا قد انتزعوا منَّا ما يكاد أن يكون أحصنَ مَعقِلٍ من العبوديَّة الشاملة.

غير أنَّ الأخطار حقيقيَّةٌ تمامًا. فالصَّداقة (كما رأى القُدامى) يمكن أن تكون مدرسةً للفضيلة؛ ولكنْ أيضًا مدرسةً للرَّذيلة (كما لم يَرَوا). إنَّها تشتمل على تعارُض. فهي تجعل الصالحين أصلح، والأردياء أردأ.

ومن شأن تفصيل هذه النُّقطة أن يكونَ مَضيَعةً للوقت. فما يَعنينا ليس الإسهاب في رداءة الصداقات الرديئة، بل التنبُّهُ إلى الخطر المُحتمل في الصداقات الجيِّدة. ذلك أنَّ هذه المحبَّة، شأنُها شأنُ سائر المحبَّات الطبيعيَّة، مُعرَّضةٌ تعرُّضًا فِطريًّا لمرض مخصوص.

لا بدَّ أن يتَّضح أنَّ عنصرَ الانعزال- اللَّامُبالاةَ بأصوات العالم الخارجيِّ أو صمَّ الآذان عنها (على الأقلِّ في بعض الشؤون)- مُشترَكٌ في جميع الصَّداقات، سواءٌ أجيِّدةً كانت أم رديئة، أم حميدةً فحسْب. حتَّى لو لم تكن أرضيَّةُ الصداقةِ المشتركةُ شيئًا يفوق جَمْعَ الطَّوابع خُطورةً، فإنَّ الحلقة تتجاهلُ- عن حقٍّ وحتميَّة- آراءَ الملايين الذين يعدُّونها شُغلًا باطلًا، والآلاف الذين تَسلَّوا بها مجرَّدَ تسلية. وقد تجاهلَ مؤسِّسو الأرصاد الجويَّة- عن حقٍّ وحتميَّة- آراء الملايين الذين ظلُّوا ينسبون العواصف إلى السِّحر. وليس في هذا إهانة. فكما أعلمُ أنَّه لا بدَّ أن أكونَ غريبًا عن حلقة تضمُّ لاعبي غولف، أو مُشتغلين بالرياضيَّات، أو هُواةَ سيَّارات؛ كذلك أقول إنَّ لي حقًّا مُساويًا في اعتبارهم غُرباءَ بالنسبة إليّ. فالأشخاص الذين يُضجِرون بعضُهم بعضًا ينبغي أن يتلاقَوا نادرًا؛ أمَّا الذين ينفعون بعضُهم بعضًا فيتَلاقَون كثيرًا.

إنَّما يتمثَّل الخطر في كَون هذه اللَّامُبالاة أو هذا الصَّمَم الجُزئيَّين تُجاه الرأي الخارجيّ، وإن كانا مُسوَّغَين وضروريَّين، قد يؤدِّيان إلى لامُبالاة أو صَمَم شاملَين. وأجلى الأمثلة على ذلك يمكن أن تُرى لا في حلقة أصدِقاء، بل في طبقةٍ ثيوقراطيَّة أو أرستوقراطيَّة. فنحن نعرف ماذا كان

فكرُ الكهنة في أيّام ربّنا بشأن عامّة الشّعب. وكذلك الفُرسانُ في "أخبار فرُويسارْت" (Froissart Chronicles) لم يكن لديهم شفقة ولا رحمة تُجاه "الغُرباء" أو المُزارعين أو الفلّاحين. ولكنَّ هذه اللّامبالاة المُحزنة تضافرَت معها مَزيّةٌ حسنة تضافُرًا متينًا جدًّا. فقد كان لهم بالحقيقة، في ما بينهم، نموذجٌ رفيعٌ جدًّا للبَسالة والكَرَم والكياسة والشَّرَف. وكان من شأن الفلّاح المُتوجِّس المغلول اليد أن يحسبَ ذلك النّموذجَ سُخفًا محضًا. وإذ حافظَ الفُرسان على ذلك النّموذج، وقد كان ذلك من واجبهم، اضطُرُّوا لأنْ يكونوا لامُبالينَ تمامًا بآراء الفلّاح. وهم لم يُعيروا ما اعتَقدَه أدنى الْتفات حتّى. ولو فعلوا ذلك، لكانَ نموذجُنا الخاصُّ اليومَ أكثرَ حقارةً وخشونةً إزاءَ ذلك. غير أنَّ عادةَ "عدم إعارة الالْتفات" تغدو متأصّلةً لدى طبقة ما. فإهمالُ صوت الفلّاح حيث وجبَ حقًّا أن يُهمَل، يُسهِّلُ إهمالَ صوته حين يصرخُ مُطالبًا بالإنصاف أو الرَّحمة. وهكذا، فإنَّ الصَّمَمَ الجُزئيَّ الذي هو شريفٌ وضروريّ، يُشجِّع على الصَّمَم الكُلّيّ الذي هو مُتعَجرفٌ ولاإنسانيّ.

لا تستطيعُ حلقةُ أصدقاءَ طبعًا أن تَظلمَ العالَمَ الخارجيَّ كما تستطيع أن تَظلمَه طبقةٌ اجتماعيَّة نافذة. غيرَ أنَّها مُعرَّضة، على مقياسها الخاصّ، للخطر عَينه. فقد تأتي إلى نقطة تُعامِلُ فيها أناسًا مُعامَلةً بمعنًى عموميٍّ (وانتقاصيّ) على أنَّهم غرباء، بعد أن كانوا غُرَباء يومًا بشكلٍ مُوافقٍ وسليم تمامًا لأجل غاية معيَّنة. وهكذا، على غِرار فئة أرستوقراطيَّة، يمكن أن تُوجِدَ حوالَيها فراغًا لا يعبره أيُّ صوت. والحركة الأدبيَّة أو الفنّيَّة

التي بدأت، ربَّما عن حقّ، بإهمال أفكار الإنسان البسيط بشأن الأدب أو الفنّ، قد تغدو مُهمِلةً على السَّواء لفكرته القائلة إنَّ عليهم أن يدفعوا فواتيرَهم ويُقلّموا أظافيرَهم ويتصرَّفوا تصرُّفًا حضاريًّا. ومهما كانت عيوبُ الحلقة- ولا حلقةَ تخلو من العيب- فإنَّها بذلك تصير مُستعصيةً على الإبراء. ولكن ليس هذا كلَّ ما في الأمر. فإنَّ الصَّمَمَ الجزئيَّ والذي يمكن الدِّفاعُ عنه كان مؤسَّسًا على نوع من التَّفوُّق- حتّى لو كان مجرَّد معرفة مُميَّزة بشأن الطوابع. وعندئذٍ يُلصِقُ الشُّعورُ بالتفوُّق ذاتَه بالصَّمَم الشامل. فإنَّ الجماعة تزدري، كما تتجاهل أيضًا، أولئك الذين هُم خارجَها. وستكون في الواقع قد حوَّلت نفسها إلى شيءٍ شبيهٍ جدًّا بطَبَقة أو فئة. فالشِّلَّة هي أرستوقراطيَّة عيَّنتْ نفسَها بنفسها.

قلتُ في ما تقدَّم إنَّه في صداقة جيِّدة غالبًا ما يشعر كلُّ عُضوٍ بالتَّواضُع تُجاهَ الباقين. فهو يرى أنَّهم رائعون، ويحسب نفسه سعيدًا بأن يكونَ في وسطهم. ولكنَّ ما نتكلَّم بشأنه بصيغة الغائب (هُم) هو أيضًا بصيغة المتكلِّم (نحن) من وجهة نظر أخرى. ويا له من أمرٍ مؤسف! فهكذا يكون الانتقال من التواضُع الفرديِّ إلى الكبرياء الجَماعيَّة سهلًا جدًّا.

ليس في فكري هنا ما ينبغي أن ندعوَه التكبُّر الاجتماعيَّ أو الأُبَّهيّ: الابتهاجَ بأنْ نَعرفَ قَومًا مُميَّزين، وبأنْ نُعرَف أنَّنا نعرفهم. فذلك أمرٌ مختلف تمامًا. ذلك أنَّ ذا الأُبَّهة يرغبُ في أن يرتبط بجماعة ما لأنَّها تُعدُّ نُخبةً أصلًا؛ أمَّا الأصدقاء فَهُم مُعرَّضون لخطر الانتقال إلى حسبان أنفُسهم نُخبةً لأنَّهم مُترابطون أصلًا. ونحن نطلب أشخاصًا

حسب قلوبنا لأجل ذواتهم، ومن ثَمَّ يُفاجئُنا- إمَّا مُنزعجين وإمَّا مُبتهجين- ذلك الشُّعورُ بأنَّنا قد صرنا حلقةً أرستوقراطيَّة. ليس أنَّنا ندعوها هكذا. فكلُّ قارىء قد عرف الصَّداقة سيَشعر على وجه الاحتمال بمَيلٍ لأنْ يُنكرَ بشيءٍ من الحرارة أنَّ حلقتَه كانت مُذنبةً بمثل هذه السَّخافة يومًا. وأنا أشعرُ شعورًا كهذا. ولكنْ في مسائلَ من هذا القَبيل، يبقى الأفضلُ ألَّا نبدأ بأنفُسنا. فكيفَما كان الوضع عنَدنا، أعتقد أنَّنا جميعًا قد ميَّزنا مَيلًا من هذا النَّوع في تلك الحلقات التي بالنسبة إليها نشغل نحنُ موقعَ الغُرَباء.

كنتُ ذاتَ مرَّة في أحد المؤتمرات، حيث بدأ رَجُلَا دينٍ- كان واضحًا أنَّهما صديقان ودودان- يتحدَّثان بشأن "الطاقات غير المخلوقة" في ما عدا الله. وسألتُهما كيف يمكن أن تُوجَد أشياءُ غير مخلوقة باستثناء الله، إن كان قانون الإيمان على حقٍّ في قوله عنه إنَّه "خالق كلِّ شيء، ما يُرى وما لا يُرى". فكان جوابُهما أنْ نظَرَا أحدُهما إلى الآخر وضَحِكَا. لم يكن لديَّ اعتراضٌ على ضحكهما، ولكنِّي أردتُ أيضًا جوابًا بالكلمات. وما كانت ضحكتُهما قطُّ ضحكةَ سُخريةٍ أو استهجان، بل عبَّرت إلى حدٍّ بعيد عمَّا يُعبِّر عنه بعضُهم إذ يقولون: "أليسَ خفيفَ الظِّلِّ؟" وقد كانت كضحكة راشدينَ مَرِحين عندما يطرح "ولدٌ فظيع" سؤالًا من النَّوع الذي لا يُسأل أبدًا. إنَّك لا تكاد تستطيع أن تتصوَّرَ كم فَعَلَا ذلك بمُسالَمة، ولا كم عبَّرذلك بوضوح عن كَونهما يَعيان تمامًا أنَّهما يَعيشانِ عادةً على مُستوًى أرفعَ من مُستوى

سائرِنا، وأنَّهما يبرزان بيننا بروزَ الفُرسان بين الفلَّاحين، أو الراشدين بين الأولاد. ويُحتمَل جدًّا أنَّهما كانا يملكان جوابًا عن سؤالي، وقد عَلمَا أنِّي أغبى من أن أستوعبَه. ولو قالا قَولًا كهذا: "أخشى أن يستغرقُ التفسير وقتًا مُتطاولًا جدًّا"، ما نَسبْتُ إليهما كبرياء الصَّداقة. فالنَّظرة والضَّحكة هما بيتُ القصيد: التَّجسيدُ المسموع والمنظور لتَفوُّق مُشترَك مُسلَّم به وغير مكتوم. وبالحقيقة أنَّ المُسالَمةَ شبهَ التامَّة وغيابَ أيَّة رغبة ملموسة في الجَرْح أو الشَّماتة (إذْ كانا شابَّين لطيفَين جدًّا) أكَّدا الموقف "الأُولمبيّ". فقد كان هَهُنا شعورٌ بالتفوُّق واثقٌ جدًّا بحيثُ تأتَّى له أن يكون مُتسامحًا ومهذَّبًا وغيرَ توكيديّ.

إنَّ هذا الشُّعور بالتفوُّق المشترك ليس أُولمبيًّا دائمًا، أي هادئًا ومتسامحًا. إذ قد يكون "تيتانيًّا"[٤]: مُعاندًا، مُقاتلًا، مُنغِّصًا. ففي مرَّة أخرى، لمَّا كنتُ أخاطبُ مجموعةً من الطلبة وأعقبَ محاضرتي بعضُ النِّقاش (على نحوٍ موافقٍ جدًّا)، جادلني شابٌّ توتَّرَتْ قَسَماتُ وجهه بحيثُ بدا كواحدٍ من القوارض، حتَّى اضطُررتُ لأنْ أقول له: "انتبه يا سيِّد! أنت اتَّهمتَني بالكذب فعلًا مرَّتَين في آخر خمس دقائق. فإن كنت لا تستطيع أن تُناقشَ مسألةً نقديَّة من دون توتُّر كهذا، فلا بدَّ

٤ "التيتانيُّون" (Titans) و"الأوليمبيُّون" (Olympians) هما مصطلحان من الميثولوجيَّة اليونانيَّة يُعبِّران عن جيلَين مختلفَين من الآلهة الإغريقيَّة. وقد تميَّز التيتانيُّون- وهم الجيل الأوَّل- بسَوْراتِ غضبٍ هائجة، لهذا وصف الكاتب أحد نوعَي كبرياء الصداقة بالعناد والرغبة في المقاتلة. أمَّا الجيل الثاني من الآلهة فكانوا الأولمبيِّين، وقد تميَّزوا بالتَّسامُح والهدوء إضافة إلى القوَّة، وهو الشكل الثاني من كبرياء الصداقة كما وصفه الكاتب (الناشر).

أن أغادر". وقد توقّعتُ أن يفعلَ واحدًا من أمرَين: إمّا أن ينفذَ صبرُه فيُضاعف إهاناته، وإمّا أن يخجل فيعتذر. إنّما الأمرُ المُروِّع أنّه لم يفعل أيًّا من هذين. لم يُضَف إلى "تجهُّم" ملامحه المعهود أيُّ اضطرابٍ جديد، ولم يُكرِّر تهمة الكذب الصريحة. ولكنْ باستثناء ذلك مضى يُجادل كالسابق تمامًا. لَكأنَّ المرءَ اصطدم بستارٍ حديديّ. فقد كان الشابُّ مستعدًّا لصدِّ خطرِ أيّة علاقة شخصيَّة صِرف– سواءٌ أوديَّةً كانت أم عدائيَّة– بشخص نظيري. ووراءَ هذا، على نحو شبه مؤكَّد، تكمنُ حلقةٌ من النوع "التيتانيّ": فرسانٌ هيكليُّون نصَّبوا أنفُسَهم بأنفُسِهم، سلاحهم دائمًا مستعدٌّ للدِّفاع عن موقع حَرجٍ مُقدَّس. فنحن– هُم في نظرهم– غير موجودين أبدًا بصفتنا أشخاصًا. إنّنا عيِّناتٌ لا بدَّ من إتلافها– عيِّناتٌ من مختلف الفئات العُمريَّة أو النماذج أو المُناخات الفكريَّة أو المصالح. وإذ يُجرَّدون من قطعةِ سلاح، يتناولون أخرى ببرودة أعصاب. إنّهم لا يجتمعون بنا أبدًا، بالمعنى الإنسانيِّ المألوف؛ فهم إنّما يقومون بمهمَّة عمل– يرشُّونَ مادَّةً مُبيدةً للحشرات (وقد سمعتُ أحدَهم يستخدم هذه الصُّورة).

إنَّ صاحبَيَّ رجُلَي الدِّين اللَّطيفَين وصاحبي "القارِضَ" الذي لم يُدانهما لُطفًا كانوا على مُستوًى فكريٍّ عالٍ. ومثلَهم كانت تلك العصبةُ الشهيرة التي في الأيّام الإدواردِيَّة بلغَت أقصى الحماقة إذ سمَّى أعضاؤها أنفُسَهم "النُّفوس" (The Souls). ولكنَّ شعورَ التفوُّقِ المشترك عينَه يمكن أن يَستحوذَ على مجموعةٍ من الأصدقاء العاديِّين

إلى حدٍّ أبعدَ بكثير. عندئذٍ يُزدهَى به بطريقة أكثرَ خُشونة. وقد رأينا كلُّنا هذا الازدهاءَ جاريًا من قِبَل حفنةٍ من "مُدَّعي العلم من الطلبة القدامى" في المدرسة إذ يتحدَّثون في حضور تلميذ جديد، أو جنديَّين نظاميَّين في الجيش إذ يتحدَّثان قُدَّام مُتطوِّع "وقتيّ"؛ وأحيانًا من قبل أصدقاءَ صاخبين وسُوقيِّين لتَخليف انطباعٍ لدى الغُرباءِ كليًّا في حانة أو في عربةِ قطار. وأشخاصٌ كهؤلاء يتحدَّثون بكلِّ حميميَّةٍ وحصريَّة حتَّى يسمعَهم الآخرون استراقًا. فكلُّ مَن ليس في الحلقة يجب أن يُبيَّن له أنَّه ليس فيها. وفي الواقع أنَّ "مدار" الصَّداقة تقريبًا ربّما لا يكون شيئًا سوى حقيقةِ كَونها تستثني الآخرين. وعند التكلُّم أمامَ غريب، يبتهجُ كلُّ عضوٍ في الحَلْقة بأن يذكرَ الآخرين بأسمائهم الأولى أو بألقابهم التحبُّبيَّة؛ ليس معَ أنَّ– بل لأنَّ– الغريبَ لن يعرفَ الشخصَ المقصود. حتَّى إنَّ رجُلًا عرفتُهُ في ما مضى كان أدهى بَعد. فهو إنّما كان يُشير إلى أصدقائه كما لو كُنَّا كلُّنا نعرفُ مَن هم، أو ينبغي لنا أن نعرفَ ذاك يقينًا. إذ كان يستهلُّ كلامه قائلًا: "كما قال لي ريتشارد بَتُن (Ricahrd Button) مرَّة..." وقد كُنَّا كلُّنا أحداثًا، فلم نجرؤ قطُّ على الاعتراف بأنَّنا لم نسمع بريتشارد بَتُن. فإنَّ الأمرَ بدا بديهيًّا جدًّا بحيثُ وجبَ أن يكونَ الاسمُ مألوفًا عند أيِّ شخص، كائنًا مَن كان؛ "أن لا نعرفه أمرٌ يبرهن أنّنا نَكِرات". ولم نُدرك إلَّا بعدَ مدَّة طويلة أنَّه ما من شخصٍ آخرَ أيضًا قد سمع به! (في الواقع أنَّ لديَّ الآن ارتيابًا في أنَّ بعضًا من أمثال ريتشارد بَتُن وحزقيًّا كرومَلز (Hezekiah

Cromwells) وإليانور فورسايثس (Eleanor Forsyths) كان لهم أيُّ وجود فعليٍّ أكثرَ ممَّا كان للسيِّدة هَرِس (Mrs. Harris). ولكنَّنا على مدى سنةٍ أو نحوها كنَّا فريسةً للتهويل).

وهكذا نستطيع أن نستبين كبرياءَ الصداقة- سواءٌ أأُولميَّةً كانت أم تيتانيَّةً أم مُبتَذلةً فحسْب- في حَلَقات أصدقاءَ كثيرة. ويكونُ من التهوُّر أن نفترضَ أنَّ حَلْقَتنا ناجيةٌ من خطرها؛ لأنَّ من شأننا هنا بالطبْع أن نتباطأ أكثرَ الكلِّ عن إدراكها. ولا يكادُ خطرٌ مثل هذه الكبرياء في الواقع يُفصَلُ عن الحُبِّ الإخوانيّ. فإنَّ الصداقة لا بُدَّ أن تَستثنيَ وتُقصي. ومن فعلِ الإقصاء البريء والضروريِّ إلى روح الانعزال ثَمَّة خُطوةٌ سهلة؛ ومن ثَمَّ يخطو المرء إلى متعة الأُبَّهة المُخزية. وإذا ما سُمح بذلك مرَّةً، فسرعانَ ما يغدو المُنزلَقُ الهابطُ أشدَّ انحدارًا. ويمكن ألَّا نصيرَ جبابرةً أو أوغادًا سافرين؛ بل ربَّما صرنا "نفوسًا" (كأولئك الإدواردِيِّين)، وهذا- من بعض النواحي- أسوأ. ثُمَّ إنَّ الرؤيةَ المشترَكةَ التي جمَعتنا أوَّلَ الأمر قد تَخْبو إلى أبعدِ حدّ. فسنَكونُ شلَّةً تُوجَد من أجل كَونها شلَّة؛ حلقةً أرستوقراطيَّة صغيرة اختارتْ ذاتَها بذاتها (ولذلك هي سخيفة)، ترتع في ضياءِ قمرِ استحساننا الذاتيِّ الجَماعيّ.

أحيانًا، تبدأ حَلْقةٌ على هذه الحالة بالاشتغال في عالم الممارسة. وإذ تُوسِّع ذاتَها بحكمةٍ لقبول أعضاءٍ جُدُد، تكون حصَّتُهم في المصلحة المشتركة الأصليَّة تافهة، ولكنْ يسود حيالَهم شعورٌ بأنَّهم "أناسٌ مُحترَمون" (بمعنًى عامٍّ غيرِ مُحَدَّد) تصيرُ ذات نفوذٍ في البَلَد. ويغدو

الانضمام إلى عُضويَّتها ذا أهمِّيَّة سياسيَّة مُعيَّنة، وإن كانَت السياسة المَعنيَّة لا تعدو كَونها سياسةَ فوج أو كلِّيَّة أو مُحيط كاتدرائيَّة. آنذاك يصير شُغلَها الشاغلَ استغلالُ الجمعيَّات أو المجالس، والاستيلاءُ على الوظائف (للأُناس المُحترَمين)، وتعزيزُ الجبهة المُتَّحدة ضدَّ المُعوزين. فإذا بأولئك الذين كانوا يجتمعون قَبلًا ليتحدَّثوا بشؤون الله أو الشِّعر باتوا يجتمعون الآن ليتحدَّثوا بشأن المُحاضرات أو سُبُل الاسترْزاق. ولاحظْ عدالةَ مصيرهم. فقد قال الله لآدم: "لأنَّك تُراب وإلى تُرابٍ تعود". وفي حلقةٍ تضاءلتْ هكذا حتَّى صارتْ مُلتقَى مُحتالين، تكون الصداقة قد انكفأت إلى مُجرَّد الرِّفقة التي كانت مَنبتَها. فهمُ الآن كيانٌ من نوعِ حَشدِ الصيَّادين البدائيِّين عينه. وبالحقيقة أنَّهم صيَّادون تمامًا؛ إنَّما ليس من نوعِ الصيَّادين الذين أحترِمُهم أقصى احترام.

إنَّ عامَّة الناس الذين لا يكونون البتَّةَ مُصيبين تمامًا، ليسوا البتَّة مُخطئين تمامًا. فهُم على خطإٍ مُستَعصٍ في اعتقادهم أنَّ كلَّ زُمرة من الأصدقاء قد برزتْ إلى الوجود من أجل مسرَّات الغُرور والتفوُّق. وأنا مُتيقِّنٌ أيضًا بأنَّهم قد أخطأوا في اعتقادهم أنَّ كلَّ صداقة تنغمسُ فعلًا في هذه المسرَّات. غير أنَّهم على حقٍّ كما يبدو في تشخيصهم للكبرياء باعتبارها الخطرَ الذي تتعرَّض له الصداقاتُ بصورة طبيعيَّة. ولأنَّ هذه هي أكثرُ المَحبَّات روحانيَّةً، فإنَّ الخطر الذي يَحيقُ بها هو خطرٌ روحيٌّ أيضًا. حتَّى إنَّ الصداقة- إذا شئتَ- ملائكيَّةٌ أيضًا. ولكنْ ينبغي للإنسان أن يتحصَّن بالتَّواضع

تحصُّنًا ثُلاثيًّا إن كان له أن يأكلَ من خبز الملائكة بغير مُخاطَرة.

ولعلَّ لنا الآن أن نُجازِفَ بتخمين السَّبب الذي لأجله من النادر جدًّا يستخدم الكتابُ المقدَّس الصَّداقةَ صورةً للمحبَّة الأسمى. فإنَّها أصلًا، في الواقع الفعليّ، أكثرُ روحانيَّةً من أن تكونَ رمزًا جيِّدًا للأمور الروحيَّة. والأعلى لا يقوم من غير الأدنى. ففي وُسع الله، على نحوٍ سليم وآمن، أن يُمثِّلَ لنا نفسَه أبًا أو زوجًا، لأنَّ مَن كان مجنونًا فقط قد يتصوَّر أنَّ الله هو والِدُنا البيولوجيّ، أو أنَّ زواجَ السيِّد المسيح بالكنيسة يعدو كَونه رمزيًّا. ولكنْ إذا استُخدِمَت الصداقة لهذه الغاية فقد نحسبُ بالغلط أنَّ الرَّمز هو المرموزُ إليه. ومن شأن الخطر الكامن فيها أن يتفاقم. ثُمَّ إنَّنا قد نتشجَّعَ بَعدُ حتَّى نحسبَ مخطئينَ أنَّ قُربَ المشابَهة إلى الحياة السماويَّة ذاك الذي تُبديه الصَّداقةُ حقًّا هو قُربُ اقتراب فعلًا.

ومن ثَمَّ فإنَّ الصداقة، شأنُها شأنُ سائر المحبَّات الطبيعيَّة، غيرُ قادرة على أن تُنقذ ذاتها. وفي الواقع أنَّها بسبب كَونها روحانيَّةً، ولذلك تُواجِهُ عدوًّا أدهى، يجب عليها- بإخلاصٍ قلبيٍّ تفوقُ فيه المحبَّاتِ الأخرى بَعدُ- أن تَسنجِدَ بالحماية الإلهيَّة إن كانت ترجو أن تظلَّ عذبة. فتأمَّلْ ما أضيقَ سبيلَها الصَّحيح. إذ يجب ألَّا تصيرَ ما يدعوه عامَّةُ الناس "جمعيَّة إعجاب مُتبادَل"؛ ولكنْ إنْ لم تكُن حافلةً بالإعجاب المُتبادَل، بالمحبَّة التقديريَّة، فليست صداقةً على الإطلاق. فما لَم تكُن حياتُنا سقيمةً وهزيلة على نحوٍ يدعو إلى الرِّثاء، يجب أن تكون حالتُنا في صداقاتنا ما آلت إليه حالةُ كريستيانا (Christiana) وصاحباتها في

رواية "سياحةُ المسيحيّ" (The Pilgrim's Progress):

بَدَت كلٌّ منهُنَّ مصدرَ ذُعرٍ للأُخريات، إذ لم تستطعْ كلُّ واحدة أن ترى على ذاتها ذلك المجدَ الذي استطعنَ أن يَرَينَه بعضُهنَّ في بعض. ولذلك بدأنَ الآن يُقدِّرنَ بعضُهنَّ بعضًا أفضلَ من أنفُسهنَّ. فقالت إحداهُنَّ: أنتِ أجملُ منِّي؛ وقالت أخرى: أنتِ أوسَمُ منِّي.

وثَمَّة في خاتمة المطاف طريقةٌ واحدةٌ فقط بها نستطيع أن نتذوَّق هذا الاختبار اللَّامع بأمان. وقد أشارَ إليها بَنيان (Bunyan) في الفقرة عينها. ففي "بيت الشارح" بعد أن استحمَّت النِّساءُ وخُتمن وأُلبسنَ "ثيابًا بيضًا"، رأينَ بعضُهنَّ بعضًا في هذا الضَّوء. وإن تذكَّرنا نحنُ الاستحمامَ والختمَ والإلباس، نكون في أمان. وكلَّما كانت أرضيَّةُ الصَّداقة المُشتركةُ أعلى، باتَ التذكُّر أكثرَ ضَرورة. وفي صداقة دينيَّة على نحوٍ جليّ، قبلَ كلِّ شيء، أن ننسَى ذلك هو أمرٌ مُبدِّدٌ حتمًا.

فإنَّه عندئذ سيبدو لنا أنَّنا- نحنُ الأربعةَ أو الخمسة- قد اخترنا بعضُنا بعضًا، حيث تَعدُّ بَصيرةُ كلٍّ منَّا جمالَ الباقينَ الجوهريَّ- ندًّا لندّ- شهامةً اختياريَّة؛ أنَّنا قد سَمَونا على باقي البشر بقوانا الفطريَّة. أمَّا المحبَّاتُ الأخرى فلا تُغري بهذه الخدعة عينها. فمن الواضح أنَّ الحبَّ العاطفيَّ يتطلَّب صلات قُربى، أو على الأقلِّ تَقارُبات، لا تعتمد البتَّة على اختيارنا الشخصيّ. أمَّا بشأن الحبِّ الغراميّ، فلا بدَّ أن يقول لك نصفُ أغاني الحُبِّ ونصفُ قصائد الغَزَل في العالَم إنَّ المحبوبَ هو نصيبُك أو قَدَرُك، وإنَّك لم تختَره أكثرَ ممَّا تختار صاعقةً تضربك (ومَن يختارها؟)، إذ "ليس

في قُدرتنا أن نحبَّ أو نبغض". إنَّها سهامُ كيوپيد، أو الجينات، أو أيُّ شيءٍ آخر ما عدا أنفُسَنا. ولكنْ في الحُبِّ الإخوانيّ، حيث نكون أحرارًا من ذلك كلِّه، نعتقد أنَّنا قد اخترنا أترابَنا. وفي الواقع أنَّ أيَّة مُصادفة كان يُمكن أن تُبقيَنا مُتباعِدين: فَرقُ بضع سنينَ في تواريخ ولاداتنا، كيلومتراتٌ قليلةٌ أخرى بين بيوت معيَّنة، اختيارُ جامعةٍ عِوَضَ أخرى، الانضمام إلى أفواجٍ مختلفة، صدفةُ إثارةِ موضوعٍ ما أو عدم إثارته في أوَّل لقاء... أمَّا بالنِّسبة إلى المسيحيِّ الملتزم، على وجه الدِّقَّة، فلا مُصادَفات. فإنَّ "مُديرَ مراسِمَ" خفيًّا ما يزال ناشطًا في عمله. إذ إنَّ السيِّدَ المسيح، كما قال لتلاميذه "ليس أنتم اخترتُموني، بل أنا اخترتُكم" (يوحنَّا ١٥: ١٦)، يستطيع أن يقول بحقٍّ لكلِّ جماعةٍ من الأصدقاء المسيحيِّين "ليس أنتم اخترتُم بعضُكم بعضًا، بل أنا اخترتكُم بعضَكم لبعض". فليست الصَّداقة مُكافأةً لنا على حُسنِ تمييزنا وصَلاحِ ذَوقنا في عثورنا بعضنا على بعض، بل هي الوسيلة التي بها يكشف الله لكُلِّ واحدٍ جَمالاتِ الآخرينَ جميعًا. ليسَت أعظمَ من جمالاتِ ألف شخصٍ آخرين؛ إنَّما بالصَّداقة يفتح الله أعيُنَنا عليها. وهي، ككُلِّ جمالٍ آخر، مُستمدَّةٌ من الله، ثُمَّ- في صداقةٍ صالحة- يُضاعفُها هو من طريق الصداقة ذاتها، بحيث تكون تلك وسيلتَه للخَلْق كما للكَشف أيضًا. ففي هذه الوليمة، هو مَن رتَّب المائدة، وهو مَنِ اختارَ الضُّيوف. وهو- كما لنا أن نجرؤَ فنرجو- مَن يترأَّسُ أحيانًا بالفعل، وينبغي أن يترأَّس كلَّ حين. فلا نُجرِ أيَّ حساب بمعزلٍ عن مُضيفنا!

وهذا لا يعني أنَّ علينا دائمًا أن نُشارِك في هذه الوليمة برَزانةٍ

باردة- لا سمح "الله الذي أوجَدَ الضَّحِكَ السَّليم"! فمن الأمور اللطيفة في الحياة الصَّعبة والمُبهجة أنَّ علينا أن نعترفَ في الصميم بأنَّ بعض الأمور جدِّيَّةٌ حقًّا، ونحتفظَ مع ذلك بالقُدرة والرَّغبة في أن نُعامِلَ تلك الأمورَ بمَرَح كما لو كانت لُعبة. إنَّما سيُتاح لنا وقتٌ لِقَول المزيد عن هذا في الفصل التالي. أمَّا الآن، فسأكتفي باقتباس نصيحةِ دانبار (Dunbar) المُتوازنة توازُنًا جميلًا:

أيُّها الإنسانُ أرضِ خالقَك، وعِشْ في مَرَح،

ولا تُعطِ مُقابِلَ هذه الدنيّا حبَّة بَلَح!

٥

الحُبُّ الغَراميُّ

أعني بالغرام من دون ريب تلكَ الحالةَ التي نَصِفُها بكَونها "الوقوع في الحُبّ"، أو ذلك النَّوعَ من الحُبِّ الذي فيه يكون العُشَّاق غاطسينَ "فيه". وربَّما فوجئَ بعضُ القُرَّاء لمَّا عمدتُ في فصل سابق إلى وَصْف العاطفة بأنَّها الحُبَّ الذي فيه يبدو أنَّ اختبارَنا يُقاربُ اختبارَ الحيوانات أقربَ مُقاربة. وقد يسأل سائلٌ: أَلَيس حقًّا أنَّ وظائفنا الجنسيَّة تُقرِّبنا قُربًا مُساويًا؟ هذا صحيحٌ تمامًا في ما يتعلَّق بالجِنسانيَّة (Sexuality) البشريَّة عمومًا. غير أنِّي لَن أُعنى بالجِنسانيَّة البشريَّة بحدِّ ذاتها ليس إلَّا. فالجِنسانيَّة تُشكِّل جزءًا من موضوعنا عندما تغدو أحد مُقوِّمات الحالة المُعقَّدة الموصوفة بأنَّها "وقوعٌ في الحُبّ". وأنا أحسبُ من البديهيَّات أنَّ الاختبار الجنسيَّ يمكن أن يحصلَ دون غَرام، أي دون "الوقوع في الحبّ"، وأنَّ الغَرام ينطوي على أمور أخرى فضلًا عن النشاط الجنسيّ. وإن شئتَ أن نُعبِّر عن الأمر بتلك الطريقة، فأنا لستُ باحثًا في الجِنسانيَّة التي هي مُشتَركةٌ بيننا وبين البهائم، أو

حتّى مشتركةً بين البشر جميعًا، بل في صُورةٍ بشريّة لها، مختلفة على نحوٍ فريد، تنشأ في إطار "الحُبّ" - وأنا أدعوها حبًّا غراميًّا (Eros). أمّا العُنصر الشّهوانيُّ الذي يُلازم هوى الغَرام، فأنوي أن أدعُوَه (وَفقًا للاستخدام القديم) شهوةً (Venus) فحسب. ولستُ أعني بالشّهوة ما هو جنسيٌّ بمعنًى خفيٍّ أو حصريّ- كالذي من شأن عالم نفسٍ مُتعمّقٍ أن يغوص فيه- بل بمعنًى بديهيٍّ تمامًا؛ ما يعرفُ مُختبِروه أنّه جنسيٌّ؛ ما يمكن أن يتبرهن أنّه جنسيٌّ بأبسط المُلاحظات.

قد تؤدّي الجنسانيّةُ عملَها بمعزلٍ عن الغَرام، أو كجُزءٍ منه. وَلْأُسارِعْ مُضيفًا أنّي أُجري هذا التمييز لأجل حصر بحثنا فحسْب، ودون أيّة تضمينات خُلُقيّة. لستُ مؤيّدًا البتّة للفكرة الشائعة القائلة إنّ غيابَ الغَرام أو وجوده هو الذي يجعل الفعل الجنسيَّ "دَنَسًا" أو "طاهرًا"، مُنحَطًّا أو راقيًا، مُحرَّمًا أو شرعيًّا. فلو كانا مَقيتَين كلُّ زوجَين يَتعاشران بغير أن يكونا واقعَين في الغَرام، لكُنّا كُلُّنا جئنا من أصلٍ فاسد. والأزمنة والأمكنة التي فيها يتوقّف الزواج على هوى الغَرام ضئيلةٌ جدًّا. فإنّ أغلبَ أسلافنا كانوا يُزوَّجون في مُقتَبَل الشّباب بشريكاتِ حياة يختارهنَّ والداهُم على أسُس لم يكُن لها أدنى علاقة بالغَرام أو العِشق. وكانوا يُقدِمون على الفعل دون "وَقود"، إن جاز التعبير، سوى الرَّغبة الحيوانيّة المُجرَّدة. ثُمَّ إنّهم أبلَوا بلاءً حسنًا: إذ كانوا أزواجًا وزوجاتٍ مؤمنين بالسيّد المسيح، طائعين آباءهم وأمّهاتهم، يقضي كلٌّ منهم لشريك الحياة "دَين الزّواج"، مُربّين عائلاتٍ في

مخافة الربّ. وبالعكس، إذا تَمَّ هذا الفعل تحت تأثيرِ شَبَقٍ فائرٍ ومتغيّرٍ كألوان الطيف يُقلّصُ دَور الحواسّ إلى اعتبارٍ أدنى، فقد يكون أيضًا زنًى سافرًا، وقد ينطوي على كَسرِ قلبِ زوجة، أو خيانةِ زوج، أو تخلٍّ عن صديق، أو تدنيسٍ للضيافة، أو نَبذٍ للأولاد. فما كان أمرًا يسرُّ الله أنّ التفريقَ بين خطيّةٍ وواجبٍ يُثيرُ مشاعرَ مُستحسَنة. إنّما هذا الفعل، شأنُه شأنُ أيِّ فعلٍ آخر، يُبرَّر (أو لا يبرَّر) بمعاييرَ أكثر واقعيّةً وقابليّةً للتحديد بكثير: بِوَفاء الوعود أو نقضها، بالإنصاف أو الإجحاف، بالإيثار أو الأنانيّة، بالطاعة أو العصيان. فمُعالجتي للموضوع تستثني مُجرَّدَ الجنسانيّة- الجنسَ بمعزل عن العشق- على أسُسٍ لا علاقةَ لها بالأخلاقيّات؛ لأنّ ذلك لا يمتُّ بأيّة صِلَةٍ إلى غرضنا.

بالنِّسبة إلى مَن يقول بالتطوُّر، لا بدَّ أن يكون الشَّبَق، أو الرغبة الجنسيّة، (في صورته البشريّة المختلفة) شيئًا ينشأ من الشّهوة، تطوُّرًا ومُضاعَفةً مُتأخّرَين للحافز البيولوجيِّ الموغل في القِدم. ولكنْ يجب ألّا نفترضَ أنّ هذا هو ما يحدث بالضّرورة في إطار وَعي الفرد. فربّما وُجدَ أولئك الذين قد شعروا أوّلَ الأمر بمجرَّد الرَّغبة الجنسيّة تُجاهَ امرأةٍ ما، ثُمَّ تقدَّموا في مرحلة متأخّرة إلى "الوقوع في حبّها". ولكنّي أرتابُ في أن يكون ذلك عامًّا في الأصل. فالذي يأتي أوّلًا أغلبَ الأحيان هو مجرَّدُ انشغالٍ بهيجٍ بالمحبوبة: استغراقٌ شاملٌ وغيرُ مُوصَّف فيها ككُلّ. وليس لرَجلٍ في حالة كهذه بالحقيقة مُتَّسَعٌ من الوقت للتفكير في الجنس. وهو أكثرُ انشغالًا من أن يُفكّر في "شخص". فحقيقةُ

كَونها امرأةً أقلُّ أهمّيَّةً بكثير من حقيقة كَونها هي إيّاها. إنّه مُفعَمٌ بالرَّغبة، ولكنَّ الرَّغبة ربّما لا تكون مُدَوزَنةً بمُقتضى الجنس. وإذا سألتَه عمّا يبتغي، فالجواب الصادق سيكون أغلبَ الأحيان: "أن أظلَّ أفكّر فيها". فهو مُستغرقٌ في التأمُّل المركّز على الحُبّ. ثُمَّ حين يستيقظُ العنصرُ الجنسيُّ المُحدَّد، في مرحلة متأخّرة، فإنّه يشعر (إلّا إذا كان عرضةً للتأثُّر بالنظريّات العلميَّة) أنَّ ذلك طالما كان أصلَ المسألة كلّها. والأرجح أنّه سيَشعر بأنَّ مَدَّ الغَرام الآتيَ، والذي بعدما دكَّ كثيرًا من قُصور الرِّمال وأقامَ جَزائرَ عدَّة من صُخور، قد غمر الآن بموجة سابعة ظافرة هذا الجُزءَ من طبيعته أيضًا- غمرَ بُريكةَ الجنسانيَّة العاديَّة تلك التي كانت موجودةً هناك على شاطئه قبل إقبال المَدّ. فإنَّ هوى الغَرام يدخلُه دخولَ الغازي، فيَستسلم ويُعيد تنظيمَ مؤسَّسات بَلَد مغلوب واحدةً فواحدة. وربّما يكون قد استولى على مواقع أخرى كثيرة قبل أن يصل إلى الجنس فيه؛ وهو سوف يعيد تنظيمَ ذلك أيضًا.

ولم يُبيِّنْ أحدٌ طبيعةَ إعادة التنظيم هذه بأوجَز وأدقَّ ممّا فعلَ جورج أورول (George Orwell)، وهو قد مقتَ هوى الغَرام وآثرَ الجنسانيَّة في حالتها الفطريَّة، حيثُ لم يُدنِّسها الشَّبَق. ففي روايته "١٩٨٤" يُلحُّ بَطلُهُ المُروِّع (وكم هو أقلُّ إنسانيَّةً بكثير من أبطاله ذوات الأربع (الحيوانات) في رائعته "مزرعةُ الحيوان" (Animal Farm)!)، قبل الاختلاء بالبَطَلة، على مُطالبتها بإجابة قاطعة، إذ يسألُها: "هل يَروقُك هذا؟ لستُ أعني إيّاي فحسْب، بل أعني الشيءَ بحدِّ ذاته"، وهو

لا يرضى حتّى يتلقّى الجواب: "إنّي أهيمُ به!" إنَّ هذا الحِوارَ الوجيز يُعرِّف إعادة التنظيم. فالرَّغبة الجنسيَّة، بلا غرام، تطلب الشيءَ بحدِّ ذاته؛ أمّا الغَرام فيطلب شخصَ المحبوب.

إنَّ الشَّيء هو متعة حسّيَّة؛ أي حادثةٌ تجري داخلَ جسد الشَّخص. ونحن نستخدم اصطلاحًا مؤسفًا جدًّا حين نقول عن رجُلٍ شهوانَ يَجوسُ الشوارع إنّه "يطلبُ امرأةً". فعلى وجه الدِّقَّة، ليست المرأة هي الأمرَ الذي يطلبه. إنّه يطلب متعةً يتّفق أن تكونَ المرأةُ وسيلتَها الضَّروريَّة. أمّا مدى مُبالاته بالمرأة في حدِّ ذاتها، فيمكن أن يُقاس بموقفه منها بعد مرور خمس دقائق على الاستمتاع (لا يحتفظ المرء بالعُلبة بعد تدخينه ما فيها من تَبْغ). والآن، فإنَّ الغَرام يجعل رجُلًا ما بالحقيقة يطلبُ لا أيَّة امرأة، بل امرأةً واحدةً بعَينها. فعلى نحوٍ غامض، لكنْ غير قابل للجَدَل، يرغبُ المُحبُّ في المحبوبة ذاتها، لا في المتعة التي تستطيع أن تُؤتيَها. وما من عاشقٍ في العالَم الْتَمسَ يومًا مُعانَقات المرأة التي أحبَّها نتيجةً لحساب- مهما كان لاواعيًا- بأنَّ تلك المُعانقات ستَكون أكثر إمتاعًا من مُعانقاتِ أيَّة امرأةٍ أخرى. لا شكَّ أنّه إذا طرحَ السؤالَ يَتوقَّعُ أن يكون ذلك واقعَ الحال. ولكنَّ طَرْحَ السؤال يعني أن يخطوَ إلى خارج دائرة الغَرام كلّيًّا. والرَّجل الوحيد الذي أعرفُ أنّه طرحَه فعلًا كان لوكريتيوس (Lucretius)،[1] ويقيني أنّه لم يكن مُغرَمًا

١ هو شاعرٌ رومانيٌّ قديم له عملٌ شعريٌّ ملحميٌّ واحدٌ معروف هو "في طبيعة الكون" (On the Nature of the Universe)، وقد عاش ما بين عامَي ٩٩-٥٥ ق.م (الناشر).

لمَّا طرحه. ومن المُمتع أن نُلاحظ جوابه. فإنَّ ذلك الشَّهوانيَّ السَّافر أدلى برأيه الشخصيِّ القائل إنَّ الحُبَّ يُعيق المتعة الجنسيَّة فعلًا. لقد كان الشُّعور بالحبِّ إلهاءً وتشويشًا. فهو أفسدَ حسِّيَّةَ استمتاعه الفاترةَ والحَرِجة. (لقد كان شاعرًا عظيمًا؛ ولكنْ "ربَّاه، كم كان أولئك الرُّومانيُّون رجالًا بهيميِّين!").

لا بدَّ أن يُلاحظَ القارئُ أنَّ العشق يُحوِّل هكذا على نحوٍ عجيب ما هو "مسرَّةُ احتياجٍ" بلا مُنازِع إلى أكثر جميع المسرَّات تقديريَّةً. فمن طبيعة مسرَّة الاحتياج أن تُبديَ لنا الغَرَض فقط في علاقته بحاجتنا، بل بحاجتنا الآنيَّة. ولكنْ في الغَرام، تَرى الحاجةُ- في أشدِّ حالاتها حدَّةً- المحبوبةَ أقوى رؤية باعتبارها غرضًا جديرًا بالإعجاب في حدِّ ذاتها، أهمَّ بكثيرٍ جدًّا من علاقتها باحتياج الحبيب.

ولو كُنَّا لم نختبرْ هذا؛ وكُنَّا مُجرَّدَ مَنطقيِّين، لَرُبَّما أجفَلَنا مفهومُ اشتهاءِ كائنة بشريَّة باعتبار ذاك الاشتهاء متميِّزًا عن اشتهاء أيَّة متعة أو سلوى أو خدمة تستطيع الكائناتُ البشريَّات أن تؤدِّيَها. ولا ريبَ أنَّه أمرٌ يصعب تفسيره. والعُشَّاقُ أنفسُهم يحاولون أن يعبِّروا عن جزء منه (لا عن كثير) حين يقول أحدُهم للآخر إنَّه يودُّ لو "يأكله". وقد عبَّر ملتون (Milton) عن أكثرَ من ذلك لمَّا تصوَّرَ مخلوقاتٍ ملائكيَّةً ذواتِ أجسام مصنوعة من نُور تستطيع إحراز التَّداخُلِ الكُلِّيِّ بدلًا من المعانَقات المجرَّدة. كما أنَّ تشارلز وليامز (Charles Williams) عبَّر عن شيءٍ من ذلك بالكلمات: "أُحبُّكِ؟ أنا هو أنتِ!"

إنَّ الرَّغبة الجنسيَّة، بمعزلٍ عن الغَرام- شأنُها شأنُ أيَّة رغبة أخرى- هي حقيقةٌ تتعلَّق بذَواتنا. أمَّا في إطار الغرام، فهي بالأحرى تُعنَى بالمحبوب. وهي تصير طريقةَ إدراكٍ تقريبًا، وطريقةَ تعبيرٍ كُلِّيًّا. إذ تبدو لشُعورنا موضوعيَّة؛ أمرًا خارجَنا، قائمًا في العالَم الواقعيِّ. لهذا السَّبب يميل العِشق دائمًا (في ذُروَته)، رُغمَ كَونه مَلِكَ المسرَّات، إلى اعتبار المَسرَّة نتيجةً ثانويَّة. ومن شأن تفكيرنا فيها أن يُغطِّسَنا من جديد في ذواتنا، في جهازنا العصبيِّ الشخصيِّ. ولا بدَّ أن يَقتُلَ ذلك الأمرُ العشقَ أو الغَرام، مثلما يُمكن أن "تقتلَ" أجملَ منظرٍ جبليٍّ بوَضعه كلَّه داخلَ شبكيَّة عينك وأعصابك البصريَّة. وعلى كُلِّ حال، مَسرَّةَ مَن نقصد؟ فإنَّ واحدًا من أوَّل الأمور التي يفعلها الغَرام هو أن يطمسَ التمييز بين العطاء والأخذ.

حتَّى الآن، ما أزالُ أحاولُ الوصف، لا التَّقييم. ولكنْ تثور الآن بضعةُ أسئلة خُلُقيَّة مُعيَّنة، ويجب ألَّا أكتمَ رأيِيَ الشخصيَّ بشأنها. وهو رأيٌ تسليميٌّ لا توكيديّ، ومُتقبِّلٌ طبعًا للتَّقويم من قِبَل أناسٍ أفضل، مُحبِّين أفضلَ ومؤمنين بالسيِّد المسيح أفضَل.

شاع في ما مضى، وربَّما يَشيعُ اليومَ لدى كثيرين من ذوي الثقافة الضئيلة، اعتقادٌ يرى أنَّ خطرَ الغَرام الروحيَّ يكاد ينشأُ كلِّيًّا من العُنصر الجسدانيِّ فيه، وأنَّ العِشقَ يكونَ "أكثر نُبلًا" أو "أكثر طُهرًا" عندما تُقلَّص الشَّهوة إلى أدنى مُستوى. ومن المؤكَّد أنَّ اللَّاهوتيِّين الأخلاقيِّين الأقدمَ عهدًا اعتقدوا على ما يبدو أنَّ الخطرَ الذي وجبَ

أن نحترسَ منه في الزواج بصورة أساسيَّة تمثَّل في الاستسلام للحواسّ استسلامًا يُدمِّر النَّفس. ولكن لا بُدَّ أن يُلاحَظ أنَّ هذه المُقارَبة لا تتَّفق مع الكتاب المقدَّس. فإنَّ الرسول بولس، ناصحًا المُهتدين بالعُدول عن الزَّواج، لا يقول شيئًا عن ذلك الجانب من المسألة إلَّا لكي يَثنيَهم عن إطالة الامتناع من تلبية الشَّهوة (١كورنثوس ٧: ٥). فما يخشاه هو الانشغالُ الدائم، الحاجةُ كلَّ حين لأنْ "يُرضيَ" -أي يُراعي- الشَّخصُ شريكَه، الشواغلُ المتعدِّدة المُتعلِّقة بالحياة العائليَّة. إذ إنَّ الزَّواج ذاته، لا سريرَ الزوجيَّة، هو الذي يُرجَّح أن يُعيقَنا عن الانتظار أمام الله بلا انقطاع. ولا شكَّ أنَّ الرسولَ بولس على حقّ! فإنْ كان لي أن أثِقَ باختباري الشَّخصيّ، أرى أنَّ العائقَ الكبيرَ (داخلَ الزواج كما خارجَه) يكمن في الهُموم العمليَّة والتَّصريفيَّة المتعلِّقة بهذه الدُّنيا، بل في أيسَرِ هذه الهموم وأبسطها. ذلك أنَّ الغمامة التي تُشبهُ البعوضةَ الصغيرة، والتي تتكوَّن من الاهتمامات والقرارات المُتعلِّقة بمجرى الساعة التالية، طالما تدخَّلَتْ في صلواتي أغلبَ من أيِّ هوًى أو شهوةٍ مهما كانا. فلَيسَتِ التجربةُ الكبيرة والدائمة في الزواج مُتعلِّقةً بالانغماس الحسِّيّ، بل بالجَشَع أو النَّهم (بجَفاوةٍ وافية). ومع كامل الاحترام الواجب لمُرشدي القرون الوسطى، لا يَسَعُني إلَّا أن أتذكَّر أنَّهم كانوا كُلُّهم عُزَّابًا، ويُحتمَل ألَّا يكونوا قد عرفوا ما يفعله الغَرامُ بجِنسانيَّتنا: كيف أنَّه- بعيدًا من أن يُفاقِمَ- يُقلِّصُ طبيعةَ الإلحاح والإدمان التي تتميَّز بها الشَّهوةُ المُجرَّدة. وذلك ليس من طريق

إشباعها فحسْب. فإنَّ العِشق، من غيرِ إنقاص الرَّغبة، يجعل الامتناعَ أسهَل. ولا ريبَ بأنَّه يميل إلى انشغالٍ بالمحبوب يُمكنُ فعلًا أن يكونَ عائقًا للحياة الروحيَّة، غير أنَّه ليس بالدَّرجة الأولى انشغالًا حسِّيًّا.

في اعتقادي أنَّ الخطر الروحيَّ الحقيقيَّ، داخلَ الغَرام كَكُلّ، يكمن في موضعٍ آخَر. وسأعود إلى هذه النُّقطة. أمَّا الآن، فأريد أن أتحدَّث بشأن الخطر الذي في الوقت الحالي، حسب رأيي، يتهدَّد فعلَ الحُبِّ على وجه الخصوص. وهذا موضوعٌ لا أتَّفق فيه، ليس مع الجنس البشريِّ (حاشا)، بل مع كثيرين من أدهى الناطقين باسم البشر. فأنا أعتقد أنَّنا جميعًا نَلقى تشجيعًا على أن ننظر إلى الشَّهوة بعين الجدِّيَّة المُفرطة؛ وعلى أيَّة حال بنوعٍ من الجدِّيَّة خاطئ. فإنَّ تمجيدًا مُضحكًا وعجيبًا للجنس ما يزال جاريًا على قَدَم وساق طوالَ حياتي.

يقول لنا أحد الأدَباء إنَّ تلبية الشَّهوة يجب أن تَتواتر في الحياة الجنسيَّة "بإيقاعٍ احتفاليٍّ مَهيب". كما أنَّ شابًّا لمَّا وصفتُ روايةً كان مُعجَبًا جدًّا بها بأنَّها "إباحيَّة" أجاب بذهولٍ أصيل: "إباحيَّة؟ ولكن كيف يُعقَلُ أن تكونَ كذلك؟ إنَّها تُعالِج المسألة كلَّها على نحوٍ غاية في الجدِّيَّة" - لَكأنَّ وجهًا تَعلوه أمارات الأسى والاكتئاب كان نوعًا من المُطهِّر الأخلاقيّ! وأصحابُنا الذين يُؤوون "آلهةَ الظلام"، أتباعَ مدرسة "عَمُود الدَّم"، يحاولون جادِّين أن يستعيدوا ما يُشبه ديانةَ عبادة آلة الرَّجُل. ثُمَّ إنَّ إعلاناتنا، في قِمَّة إثارتها، تُصوِّرُ الشَّأنَ كلَّه بلُغَة الخاشِع المُنتَشي الفَرِح جدًّا؛ ونادرًا ما تُضمِّن ذلك إشارةً إلى المَرَح.

وقد فتنَنا عُلَماءُ النَّفس جدًّا بالأهمّيَّة اللّامحدودة للتَّوافُق الجنسيّ الكامل، وباستحالة تحقيقه تقريبًا، حتىَّ باتَ في وُسعي أن أصدِّق أنَّ بعض الأزواج والزَّوجات الشباب يُقدِمون الآن على ذلك الشأن وكاملُ آثارِ فرُويد (Frued) وكرافت-إبنغ (Kraft-Ebbing) وهافْيلوك إليس (Havelock Ellis) والدُّكتور ستوپز (Dr. Stopes) مَنشورَةٌ على مَناضِد غُرَف النَّوم حَوالَيهم. وكان من شأن أوڤيد (Ovid) المُحنَّك المَرِح الذي لم يتجاهل قطُّ أيَّةَ حبَّة، ولا جعلَ منها قُبَّة، أن يُقارِبَ بيتَ القصيد أكثر. فقد وصلْنا المرحلةَ التي فيها لا نحتاجُ إلى أيِّ شيءٍ أكثرَ من احتياجنا إلى ضحكةٍ مُجَلجِلة من الطِّراز القديم.

إنَّما لا بُدَّ أن يُجيبَ بعضٌ بالقول: ولكنَّ الشأنَ خطير. فأقول: نعم، خطيرٌ على نحوٍ رُباعيّ. أوَّلًا، من الناحية اللّاهوتيَّة؛ لأنَّ هذه حصَّةُ الجسد في الزواج الذي هو، باختيارٍ من الله، الصورةُ السرِّيَّة للاتِّحاد بين الله والإنسان. وثانيًا، باعتبارِ ما أستجرئُ أن أدعوَه فريضةً مقدَّسة أدنى من أن تكونَ مسيحيَّة، أو هي وثنيَّةٌ أو طبيعيَّة، أعني مشاركتَنا البشريَّة لقوى الحياة والخصب الطبيعيَّة، وعرضَنا لها- زواجَ "أبي السماء" و"الأرض الأُمّ". وثالثًا، على المُستوى الأخلاقيّ، بالنظر إلى الواجبات التي يشتمل عليها كَونُ الإنسانِ أبًا أو أمًّا أو سَلَفًا، وما يترتَّب على ذلك من خُطورةٍ بالغةٍ جدًّا. وأخيرًا، لأنَّ لهذا الشأن (أحيانًا، لا دائمًا) خُطورةً عاطفيَّة عظيمة في أذهان القائمينَ به.

غير أنَّ الأكلَ خطيرٌ أيضًا: لاهوتيًّا، باعتباره واسطةَ الاشتراك

في العشاء الربَّانيّ؛ وأخلاقيًّا، بالنظر إلى واجبنا في إطعام الجياع؛ واجتماعيًّا، لأنَّ المائدة هيَ من زمانٍ سحيق مَوضِعُ المُحادَثة؛ وصحِّيًّا، كما يعلم جميع المصابين بسوء الهضم. ومع ذلك، فنحنُ لا نتأبَّط "كُتُبَ الإرشاد" إلى الغداء، ولا نتصرَّف هنالك كما لو كُنَّا في كنيسة. ثُمَّ إنَّ خُبَراء المآكل، لا القدِّيسين، هُم الذين يقتربون أدنى قُربٍ من القيام بذلك. والحيواناتُ جادَّةٌ دائمًا في ما يتعلَّق بالطعام!

فيجب ألَّا نكونَ بالغي الجدِّيَّة في ما يتعلَّق بالشَّهوة. وبالحقيقة أنَّنا لا نستطيعُ أن نكونَ بالغي الجدِّيَّة من دون أن نُسيء إلى إنسانيَّتنا. فليسَ بلا سببٍ أنَّ كلَّ لُغة وأدبٍ في العالَم يحفلان بالنِّكات التي تتناول الجنس. وكثيرٌ منها مُبتذلٌ أو مُثيرٌ للاشمئزاز، كما أنَّها كلَّها تقريبًا قديمة. إنَّما ينبغي أن نؤكِّد أنَّها تُجسِّد مَوقفًا من الشَّهوة يُعرِّضُ في نهاية المطاف الحياةَ المسيحيَّة للخطر أقلَّ بكثيرٍ ممَّا تُعرِّضها له الرَّزانةُ التبجيليَّة. فعلينا ألَّا نسعى إلى العثور على حقيقةٍ مُطلَقة في الجَسَد. أقصِ المَرَحَ والضَّحك عن سرير الزَّوجيَّة، تَجلِبْ على وجه الاحتمال إلاهةً زائفة. وستكونُ أكثرَ زَيفًا بَعدُ من أفرديت (Aphrodite)، إلاهة الحبِّ والجنس والجمال عند اليونانيِّين؛ لأنَّ هؤلاء- حتَّى في أثناء عبادتهم لها- عرفوا أنَّها كانت "مُحبَّةً للضَّحك". وعامَّةُ الناس على حقٍّ تمامًا في اعتقادهم أنَّ إلاهة الشَّهوة روحٌ هزليَّة جزئيًّا. فلسنا مُلزَمين أبدًا أن نُنشِد جميع ألحان حُبِّنا الثُّنائيَّة على طريقة تريستان وإيزولد النابضة والقابضة للصَّدر والمُدوِّية في عالَمٍ لا نهايةَ له؛ بل

بالأحرى لنُنشدْ غالبًا على طريقة پاپاجينو وپاپاجينا (Papageno and Papagena)[٢] المَرِحة.

إنَّ الشَّهوة نفسَها سوف تنتقم انتقامًا رهيبًا إذا قبلنا جدِّيَّتها (العرضيَّة) بمعناها الظاهريّ. وذلك بطريقتَين؛ إحداهما يُوضِحها السَّير ثوماس برَاون (Thomas Browne) على نحوٍ هزليٍّ جدًّا- وإن لم يكن بنيَّة هزليَّة- حين يقول إنَّ خدمة إلاهة الشَّهوة "هي أغبى فعلٍ يرتكبه الإنسان في حياته كلِّها، وليس من شيءٍ سيُغِمُّ خيالَه الفاتر أكثرَ ممَّا يُغمُّه ذاك، حين يتأمَّلُ أيَّةُ حماقةٍ غريبة وتافهة قد ارتكبَها". ولكنْ لو كان أقبلَ على ذلك الفعل بجدِّيَّةٍ أقلَّ في المقام الأوَّل، ما كانَ عانى هذا "الاغتمام". ولو لَم يُضلِّل خيالُه، ما كان فُتورُه جلبَ اشمئزازًا كهذا. غير أنَّ لإلاهة الشَّهوة انتقامًا آخر أدهى.

فهي نفسُها روحٌ هازئةٌ عابثة، جنِّيَّةٌ أكثر بكثير ممَّا هي إلاهة، وتجعل منَّا ألعوبة. فحينَ تكون جميعُ الظُّروف الخارجيَّة على الحال الأنسب لخدمتها، ستجعل أحد الحبيبَين أو كلَيهما في اعتلالٍ كُلِّيٍّ من جهتها. أمَّا حين يتعذَّر كلُّ فعلٍ صريح ولا يمكن حتَّى تَبادُلُ النَّظرات- في القطارات والمتاجر والحفلات المُتطاوِلة- فهي ستنقضُّ عليهما بكلِّ قوَّتها. ثُمَّ بعدَ ساعةٍ من الزَّمن، حين يؤاتيها الزمان والمكان، ستكونُ قد انكفأت على نحوٍ غامض- ربَّما لدى واحدٍ منهما فقط. وأيِّ ارتباك

٢ شخصيَّات في أوپرا موتسارت (Mozart) المشهورة "الفلوت السحريّ" (The Magic Flute)، والتي ألَّفها في عام ١٧٩١م (الناشر).

لا بدَّ أن يُثيرَ ذلك حتمًا عند أولئك الذين قد ألَّهُوها- أيِّ ألوانٍ من الاستياء ورثاء الذات والرَّيبة والزَّهوِ الجريح، ومُجمَلِ اللَّغوِ الجاري هو عن "الإحباط"! غير أنَّ الحبيبَين الواعيَين يضحكان. فذلك كلُّه جزءٌ من اللُّعبة؛ وهي لُعبةُ "لُقَيطَة"، حيثُ كلُّ فِرارٍ وتَعثُّر وتصادُم ينبغي أن يُعدَّ مَرَحًا مُبهِجًا.

فإنِّي لا أكاد أتمالكُ نفسي عن رؤية واحدة من لَطائف الله في أن تكون عاطفةٌ كالغَرام مُحلِّقةً جدًّا ومتعاليةً ظاهريًّا جدًّا مُرتبطةً هكذا من طريق التكافُل المُتنافِر بشَهوة بَدَنيَّة تُبدي تعلُّقَها- شأنُها شأنُ أيَّة شهوة أخرى- دونَ لباقة بعواملَ دُنيويَّة من قبيل حالة الجوِّ والصحَّة والنظام الغذائيِّ والدَّورة الدمويَّة وعمليَّة الهضم. إذ يبدو في الغرام أنَّنا طائرون أحيانًا؛ وإذا بالشَّهوة تَخزُنا تلك الوخزةَ المُفاجئة التي تُذكِّرنا أنَّنا بالحقيقة مَناطيدُ مُقيَّدة. وفي ذلك برهانٌ ثابت على حقيقة كَوننا مخلوقاتٍ مُركَّبة، حيواناتٍ عاقلة، مُماثِلين للملائكة من جهة، ومن جهةٍ أخرى للسَّنانير (جمع سِنَّور من فصيلة القطط). وإنَّه لأمرٌ سيِّئٌ ألَّا نكونَ قادرين على تقبُّل نكتةٍ لطيفة. وأسوأُ ألَّا نتقبَّلَ لطيفةً من اللَّطائف الإلهيَّة، أُجاريكَ في اعتبارها محبوكةً على حسابنا، ولكنَّها أيضًا لأجل خيرِنا الأبقى (ومَن يشكُّ في هذا؟).

ما يزال الإنسان ينظر إلى جسده نظرةً من ثلاث. فهنالك أوَّلًا نظرةُ أولئك الوثنيِّين المُتقشِّفين الذين دعَوا الجسد "قَبْرَ" النَّفس، ونظرةُ المسيحيِّين من أمثال فِشَر (Fisher) الذين كان بالنِّسبة إليهم

"كيسَ رَوث"، طعامًا للدُّود، دَنسًا، مَعيبًا، مصدرَ لا شيء سوى الغواية للطَّالحين والإذلال للصَّالحين. ثُمَّ هنالك الوثنيُّون المُحدَثون (نادرًا ما يعرفون اللُّغة اليونانيَّة)، دُعاةُ العُري والمُعانُون من جرَّاء "آلهة الظلام"، أولئك الذين يَعدُّون الجسدَ مَجيدًا. ولكنَّ لدينا في المقام الثالث تلك النَّظرة التي عبَّر عنها القدِّيس فرنسيس (St Francis) إذ دعا جسده "أخي الحمار". وربَّما كانت النَّظراتُ الثلاثُ كلُّها مِمَّا يُمكن الدِّفاع عنه- لستُ أدري يقينًا- إنَّما أعطِني القدِّيس فرنسيس وخُذ مالي.

إنَّ صفةَ الحمار اختيارٌ صائبٌ على نحوٍ مُتقَن، لأنَّه ما من عاقل يَسَعُهُ إمَّا تبجيلُ الحمار وإمَّا بغضُه. فهو حيوانٌ نافعٌ، قويٌّ، بليدٌ، عنيد، صبور، مُحبَّبٌ، مُغيظ؛ يستأهل العصا حينًا والجزرةَ حينًا آخر؛ وهو جميلٌ على نحوٍ مثير للشفقة ومُضحِك معًا. وهكذا الجَسَد. فلا تعايُشَ معه حتَّى نُدرِكَ أنَّ واحدةً من وظائفه في حياتنا هي أن يُمثِّل دَور المُهرِّج. وكلُّ رجُلٍ وامرأةٍ وولَدٍ في الدُّنيا يعرفون ذلك، قبل أن تكونَ نظريَّةٌ ما قد حنَّكتهم. فحقيقةُ كَوننا نملك أجسادًا هي أقدمُ نكتةٍ في الوجود. والعشق (شأنُه شأنُ الوفاة ورسم الأجساد ودراسة الطِّبّ) قد يدفعُنا أحيانًا لأن نأخذَ الأمر على مَحمل الجدِّيَّة التامَّة. إنَّما يكمنُ الغَلَط في أن يُستنتَجَ أنَّ العشق ينبغي أن يفعلَ هكذا دائمًا فيُبدِّدَ النُّكتةَ باستمرار. ولكنْ ليس هذا هو ما يحصل. فإنَّ وجوهَ جميع الأحبَّة السُّعَداء الذين نعرفُهم، في حدِّ ذاتها، تُوضح لنا الأمر بجلاء. وما لم يكُن غَرام الأحبَّة قصيرَ

الأجل جدًّا، فإنَّهم يُحسُّون مرارًا وتكرارًا في تعبير الجسد عن العشق عُنصرًا لا من الهزل فحسْب، ولا من اللَّهو فقط، بل من التهريج أيضًا. ولو كانت الحال على غير هذا المنوال، لَكانَ الجسدُ مُحبِطًا لنا. وكان من شأنه أن يكونَ آلةً أكثرَ حمقًا من أن تؤدِّيَ موسيقى الحُبّ، إلَّا إذا أمكنَ الشُّعور بأنَّ حماقتها بحدِّ ذاتها تُضفي على كامل الاختبار سحرَها الخاصَّ الغريبَ المُضحِك: حبكة ثانويَّة أو مسرحيَّة قصيرة بلا أقنعة تقدِّم حركات صامتة بعفويَّتها الودِّيَّة الخشنة ما تُمثِّله النَّفس بأسلوب أفخَم. (وهكذا في المسرحيَّات الهزليَّة القديمة كان الحبُّ الوجدانيُّ بين البطل والبطلة يُحاكَى حالًا مُحاكاةً ساخرة ويُعزَّز بشأنٍ غراميٍّ أكثرَ دُنيويَّةً بكثير بين أفرادٍ مثل تَتشْستون وأودْري[٣] أو حاجبٍ وخادمة ترتيبِ غُرَف البيت). فالأعلى لا يقوم من دون الأدنى. وبالحقيقة أنَّ الجسد ذاته ينطوي أحيانًا على صفة شعريَّة رفيعة، ولكنَّه أيضًا- بإذنك- ينطوي على عُنصر لا يُختزَل من الصِّفة اللَّاشعريَّة العصيَّة والمُضحكة. فإنْ كانت هذه لا تجعل ذاتَها محسوسةً في مُناسَبةٍ ما، فلا بدَّ أن تُلمَس في أخرى. وأن تنصبَها بصراحة داخلَ دراما الغَرام كمَعلَم هزليٍّ بارز أفضلُ بكثير من أن تتظاهرَ بأنَّك لم تُلاحظها قطّ.

٣ تَتشْستون وأودْري (Touchstone and Audrey) هما شخصيَّتان شكسبيريَّتان ظهرتا في مسرحيَّة "كما تودُّها" (As You Like It). وقد مثَّل تَتشْستون دَور مهرِّج في أحَد قصور النبلاء، فيما كانت الفتاةُ أودْري راعية ماعزٍ، وقد حاول المهرِّج التقدُّم بطلب يد الراعية في مشهد ساخر من المسرحيَّة (الناشر).

فبالحقيقة أنّنا نحتاج إلى هذا المَعلَم البارز. إذ إنّ الصّفة الشعريّة موجودةٌ هناك شأنُها شأنُ الصّفة اللّاشعريّة: خطورة الشّهوة فضلًا عن خفّتها، أي وطأة الرغبة المُلتَهبة. وإذا ما دُفعت المتعة إلى أقصاها، تُرهقنا إرهاقَ الألم. فالتّوق إلى اتّحاد لا يستطيع أن يتوسّط فيه إلّا الجسد، في حين يجعلُه الجسد- أي أجسامُنا المُتباعِدَة بالتبادُل- أمرًا لا يمكن بلوغُه إلى الأبد، قد يكون له جلالُ المسعى الميتافيزيقيّ. وحالة العِشق قد تجلب الدُّموع إلى العيون، حالُها حالُ الأسى. غير أنّ الشهوة لا تأتي دائمًا هكذا "كاملةً، مُوثّقةً بفريستها"، وحقيقة كَونها تفعل ذلك أحيانًا هي بعَينها سببُ إبقائنا دائمًا على قدرٍ ضئيل من الهزل في مَوقفنا منها. وحين تبدو الأمور الطبيعيّة إلهيّةً إلى أقصى حدّ، يكونُ ما هو شيطانيٌّ بُعيدَ المُنعطَف تمامًا.

إنّ هذا الرّفض للانغمار الكلّيّ- هذا التذكُّرَ للخفّة حتّى حين تُستعرَض الخُطورة وحدها آنيًّا- مُؤاتٍ على وجه الخصوص لموقف مُعيَّن تستدعيه الشّهوةُ، في حدّتها، من مُعظم ثُنائيّات الأحبّة (لا من جميعها كما أعتقد). فمن المُمكن أن يدفعَ هذا الفعلُ الرَّجُلَ نحو استبداد مُفرط- وإن كان قصيرَ الأجَل- نحو هَيمنَة غازٍ أو آسِر، والمرأةَ نحو خضوع واستسلام مُفرطَين في المقابل. من هنا خشونةُ جانبٍ من المُداعبة الغَراميّة، بل شراستُه؛ "قرصةُ الحبيب المؤلِمة والمرغوبة". فكيف ينبغي لزوجَين عاقلَين أن يُفكّرا في ذلك؟ أو لزوجَين مسيحيَّين أن يسمحا به؟

أظنُّ أنّ ذلك غيرُ مؤذٍ وسليمٌ بشرطٍ واحد. إذ ينبغي أن نُدرِكَ

أنّ علينا هنا أن نتعاملَ مع ما دعوتُه "الفريضة الطّقسيّة الوثنية" في الزواج. ففي الصداقة، كما لاحظنا، يُمثّلُ كلُّ مُشارك نفسَه تحديدًا، بصفته فردًا اتّفاقيًّا. ولكنْ في فعلِ الحُبِّ لا نكون أنفُسَنا فحسْب. فنحن أيضًا مُمثّلون أو وُكَلاء. وليس هُنا ممّا يُفقِر، بل ممّا يُغني، أن نعيَ أنّ قوًى أقدَم منّا وأقلَّ شَخصانيّةً تعمل من خلالنا. إذ يتركّز فينا آنيًّا كلُّ ما في الدُّنيا من ذُكورة وأنوثة، كلُّ ما هو مُبادِر ومُستجيب. فالرجُل يؤدّي فعلًا دورَ أبي السَّماء والمرأةُ دورَ الأرض الأُمّ؛ هو يؤدّي فعلًا دَور الشّكل وهي دورَ المادّة. إنّما ينبغي أن نُضفيَ على الفعل "يؤدّي" معنًى كاملًا. فمن غير رَيب أنّ كِلَيهما لا "يؤدّي دورًا" بمعنى كَونه مُنافقًا، بل إنّ كِلَيهما يؤدّي واجبَه أو دورَه في ما يمكن أن يُشبَّه بتمثيليّة دينيّة أو طقس (من جهة) وبمسرحيّة مُقنّعين، بل بتمثيليّةٍ تحزيريّة[٤] أيضًا (من الجهة الأخرى).

إنّ امرأةً تقبلُ حرفيًّا استسلامَها المُطلَق المُفرط تكونُ وثنيّةً تمنح رجُلًا أمرًا يخصُّ الله وحدَه. كما أنّ الرَّجُل لا بدَّ أن يكون أغبى الأغبياء، بل مُجدِّفًا حقًّا، إذا انتحل- بصفته مُجرَّدَ الشخص الذي يكونُه- نوعَ الهيمنة الذي إليه تُرفّعه الشّهوةُ وقتيًّا. ولكنّ ما لا يمكن تسليمُه أو انتحالُه شرعيًّا، يمكن تمثيلُه شرعيًّا. إنّما خارجَ هذا الطّقس أو هذه المسرحيّة، هو وهي نفسان خالدتان، راشدان مَولودانِ حُرّين،

٤ تمثيليّة تحزيريّة (Charade) هي لغزٌ يُبنى على إعطاء المعنى المطلوب بالتمثيل دون التفوّه بأيّة كلمات (الناشر).

مُواطنان سويّان. ولا بدَّ أن نكون مُخطئين كثيرًا إذا افترضنا أنَّ الزِّيجات التي فيها تؤكَّد هذه السَّيطرة ويُعترَف به في قضاء الشَّهوة هي تلك التي فيها يُرجَّح أن يكون الزَّوج هو المُسَيطِرَ في الحياة الزَّوجيَّة ككُلّ؛ فربَّما كان العكس أكثرَ احتماليَّةً. ولكنْ في إطار الطقس أو المسرحيَّة، يصيران "إلهًا" و"إلاهةً" ليس بينَهما مُساواة- إذ لا تَماثُلَ في علاقة أحدِهما بالآخر.

سوف يستغرب بعضٌ أن أرى عُنصرَ طقسٍ أو مسرحيَّة أقنعَة في ذلك الفعل الذي غالبًا ما يُعدُّ الفعلَ الأكثرَ واقعيَّةً وكشفًا للأقنعة وأصالةً خالصةً بين كلِّ ما نفعله على وجه الإطلاق. أفلا نكونُ نحن ذواتنا الحقيقيَّةَ عندما نكون عُراةً أو مُعَرَّين؟ بمعنًى من المعاني، لا. فالكلمة "مُعرًّى" هي اسمُ مَفعول، والمُعرًّى شخصٌ عُرِّيَ أو جُرِّدَ من قِبَل آخر أو أُزيلَت ما عليه من قشور (وهو الفعل المستخدَم للفاكهة). وفي زمنٍ لا تَرقى إليه الذاكرة، بدا الإنسانُ العاري لأسلافنا لا الإنسانَ الطبيعيَّ بل غيرَ السَّويّ؛ لا الإنسانَ الذي امتنع من ارتداء ثيابه، بل الإنسانَ الذي تجرَّد من ثيابه لسببٍ ما. وإنَّها لحقيقةٌ بَسيطة- يستطيع أيُّ شخص أن يُلاحِظَها في حمَّامٍ عامٍّ للرجال- أنَّ العُريَ يؤكِّدُ البشريَّة ويُضائل ما هو فرديّ. فبالعُريِ يكفُّ الزَّوجان عن أن يكونا فُلانًا وفُلانةَ فحسْب؛ إذ يكونُ التَّشديد على هو وهي الكونيَّين. ويكاد يُمكنك القولُ إنَّهما يرتديان العُريَ كرداءٍ احتفاليّ، أو زيٍّ لتمثيليَّة تحزيريَّة. فما زال واجبًا أن نحترس من أن نكون جِدِّيِّين

بالطريقة الخاطئة، ولا سيَّما حين نُشارك في الطَّقس الوثنيِّ المتعلِّق بمُطارَحاتنا الغراميَّة. إذ إنَّ أبا السَّماء ذاتَهُ هو مجرَّدُ حُلم وثنيٍّ بشخص أعظمَ بكثيرٍ من زَفْس (Zeus) وأكثرَ رجوليَّةً من الرَّجُل. ثُمَّ إنَّ إنسانًا فانيًا ليس حتَّى أبا السماء، ولا يمكن بالحقيقة أن يلبسَ تاجَه. فهو مُجرَّدُ نُسخة عنه مرسومة على ورق مُبهرَج. ولستُ أدعوها هكذا احتقارًا. فأنا أهوى الشعائر؛ وأهوى المَشاهد المسرحيَّة الخصوصيَّة؛ بل أهوى التمثيليَّات التَّحزيريَّة. وللتِّيجانِ الورقيَّة استِعمالاتُها المنطقيَّة، والجِدِّيَّة (في الإطار المُناسب). وهي في نهاية المطاف ليست أكثر هَلهَلةً بكثير ("إذا أصلحها الخيال") من جميع المناصب الدُّنيويَّة الرفيعة.

غير أنِّي لا أستجرئُ أن أذكرَ هذا الطَّقسَ الوثنيَّ من دون أن أنعطف ناحيةً كي أحترسَ من أيِّ خطر بالخلط بينه وبين سرٍّ أسمى على نحوٍ لا يُضاهَى. فكما أنَّ الطبيعةَ تُتوِّج الرَّجُلَ في ذلك الفعل الوجيز، كذلك توَّجَته الشريعةُ المسيحيَّة في علاقة الزَّواج الدائمة، مانحةً إيَّاه "رئاسةً" مخصوصة- أم ينبغي أن أقولَ مُبتلِيةً إيَّاهُ بها؟ وهذا تتويجٌ مختلفٌ جدًّا. وكما يمكن بسهولة أن نأخذ السرَّ الطبيعيَّ على مَحمِلِ الجِدِّيَّة المُفرِطة، فهكذا ربَّما لا نأخذ السرَّ المسيحيَّ على مَحمِلِ الجِدِّيَّة الكافية. وقد تكلَّم الكُتَّاب المسيحيُّون (وأشهرُهم ملتون) أحيانًا عن رئاسة الزَّوج برضًى ذاتيٍّ يكاد يُجمِّد الدَّمَ في العُروق. إنَّما يجب أن نرجعَ إلى كُتبنا المقدَّسة. فالزَّوج هو رأس الزَّوجة تمامًا بقدْرِ ما هو بالنِّسبة إليها ما هو السيِّد المسيحُ بالنِّسبة إلى الكنيسة. إذ ينبغي

له أن يحبَّها كما أحبَّ السيِّد المسيحُ الكنيسة- أكمل القراءة- وأسلمَ حياتَه لأجلها (أفسُس ٥: ٢٥). فالرِّئاسة إذًا مُجسَّدةً أكملَ تجسيد ليس في الزَّوج الذي من شأننا جميعًا أن نتمنَّى لو نكونُه، بل في ذاك الذي زواجُه أشبهُ بعمليَّةِ صَلْب؛ ذاك الذي تنالُ زوجتُه الأكثرَ وتُعطي الأقلّ، وليست تستحقُّه إلى أقصى درجة، وهي- في طبيعتها الذاتيَّة المجرَّدة- أقلُّ جدارةً بأن تُحَبّ. فإنَّ الكنيسة ليس لها جمالٌ سوى ما يُضفيه العريسُ عليها؛ إنَّه لا يَجدُها مُحبَّبةً، بل يجعلها كذلك. والزَّيتُ المُقدَّس لهذا التَّتويج العسير ينبغي أن يُرى لا في أفراحِ زواجِ أيِّ رجُل، بل في أتراحه، في مرضِ زوجةٍ صالحة وآلامها أو في عيوبِ زوجةٍ طالحة، في اعتناء الزَّوج الذي لا يعرف الكَلَل (دونَ استعراضٍ أبدًا) أو في غفرانه الذي لا ينضب: غُفرانه، لا إذعانه. وكما يرى السيِّد المسيح في الكنيسة الناقصة أو المُتعصِّبة أو الفاترة على الأرض تلك العروسَ التي سوف تكون ذاتَ يوم بلا دَنَسٍ ولا غَضن فعلًا، ويعمل في سبيل إنتاج هذه، فكذلك الزَّوجُ الذي رئاستُه على غرار رئاسة السيِّد المسيح (وليس مسموحًا له بأيِّ نوعٍ آخر) لا ييأسُ أبدًا. إنَّه مِثلُ الملك كوفيتوَا (Cophetua)[٥] الذي ما زال بعدَ عشرين سنةً يرجو

٥ وَفقًا للتقليد، فإنَّ أسطورة الملك والمتسوِّلة (The King and the Beggar-maid) تروي أنَّ كوفيتوَا كان ملكًا لإحدى المستعمرات الإغريقيَّة في شمال أفريقيا، وكان يفتقرُ إلى أدنى انجذاب جنسيٍّ نحو الجنس الآخر. وفي أحد الأيّام، شاهد من نافذة قصره متسوِّلةً اسمها پنيلوفون (Penelophon)، فقرَّر إمَّا أن يتزوَّجها وإمَّا أن ينتحرَ، فكان أن تزوَّجها. وقد وردَ ذِكرُ هذه الأسطورة في مسرحيَّاتٍ عدَّة لشكسپير (الناشر).

أن تتعلَّمَ المُتسوِّلةُ ذات يوم أن تتكلَّمَ بالصِّدق وتغسلَ ما وراءَ أُذنَيها.

وإذ نقول هذا، لا نقول إنَّ في إقامةِ زواجٍ ينطوي على بؤسٍ كهذا أيَّةَ فضيلة أو حكمة. فلَيس من فضيلة ولا حكمة في نشدان الاستشهاد غير الضَّروريّ، أو في التصرُّف عمدًا بطريقةٍ تجلبُ الاضطهاد؛ ورُغمَ ذلك فإنَّما في المسيحيِّ المُضطهَد أو المُستشهَد يتحقَّقُ نموذجُ السيِّد المُبارَك على أجلى ما يكون. وهكذا، ففي هذه الزَّواجات العسيرة- حالَ حُدوثها- تكون "رئاسة" الزَّوج، إنْ هو استطاعَ أن يُعزِّزها، أكثرَ مشابهةً لرئاسة السيِّد المسيح.

فلا مُوجِبَ لأنْ يُنكِرَ أكثرُ المتشدِّدين على جنسي القائلين بالمساواة الشاملة بين الجنسَين الإكليلَ الممنوحَ له سواءٌ في السرِّ الوثنيِّ أم السرِّ المسيحيّ. إذ إنَّ الواحدَ من وَرَق؛ أمَّا الآخر فمن شوك. إنَّما الخطرُ الفعليُّ ليس في أنَّ الأزواج قد يتشبَّثون بالأخير بتَوقٍ مُفرط، بل في أن يسمحوا لزوجاتهم بأن يسلبْنَهُم إيَّاه أو يدفعوهنَّ إلى ذلك.

والآن، أنعطف عن موضوعِ الشَّهوة، وهي المُقوِّم الحسِّيُّ ضِمنَ الغَرام، إلى موضوع الغرام ككُلّ. هنا سنرى النموذج عَينه مُكرَّرًا. فكما أنَّ الشَّهوة في إطار الغَرام لا تستهدفُ المسرَّة، هكذا الغرامُ لا يستهدفُ السعادة. قد نحسب أنَّه يستهدفها، ولكنْ حين يؤتى به إلى الامتحان يُثبتُ خلافَ ذلك. فكلُّ إنسان يعلم أنَّه من العبث أن تحاولَ فصلَ حبيبَين بأن تبرهنَ لهما أنَّ زواجهما سيكون زواجًا تعيسًا. وليسَتِ الحال على هذا المنوال فقط لأنَّهما لن يُصدِّقاك. فإنَّهما

سيُصدِّقانك عادةً من دون ريب. ولكنْ حتَّى لو صدَّقاك، فإنَّهما لن يَنتَصحا بالعُدول. إذ إنَّ صفة الغَرام المُميِّزةَ بالذات هي أنَّه حينَ يكون مُستَوليًا علينا نؤثرُ أن نُشاطرَ المحبوبَ التَّعاسة على أن نكونَ سُعَداء في أيِّ ظرف آخر. حتَّى لو كان الحبيبان شخصَين ناضجَين وذَوَي خبرة يعرفان أنَّ القلوب المفطورة تَبرأ في الأخير، وأمكنهما أن يَستشرفا بوضوح أنَّه إنْ تسلَّحا بالعزم والتصميم كي يجتازا كَرْبَ الانفصال الحاليِّ فمن الحتميِّ تقريبًا أنَّهما بعد عشر سنين منذئذٍ سيَكونان أسعدَ ممَّا يُرجَّح أن يجعلَهما الزواجُ سعيدَين أصلًا، فإنَّهما- حتَّى عندئذٍ- لا يَقبَلان أن ينفصلا. فبالنسبة إلى الغَرام، هذه الحساباتُ كلُّها لا علاقةَ لها بالموضوع- تمامًا كما أنَّ حُكمَ لوكريتيوس الوحشيَّ على نحوٍ فاتر هو خارجٌ عن الموضوع بالنِّسبة إلى الشَّهوة. وحتَّى حين يغدو واضحًا دون أدنى مُوارَبة أنَّ التزوُّجَ بالحبيبة لا يمكن على وجه الاحتمال أن يؤدِّيَ إلى السعادة- حينَ لا يمكن أن يدَّعي الزواجُ مجرَّد ادِّعاء بتقديم أيَّة عيشة أخرى ما عدا عيشةَ الاعتناء بمريض لا يُشفَى، أو عيشة الفقر المُدقع، أو النَّفي، أو الخِزي- فإنَّ الغَرامَ لا يتردَّد أبدًا أن يقول: "هذا خيرٌ من الانفصال. أن أكونَ بائسًا معها خيرٌ من أن أكونَ سعيدًا من دونها. فليَنفطِرْ قَلبانا، على أن ينفطرا معًا! وإنْ كان الصَّوت الذي في داخلنا لا يقولُ هذا، فليس هو صوتَ الغرام.

هذه هي فخامةُ الحُبِّ وفظاعتُه. إنَّما لاحِظْ، كما في السابق، الصِّفةَ الهزليَّة جنبًا إلى جنب مع هذه الفخامة. فالغَرام، شأنُه شأنُ الشَّهوة،

هو موضوع نكاتٍ لا تُحصَى. حتَّى حين تكونُ ظروفُ الحبيبَين مأساويَّةً جدًّا بحيثُ لا يستطيعُ أيُّ مُتفرِّج أن يحبسَ دموعَه، فهُما أنفُسُهما- في العُسر وفي غُرَف المُستشفيات وفي أثناء أيَّام الزيارات في السُّجون- سيُدهشُهما أحيانًا مَرَحٌ يصعق المُشاهدَ (ولكنْ ليس إيَّاهما) بكَونه يدعو إلى الرِّثاء على نحوٍ لا يُطاق. وقبل أن يُرزَقَ الزَّوجان طفلًا ليَضحَكا عليه يضحكان دائمًا أحدُهما على الآخر.

وتكمن فخامةُ الغَرام في كَون بزورِ الخَطَر مخبوءةً فيه. فإنَّه قد تكلَّمَ كأنَّه إله. حيثُ التزامُه الكلِّيُّ، ولامُبالاتُه المُتهوِّرة بالسَّعادة، وتعاليه على الاهتمام بالمصلحة الذاتيَّة، تبدو كلُّها كما لو كانت رسالةً من العالَم السَّرمديّ.

غير أنَّه، في مقامه تمامًا، لا يمكن أن يكونَ هو صوتَ الله نفسه. فإنَّ الغَرام، مُتكلِّمًا بتلك الفخامة عينَها ومُبديًا ذلك التعاليَ عن الذَّات عينَه، قد يحفز على الشرِّ كما يحفز على الخير أيضًا. فلا شيءَ أضحَل من الاعتقاد أنَّ حُبًّا يؤدِّي إلى الخطيَّة هو دائمًا أدنى نوعيًّا- أكثرُ حيوانيَّةً أو أشدُّ ابتذالًا- من حُبٍّ يؤدِّي إلى زواج يتَّصف بالأمانة والإثمار والمزايا المسيحيَّة. والحبُّ الذي يؤدِّي إلى زيجاتٍ مَنكوثة العهود، بل إلى مواثيق انتحارٍ وجرائم قتلٍ أيضًا، لا يُرجَّح أن يكونَ نزوةً هائمة أو هوًى خاملًا. فقد يكون بالحقيقة الغَرامَ بكلِّ عَظَمته؛ مُخلصًا على نحوٍ فاجع يفطر القلب؛ مستعدًّا لكلِّ تضحيةٍ ما عدا نُكرانَ الذَّات الأصيل.

وُجِدَت مدارسُ فكريَّة قبلَت صوت الغَرام باعتباره شيئًا مُتعاليًا

بالفعل، وحاولت تبريرَ مُطلَقيَّة أوامره. وقد ارتأى أفلاطون أنَّ "الوقوع في الحبّ" هو أن يتمَّ على الأرض التَّعارُفُ بين كلِّ نفسَين خُصِّصتا إحداهما للأخرى في عالَم سابق وسماويّ. فأن نلتقيَ المحبوبَ هو أن نُدرِك "أنّنا قد أحبَبنا قبل وِلادتنا". وهذا التعليل يدعو إلى الإعجاب بوصفه أسطورةً تُعبِّر عمَّا يشعر به العُشَّاق. ولكنْ إذا قبله المرءُ حرفيًّا، تُواجِهُه عاقبةٌ مُحبِطة. إذ ينبغي أن نستنتجَ عندئذ أنّه في تلك الحياة السماويَّة والمَنسيَّة لم تكُنِ الشؤونُ تُصرَّفُ أفضلَ ممَّا تُصرَّف هنا. فإنَّ الغَرامَ قد يجمع قرينَين لا يتَناسبان إلى أقصى الحدود؛ وعدَدٌ كبيرٌ من الزِّيجات غير السَّعيدة، وتلك التي أمكن التنبُّؤ بأنّها ستكون غير سعيدة، كان زواجات حُبّ.

إنَّما هنالك نظريَّةٌ، يُرجَّح قبولُها في زماننا، تتمثَّل في ما يمكن أن ندعوَه "الرُّومنطيقيَّة الشُّوانيَّة" (Shavian Romanticism)، وربَّما كان من شأن جورج برنارد شو (George Bernard Shaw) نفسه أن يدعوها "الرُّومنطيقيَّة الميتابيولوجيَّة" (Metabiological Romanticism). فبِحَسب الرُّومنطيقيَّة الشُّوانيَّة، صوتُ الغَرام هو صوتُ قوَّة الحياة، أو "الشهوة التطوُّريَّة". وإذ تَطغى هذه على ثُنائيٍّ مُعيَّن، تكون ناشدةً أبوَين (أو جدَّين) للإنسان الأمثل (السُّوپرمان). فهي غيرُ مُبالية على السَّواء بسعادتهما الشخصيَّة وبالقواعد الأخلاقيَّة، لأنّها تستهدف شيئًا يعتقد شو أنّه أهمُّ بكثيرٍ جدًّا، ألا وهو تكميلُ جنسنا البشريِّ في المستقبل. ولكنْ إذا كان

هذا كلُّه صحيحًا، فإنَّه لا يَكادُ يُوضِحُ هل ينبغي أن نستجيب لتلك الشهوة، وإن استجبنا فلماذا. ذلك أنَّ جميع الصُّور التي قُدِّمت إلينا عن الإنسان الأمثل حتَّى الآن هي غير جذَّابة إلى أبعد حدّ، بحيثُ يحسَنُ بالمرء أن يَنذر التبتُّل في الحال كي يتجنَّبَ مُجازفةَ إنجابه. ثُمَّ إنَّ هذه النظريَّة، ثانيًا، تؤدِّي حتمًا إلى الاستنتاج أنَّ قوَّة الحياة (هذا الشيء أو الشَّخص؟ المذكَّر أو المؤنَّث؟) لا تدركُ جيِّدًا جدًّا شُغلَها الخاصّ. وبقدْرِ ما يمكن أن نرى، فإنَّ وجودَ العِشق أو حِدَّتَهُ بين زوجَين ليس ضمانةً بأنَّ نسلَهما سيَكون مُرضِيًا على نحوٍ مخصوص، ولا مُجرَّدَ أنَّه سيَكون لهما نسل. فإنَّ وجودَ شخصَين "أصيلَين" (بلُغة مَن يُربُّون المواشي)، لا حبيبَين جيِّدَين، هو الوصفة التي تُنتجُ أولادًا جيادًا. ثُمَّ ماذا كانت قُوَّة الحياة في الأصل فاعلةً طيلةَ تلك الأجيال اللَّامَعدودة التي في أثنائها قلَّما توقَّف إنجاب الأولاد على الغَرام المُتبادَل وكثيرًا ما تعلَّق بالزِّيجات المُرتَّبة سلفًا وبالاستِعباد والاغتصاب؟ أكانت فقط تُفكِّر في هذه الفِكرة الفَطِنة لتحسين الجنس البشريّ؟

ولكنْ لا النَّوعُ الأفلاطونيُّ ولا النَّوعُ الشُّوَانيُّ من نظريَّة التَّعالي بشأن الغَرام يُمكِن أن يُساعِد المسيحيَّ الملتزم. فنحن لسنا عَبَدةَ قوَّة الحياة، ولا نعرف شيئًا عن الوُجودات السابقة. وعلينا ألَّا نؤدِّيَ طاعةً غير مشروطة لصوت الغَرام حين يتكلَّم كأنَّه إله. كما أنَّ علينا أيضًا ألَّا نَتجاهلَ- أو نُحاوِلَ أن نُنكِرَ- ما فيه من صفاتٍ تُشبِهُ سجايا الله.

فهذا النَّوع من المحبَّة يُشبه المحبَّةَ نفسَهُ فعلًا وحقًّا. إذ يشتملُ على قُربٍ حقيقيٍّ إلى الله (بالمُشابهة)؛ ولكنْ ليس- بالضَّرورة- على قُربِ اقتراب. فإنَّ الغرامَ، إذا ما اعتُبِرَ بمقدارِ ما تَسمح به محبَّةُ الله ومحبَّتُنا لإخواننا، قد يصيرُ بالنسبة إلينا وسيلةَ اقتراب. وفي التزامه الكلّيِّ مثالٌ أو مَثَل- مُركَّبٌ في صُلبِ طبيعيةِ كلٍّ منَّا- للمحبَّة التي ينبغي أن نمارسَها تُجاهَ الله والإنسان. فكما تُزوِّد الطبيعةُ مُحبَّ الطبيعة بمضمونٍ للكلمة "مَجْد"، كذلك يُضفي هذا النَّوعُ من الحبِّ مضمونًا على الكلمة "محبَّة". فكأنَّما قال السيِّد المسيح لنا من خلال الحُبِّ الغراميِّ: "هكذا، على هذا النَّحو تمامًا، بهذه الوفرة الوافرة، دونَ احتسابٍ للنفقة، ينبغي أن تحبُّوني أنا وأصغرَ إخوتي". لا شكَّ أنَّ اعتبارَنا المشروط للغَرام يختلف تَبَعًا لظُروفنا. فمن بعضنا مَطلوبٌ زُهدٌ كلّيٌّ (ولكنْ ليس ازدراء). فيما آخَرون، والحُبُّ الغَراميُّ وَقودٌ لهم ومِثالٌ أيضًا، يمكن أن يُقدموا على الحياة الزَّوجيَّة. وفي إطارِ تلكَ الحياة، لن يكون الغَرامُ بحدِّ ذاته كافيًا البتَّة، بل بالحقيقة سوف يستمرُّ فقط بقدرِ ما يُمَدُّ دائمًا بالتَّهذيب والتَّعزيز بواسطةِ مبادئَ أسمى.

غير أنَّ الحُبَّ الغراميّ، إذا ما اعتُبِرَ بلا تحفُّظ وأُطيعَ طاعةً غير مشروطة، يصيرُ شيطانًا. وعلى هذا المنوال تمامًا يُطالبُ بأن يُعتبَرَ ويُطاع. وإذ هو لامُبالٍ على نحوٍ تألُّهيٍّ بأنانيَّتنا، فهو أيضًا عاصٍ على نحوٍ شيطانيٍّ لكلِّ مطلبٍ من مطالب الله أو الإنسان الذي يكون مُعارِضًا له. من هنا قولُ الشاعر:

إنَّ المُلاطَفةَ لا يمكنُ أن تُزَحزِحَ الأحبَّاء،
والمُعارَضةُ تجعلُهم يشعرون كأنَّهم شُهَداء.

والكلمة شهداء صحيحةٌ تمامًا. فقبلَ عدَّة سنين، لمَّا كتَبتُ عن شعر الغَزَل في القرون الوسطى؛ ووصفتُ ما يتعلَّق به من "ديانة الحُبِّ" الغريبة شبهِ التَّظاهُريَّة، كنتُ أعمى كفايةً بحيثُ عالجتُ ذلك بوصفه ظاهرةً أدبيَّة خالصة تقريبًا. أمَّا الآن فقد بتُّ أعرفُ أفضل. ذلك أنَّ الحبَّ الغَراميَّ بطبيعته يستدعيها. فبين جميع المَحبَّات هو- في ذروته- أكثرُها تألُّهًا؛ ومن ثَمَّ أكثرُها عُرضةً للمطالبة بعبادته. وهو من تلقاء ذاته يميل لأنْ يُحوِّلَ "حالة الوقوع في الحُبّ" إلى نوعٍ من الدِّيانة.

لَطالمَا خشي اللاهوتيُّون، في هذا الحُبّ، خطرَ العبادة الصَّنميَّة. وأعتقد أنَّهم عَنَوا بذلك أنَّ الحبيبَين قد يؤلِّهان أحدُهما الآخر. إنَّما لا يبدو أنَّ ذلك هو الخطرُ الفعليّ؛ ليسَ في الزَّواج يقينًا. فإنَّ الواقعيَّة المُبهجة والحميميَّة الفعَّالة في الحياة الزوجيَّة تجعلان ذلك مُنافيًا للعقل. وهذه أيضًا حالُ الحُبِّ العاطفيِّ الذي يكادُ الحُبُّ الغَراميُّ يكتَسيه كلَّ حين. حتَّى في حالة التَّودُّد، أتساءلُ بشأن أيِّ شخصٍ أحسَّ العطشَ إلى ما هو أزليّ، أو حتَّى حلمَ بإحساسه، هل افترض مرَّةً أنَّ في وُسع المحبوب أن يُرويَه. فإنَّ المحبوب، بصفته سائحًا رفيقًا تُساورُه الرَّغبةُ عينُها، أعني بصفته صديقًا، قد يكون على علاقة بالموضوع بطريقةٍ مجيدة ومُفيدة؛ ولكنَّه بصفته غَرَضًا لذلك- أجَل (لن أكونَ فظًّا)-

لا بدَّ أن يكون مُضحكًا. إنَّما الخطر الفعليُّ لا يبدو لي في أنَّ الحبيبَين سيؤلِّهان أحدُهما الآخر، بل في أنَّهما سيُؤلِّهان الغَرامَ نفسَه.

لستُ أعني بالطَّبع أنَّهما سيَبنيان له مذابحَ أو يرفعان الصلوات إليه. فالتَّأليه الوثنيُّ الذي أتكلَّم بشأنه يمكن أن يُرى في إساءة التفسير الشائعة لكلمات ربِّنا إذ قال: "قد غُفِرَت خطاياها الكثيرة، لأنَّها أحبَّت كثيرًا" (لوقا ٧: ٤٧). ولكنْ يتَّضحُ من السِّياق، ولا سيَّما من مَثَل المديونَين السابق، أنَّ هذا القول لا بدَّ أن يعني: "إنَّ عِظَمَ حُبِّها لي دليلٌ على عِظَم الخطايا التي غفرتُها لها". (والكلمة "لأنَّ" هنا تُشبه "لأنَّ" في قولنا "لا يُعقَلُ أن يكونَ قد غادر المنزل؛ لأنَّ قُبَّعته ما زالت مُعلَّقةً في الرِّواق"، فإنَّ وجود القُبَّعة ليس سببَ كَونه في المنزل بل بُرهانٌ مُحتَملٌ عليه). غير أنَّ آلاف الناس يفهمون الأمرَ خِلافَ ذلك تمامًا. فهم يفترضون أوَّلًا، من دون دليل، أنَّ خطاياها كانت خطايا بحقِّ العفاف، مع أنَّها- بمُقتضى كلِّ ما نعرفه- ربَّما كانت ربًّا فاحشًا أو غشًّا في التِّجارة أو عَسْفًا للأولاد. ثُمَّ إنَّهم يحسبون أنَّ ربَّنا قال: "إنِّي أغفر لها عدم عفافها لأنَّها كانت غاطسةً في الحُبِّ كثيرًا". والمعنى الضِّمنيُّ هو أنَّ الحبَّ الغَراميَّ الكبير يُخفِّف أيَّ أفعالٍ يؤدِّي إليها، بل يكاد يُبيحُها، بل يكاد يُقدِّسها.

عندما يقول الحبيبان عن فعلٍ من الأفعال قد نلومُهما عليه: "لقد جَعَلَنا الحبُّ نفعلُ ذلك"، لاحظ اللَّهجة. فالإنسانُ القائل: "فعلتُ ذلك لأنِّي ارتعبْت"، أو "فَعلتُ ذلك لأنِّي غضبْت"،

يتكلَّم بطريقة مختلفة تمامًا. إنَّه يُقدِّم اعتذارًا عمَّا يشعر بأنَّه يستوجب أن يُعذَرَ عليه. ولكنَّ الحبيبَين نادرًا ما يفعلان ذلك عينَه. فلاحظ بأيِّ مقدارٍ من التهيُّب، بل من التقديس تقريبًا، يقولان كلمة الحبِّ، ليس بالإشارة إلى "ظرفٍ تخفيفيّ" بل بالإركان إلى سُلطان. ويمكن أن يكونَ الاعتراف أشبهَ بتَباه، كما قد ينطوي على شيءٍ من التحدِّي. فالعُشَّاق "يشعرون كأنَّهم شُهَداء". وفي الحالات القُصوى، ما تُعبِّر عنه كلماتُهم هو ولاءٌ يتصنَّع الخجلَ، لكنْ غيرُ مُتَزحزح، لإله الحُبّ.

"هذه الأسبابُ، في شريعة الحُبّ، قد حُسِبَت صالحة"، هكذا تقول "دليلةُ" ملتون. ذلك هو بيتُ القصيد: في شريعة الحُبّ. إذ "في الحُبِّ" لنا "شريعتُنا" الخاصَّة، دينُنا الخاصُّ بنا، إلهُنا الخاصّ، فحيث يوجَدُ غَرامٌ حقيقيٌّ تُعدُّ مُقاومةُ أوامره كما لو كانت ارتدادًا، وما يكون بالحقيقة تجارب (بموجب المعيار المسيحيّ) يتكلَّم بصوت الواجبات: شبهِ واجباتٍ دينيَّة، أفعالِ حماسةٍ دينيَّة للحُبّ. إنَّه يبني ديانته الخاصَّة حول الحبيبَين. وقد لاحظ بنجامين كُونستانت (Benjamin Constant) كيف يُوجدُ لهما- في غضون بضعة أسابيع أو أشهُر- ماضيًا مُشتركًا يبدو لهما مُغرقًا في القِدَم. وهما يرجعان إليه بذهول وإجلال، كما يرجع كاتبو المزامير إلى تاريخ شعب العهد القديم. إنَّه بالحقيقة العهدُ القديم الخاصُّ بديانة الحُبّ: سِجلُّ أحكام الحُبِّ ومراحمه من نحو ثنائيِّه المُختار حتَّى اللحظة التي فيها عَرَفا أوَّل الأمر أنَّهما حبيبان. بعد ذلك، يبدأ عهدُه الجديد. وهما الآن تحت شريعةٍ جديدة، تحت ما يُماثِلُ النِّعمة

(في هذه الدِّيانة). إنَّهما مخلوقان جديدان، حيثُ يُبطِل "روح" الغَرام جميعَ الشرائع، وعليهما الآن ألّا "يُحزناه".

ويبدو أنَّ الغَرام يُجيزُ كلَّ نوع من الأفعال لَولاه ما كانا يتجاسران عليه. لستُ أعني، بصورةٍ حصريَّة أو رئيسيَّة، الأفعالَ التي تنتهك العَفاف. فقد تكون هذه بالمثل أفعالَ عدم إنصاف أو عدم إحسان بحقِّ العالَم الخارجيّ. وسوف تبدو أشبه ببراهينَ على التَّقوى والحماسة تُجاه الغَرام. وربَّما قال الثُّنائيُّ أحدُهما للآخر بروح شبهِ قُربانيَّة: "لأجل الحُبِّ أهملتُ والديَّ، أو تركتُ أولادي، أو خُنتُ شريك حياتي، أو خذلتُ صديقي في أثناء ضيقته العُظمى". وهذه الأسباب، في شريعة الحُبّ، قد حُسِبَت صالحة. حتَّى إنَّ العابدَين الوَرِعَين قد يَصِلان إلى حيثُ يشعران بأنَّ في هذه القرابين، أو التضحيات، استحقاقًا مخصوصًا؛ فأيُّ قُربانٍ أكثرَ كلفةً من ضمير المرء يمكن أن يُوضَع على مذبح الحبّ؟

ثُمَّ إنَّ النُّكتةَ المُروِّعة كلَّ حين هي أنَّ هذا الغَرام الذي يبدو صوتُه مُتكلِّمًا من العالَم السَّرمديِّ ليس هو نفسُه بالضرورة باقيًا مجرَّدَ بقاء. إنَّه على نحو مُبين الأشدُّ فنائيَّة بين محبَّاتنا. فإنَّ أصداء الشَّكاوى من تقلُّبه تُجلجِلُ في أنحاء العالَم. وما يُحيِّر هو تَمازُج هذا التقلُّب مع توكيدات بقائه. فأنْ يكون المرءُ مُغرَمًا هو على السَّواء أن يَقصدَ ويَعِدَ الوفاءَ مدى الحياة. والحبُّ يجعلُ العهودَ طَلَبًا لا داعيَ له؛ ولا يمكن أن يُثنَى عن تقديمها. إذ إنَّ أولى الكلمات التي يتفوَّهُ بها تقريبًا هي

"سأكون مُخلِصًا دائمًا أبدًا". لا عن رياء، بل بصِدق. وما من اختبارٍ سيَشفيه من هذا التوهُّم. وقد سمعنا كلُّنا عن شخصَين يقعان في الحُبِّ مجدَّدًا كلَّ بضعة أعوام؛ مُقتنِعَين كلَّ مرَّة أنَّه "الأمرُ الحقيقيُّ هذه المرَّة"، أنَّ تَرحالَهما قد انقضى وأنَّهما قد وجدا حبَّهما الصَّحيح وسيَكونانِ هُما أنفسُهما مُخلِصَين حتَّى الموت.

ومع ذلك فإنَّ الغرام على حقٍّ في قَطْع هذا الوعد، بمعنًى من المعاني. فإنَّ حادثةَ الوقوع في الحُبِّ هي ذاتُ طبيعةٍ فريدة بحيثُ نكون على حقٍّ في رَفض احتمال كَونها عابرةً باعتباره فكرةً غيرَ واردة. إذ بقفزةٍ عالية واحدة قد تخطَّت جدارَ فرديَّتنا الهائل، وجعلَت الشهوةَ بعَينها غيريَّةً أو لاأنانيَّة، وطرحَت السَّعادةَ الشخصيَّةَ جانبًا باعتبارها أمرًا تافهًا وغرسَت مصالحَ شخصٍ آخر في لُبِّ كياننا. فبطريقةٍ تلقائيَّة وبلا مجهود كمَّلنا الناموس (تُجاهَ شخص واحد) بمحبَّتنا قريبًا لنا كما نحبُّ أنفسنا. إنَّها صورةٌ، أو تذوُّقٌ مبدئيّ، لما ينبغي أن نصيرَ عليه تُجاهَ الجميع إنْ مَلَكَ المحبَّةُ نفسُه (الله محبَّة) علَينا بلا مُنافس. بل إنَّها أيضًا (باستخدام حَسَن) إعدادٌ لذلك. فمُجرَّدُ الانكفاء عنها، "بالوقوع خارجَ" الحُبِّ مجدَّدا فحسْب، هو نوعٌ من نقض التحرُّر (إن جاز لي أن أبتكِرَ هذا التَّعبير البغيض). حقًّا إنَّ الحُبَّ الغراميَّ يُدفَعُ لأنْ يَعِدَ ما لا يستطيع الحُبُّ الغراميُّ من تلقاءِ ذاته أن يفيَ به.

أَفي وُسعنا أن نبقى في هذا التحرُّر اللَّاأنانيِّ مدى العُمر؟ إنَّنا لا نكاد نبقى فيه أسبوعًا واحدًا. فبينَ أفضلِ حبيبَين مُمكنَين، هذه الحالة

الرفيعة مُتقطِّعة. إذ إنَّ الذَّاتَ القديمة سرعان ما تُبيِّنُ أنَّها ليست مَيْتةً بقدْرِ ما تظاهرَت- كما يحصل بعدَ اختبارِ اهتداءٍ دينيّ. ففي كِلا هذَين، قد تُصرَع الذَّاتُ أرضًا إلى حين؛ ولكنَّها لا تلبث أن تنهضَ من جديد؛ إن لم يكن على قدمَيها، فعلى أحد مرفَقيها؛ وإن لم تكُن مُزمجرة، فعلى الأقلِّ راجعةً إلى دَمدمَتِها المؤكَّدة أو إلى انتحابِها الاستِجدائيّ. ثُمَّ إنَّ الشهوة غالبًا ما تَنكفئ إلى مجرَّد الجنسانيَّة.

غير أنَّ هذه الانكفاءات لن تُدمِّرَ زواجًا بين شخصَين "محترَمَين ومُتعقِّلَين". فالزَّوجان اللذان يُعرِّضان زواجهما للخطر حتمًا، وربَّما يُقوِّضانه، هُما ذانك اللذان قد ألِفَا الغَرام. إذ قد حَسبا أنَّ له مقدرةَ إله وصدقيَّتَه؛ وتوقَّعا أن مجرَّدَ الشُّعور سيؤدِّي لهما، وبصورةٍ دائمًا، كلَّ ما هو ضروريّ. حتَّى إذا خابَ هذا التوقُّع، ألقى كلٌّ منهما باللَّوم على الغَرام، أو على شريك الحياة أغلبَ الأحيان. على أنَّ الغَرام في الواقع، بعدَما قطعَ وعدَه الجليل وأبدى لك لَمحاتٍ عن الحالة التي عليها سيكون أداؤه، يكونُ "قد قام بواجبه". فهو- شأنُه شأنُ العرَّاب أو العرَّابة- يقطع العُهود؛ ولكنَّ علَينا نحنُ أن نَفيَ بها. إذ نحنُ مَن يجب أن نجتهدَ للوصول بحياتنا اليوميَّة ولو إلى مُوافَقة أقربَ لما قد كشفَت لنا اللَّمَحات. فيجب أن نؤدِّيَ نحن أعمالَ الحُبِّ الغراميِّ حينَ لا يكونُ الحُبُّ الغراميُّ حاضرًا. هذا الأمرُ يعرفه كلُّ حبيبَين جيِّدَين، وإن كان الذين لا يُحسِنون التفكير والتعبير كثيرًا سيَتَمكَّنون من الإفصاح عن ذلك ببضع عباراتٍ مألوفة تدور على "قُبول المُرِّ مع الحُلو"، أو "عدم

توقُّع الكثير"، أو "حيازة شيءٍ من الفِطرة السليمة"، وما شابه. ويعلَمُ كلُّ زوجَين مسيحيَّين مُحبَّين أنَّ هذا البرنامج- وإنْ بدا مُعتدلًا- لن يُنفَّذ إلَّا بالتَّواضُع والمحبَّة المُضحِّية والنِّعمة الإلهيَّة؛ وأنَّه بالحقيقة كاملُ الحياة المسيحيَّة منظورًا إليها من زاويةٍ واحدةٍ مخصوصة.

وهكذا، فإنَّ الحبَّ الغراميَّ، حالُه حالُ سائر المحبَّات- ولكنْ على نحوٍ أكثر تأثيرًا بسبب قوَّته وحلاوته وهَوله وعُلُوِّ كعبه- يكشفُ وضعَه الأصليّ. غير أنَّه لا يستطيع من تلقاء ذاته أن يكونَ ما ينبغي أن يكونَه حتَّى يبقى حُبًّا غراميًّا. إنَّه يحتاجُ إلى معونة؛ ولذلك يجب أن يُضبَط. فالإله يموتُ أو يصيرُ شيطانًا إنْ هو لَم يُطِع الله. ويكونُ حسنًا إذا مات دائمًا في مثل هذه الحال. غير أنَّه قد يبقى حيًّا، مُقيَّدًا معًا بلا رحمة مُعذِّبَين مُتبادِلَين، كلٌّ منهما يسري في أوصاله سمُّ "البُغض في الحبّ"، وكلٌّ منهما شديدُ التَّوق إلى الأخذ ورافضٌ بعناد للعطاء، غيور، مُرتاب، حاقد، مُجاهدٌ لحيازة اليد العُليا، عازمٌ أن يكون حُرًّا وألَّا يسمحَ بأيِّ قَدْر من الحرِّيَّة، عائشٌ على "الانفجارات العاطفيَّة". اقرأْ رواية آنا كارنينا (Anna Karnina) بقلم ليو تولستوي (Leo Tolstoy)، ولا تتوهَّم أنَّ أمورًا كالتي تجري فيها تحدُثُ فقط في روسيا. فإنَّ مُغالاةَ الحبيبَين القديمة في "أكلِ" أحدِهما الآخر يمكن أن تُدانيَ الحقيقةَ على نحوٍ رهيب.

٦

الحبُّ الإلهيُّ

كتبَ وليَم مُورِس (William Morris) قصيدةً عنوانُها "الحبُّ يكفي" (Love is enough)، ويُقال إنَّ أحدَهم علَّق عليها مُوجِزًا بالكلمات قائلًا: "إنَّه لا يكفي". وما تزالُ هذه هي الفكرة الرئيسيَّة في هذا الكتاب. فالمَحبَّات الطبيعيَّة ليست كافيةً بحدِّ ذاتها. ولا بدَّ أن يأتيَ لمساعدة الشُّعور المجرَّد، إذا كان له أن يُبقى عذبًا، شيءٌ آخَرُ يُوصَف أوَّلًا على نحوٍ غامضٍ بأنَّه "لياقةٌ وفِطرة سليمة"، ولكنْ يظهرُ في ما بعد بوَصفه صلاحًا، ثُمَّ أخيرًا بوَصفه كاملَ الحياة المسيحيَّة في علاقةٍ مخصوصةٍ واحدة.

وبقَولِنا هذا لا نُقلِّل من شأن المَحبَّاتِ الطبيعيَّة، بل نُشير إلى مكمن مجدها الحقيقيّ. فليسَ إهانةً لبُستانٍ أن نقولَ إنَّه لن يُسَيِّجَ ويُعشِّبَ ذاته، ولَن يُشذِّبَ أشجارَهُ المُثمِرة، ولن يفرش مَرجاتِه ويَجزَّها. إنَّ البُستانَ شيءٌ صالح، ولكنْ ليس ذلك نوعَ الصلاح الذي في حَوزته. وهو سيبقى بُستانًا، مُتميِّزًا عن الوعر، فقط إذا عمل أحدٌ به

تلك الأمور كلّها. فإنَّ مجده الحقيقيَّ ذو نوعٍ مُختلفٍ تمامًا. وحقيقةُ كَونه يحتاج إلى تعشيب وتشذيب كلَّ حينٍ تؤدّي بذاتها الشهادةَ لذلك المجد. إنَّه مُفعَمٌ بالحياة، إذ يتألَّق بألوانٍ زاهية وتفوحُ منهُ روائحُ الفِردَوس، ويعرض في كلِّ ساعةٍ من أيّام الصَّيف الصافية جَمالاتٍ ما كان في وسع الإنسان قطُّ أن يُبدِعَها، بل ما كان في وسعه أيضًا- بموارده الذاتيَّة- أن يتصوَّرها على الإطلاق. وإن شئتَ أن ترى الفرقَ بين عطاء البُستان وعطاء البُستانيّ، فضَعْ أوضعَ عُشبٍ يُطلعُهُ جنبًا إلى جنبٍ مع مجرَفة البُستانيِّ ورَفشه ومِجَزّه وكيسِ مُبيد الأعشاب الضارَّة لَدَيه، تكُنْ قد وضعتَ الجمالَ والطاقة والخصبَ بقُربِ أشياءَ هامدة جامدة عقيمة. على هذا الغِرار تمامًا، تبدو "لياقتنا وفِطرتُنا السَّليمة" كالحةً وشاحِبةً شُحوبَ الموت إلى جنب حيويَّة الحُبِّ وسخائه. وعندما يكون البُستان في كامل مجده، فإنَّ عطاءات البُستانيِّ لذلك المجد ستبقى بمعنًى من المعاني مُشابهةً جزئيًّا لعطاءات الطبيعة. فلَولا انبثاقُ الحياة من الأرض، ولولا نزولُ المطر والنُّور والحرارة من السماء، ما كان يَسَعُه أن يفعلَ أيَّ شيء. حتَّى إذا فعلَ كلُّ ما فعله، يكون فقط قد نشَّط هُنا وثبَّط هُناك قوًى وجمالاتٍ مختلفةَ المصدر. غير أنَّ مشاركتَه، وإن كانتْ يسيرة، لا يُستغنَى عنها وتتَّسمُ بالكدِّ والكَدح. فلمَّا غرس الله بُستانًا (جَنَّة) أقام عليه إنسانًا، ووضعَ الإنسانَ تحت رئاسته الإلهيَّة. ولمَّا غرسَ بُستانَ طبيعتنا الإنسانيَّة وجعلَ المحبَّاتِ المُزهرةَ والمُثمرةَ تنمو هناك، أقام إرادتنا كي "تتعهَّدها". وهذه، مُقارنةً بهنَّ، جامدةٌ وباردة.

وما لم تهبط نعمتُه، كالمطر ونُورِ الشمس، نستعملُ هذه الأداةَ لنَفعٍ قليل. غير أنَّ خدماتِها الجاهدة- والسلبيَّة في معظمها- لا يُستغنَى عنها. وإذا دعت إليها الحاجةُ حين كان البستانُ ما يزال فِردَوسيًّا، فكم بالأحرى الآن بعدما فسدَت تُربتُه ويبدو أنَّ أسوأَ الأعشاب تزدهر فيه أحسنَ ازدِهار؟ ولكنْ لا سمحتِ السماءُ بأن نشتغلَ بروحيَّة المُتزمِّتين والرَّواقيِّين! فبينَما نشقُّ الأرض ونُشذِّب الشَّجَر، نَعلم جيِّدًا أنَّ ما نشقُّه ونُشذِّبه عظيمٌ بَروعةٍ وحيويَّةٍ ما كان قطُّ في وسع إرادتنا العاقلة أن تُوفِّرهما من تلقاء ذاتها. فأنْ نُحرِّر تلك الرَّوعة، وأن ندعها تصير ما تُحاول أن تكونَه تمامًا، وأن تكون لنا أشجارٌ باسقة بدلًا من الجَنَبات الشائكة، وتُفّاحٌ حُلوٌ بدلًا من التُّفّاح البَرِّيّ، ذلك كُلُّه جزءٌ من غرضنا.

ولكنَّه جزءٌ فحسْب. إذ ينبغي الآن أن نواجه موضوعًا طالما أرجأتُه. فحتَّى الآن، لم نقُل في هذا الكتاب أيَّ شيءٍ تقريبًا عن محبَّاتنا الطبيعيَّة بصفتها مُنافساتٍ لمحبَّة الله. ولم يعُد ممكنًا الآن أن نتجنَّب السؤال بَعد. وقد كان لتمُّهلي سببان.

أمّا السبب الأوَّل- وقد سبق التلميحُ إليه- فهو أنَّ هذا السؤال ليس المكانَ الذي فيه ينبغي أن يبدأ معظمُنا. ونادرًا ما يكون، في أوَّل الطريق "مُناسبًا لظرفنا". إذ إنَّ المنافسة الحقيقيَّة، بالنِّسبة إلى معظمنا، تكمن بين الذات والآخَرِ البشريِّ، وليس بَعدُ بين الآخَرِ البشريِّ والله. ومن الخَطِر أن نفرضَ على إنسانٍ واجبَ تخطّي الحُبِّ البشريِّ حين تكمن مَشقَّتُهُ الفعليَّة في الوصول إلى هذا الحدّ. ولا شكَّ أنَّه أمرٌ سهلٌ

كفايةً أن نحبَّ الكائنَ المخلوقَ نظيرَنا أقلَّ ونتصوَّرَ أنَّ هذا حاصلٌ لأنّنا مُتعلِّمون أن نحبَّ الله أكثر، فيما قد يكون السببُ الحقيقيُّ مختلفًا تمامًا. فربَّما نكون فقط "حاسبينَ بالغَلَط تَردِّيات الطبيعة ازديادًا في النِّعمة". وكثيرون لا يَستَصعِبون فعلًا أن يكرهوا زوجاتِهم أو أمَّهاتهم. وقد صوَّر فرَنسوَا مُورياك (François Mauriac)- حامل جائزة نوبل للأداب عام ١٩٥٢- في مشهدٍ مُتقَن، سائرَ تلاميذ السيِّد المسيح، ما عدا يَهُوذا الإسخريوطيّ، مَصعُوقين ومُتَحيِّرين حيالَ هذه الوصيَّة الغريبة، فيما تقبَّلها يهوذا بسهولة.

إنَّما كان من شأن التشديد على المُنافسة في مَوضِع سابق من هذا الكتاب أن يكون سابقًا لأوانه بطريقةٍ أخرى أيضًا. فإنَّ ادِّعاء الأُلوهيَّة الذي تدَّعيه محبَّاتُنا بكلِّ سهولة يمكن أن يُدحَض دون الوصول إلى ذلك الحدّ. إذ تُثبِتُ المحبَّاتُ أنَّها غيرُ جديرة باحتلال مَقام الله، وذلك بحقيقةِ كَونِها لا تستطيع حتَّى البقاءَ على طبيعتها والقيامَ بما وعدت به من دون معونة الله. فلماذا نبرهن أنَّ أميرًا صغيرًا ضعيفًا ليس هو الإمبراطورَ الشرعيَّ حين لا يستطيع من دون دعم الإمبراطور له أن يصونَ حتَّى عرشَهُ الثانويَّ ويُحلَّ السلام في مقاطعته الصغيرة مدَّةَ نصف سنة؟ فالمحبَّات، حتَّى في سبيل ذاتها، يجبُ أن ترضى بأن تكون أشياءَ ثانية إن كان لها أن تبقى الأشياءَ التي تُريد أن تكونَها. وفي الخضوع لهذا النِّير تكمنُ حرِّيَّتُها الحقيقيَّة؛ فهي "أطولُ حينَ تَنحني". فعندَما يملك الله في قلبِ إنسان، وإن كان ينبغي أحيانًا أن

يعزلَ بعضًا من سُلطاته المحلِّيَّة كلِّيًّا، فغالبًا ما يُبقي سِواها في مناصبها، وبإخضاع سلطانها لسُلطانه يوفِّر لها في أولى المرَّات أساسًا راسخًا. وقد قال الشاعر رالف إمَرسون (Ralph Emerson): "حينَ ترحل أنصافُ الآلهة، تحلُّ الآلهة". غير أنَّ هذه مَقولةٌ مشكوكٌ فيها. فأفضلُ أن يُقال: "حين يحلُّ الله (وحينئذٍ فقط) تستطيعُ أنصافُ الآلهة أن تبقى". وإنْ تُرك هؤلاء وحدَهم، فإمَّا أن يتلاشَوا وإمَّا أن يصيروا شياطين. فباسْمه فقط يُتاح لهم أن "يستخدموا ببراعة رماحهم الصغيرة الثُلاثيَّة الشُّعَب" على نحوٍ جميلٍ وآمِن. أمَّا الشِّعار التمرُّديُّ "الكلُّ في سبيل الحُبّ" فهو بالحقيقة تفويضُ مَوت الحُبّ (حيث خانةُ تاريخ الإعدام حاليًّا مَتروكةٌ فارغة).

ولكنَّ مسألة المنافسة، بعدما أُرجئت طويلًا لهذين السببين، يجب أن تُعالَجَ الآن. ففي أيَّة مرحلةٍ سالفة، ما عدا القرن التاسع عشر، كان من شأنها أن تبدوَ ضخمةً في كتابٍ يتناول هذا الموضوع. وإذا احتاجَ أهلُ العصر الڤيكتوريِّ إلى التذكير بأنَّ الحُبَّ لا يكفي، فقد كان اللَّاهوتيُّون الأقدمُ عهدًا يقولون بصوتٍ عالٍ جدًّا إنَّ الحُبَّ (الطبيعيَّ) يُرجَّح أن يُجاوزَ الحدَّ بمقدارٍ فائق. إذ إنَّ خطرَ محبَّتنا للكائناتِ المخلوقة نظيرَنا بمقدارٍ ضئيلٍ جدًّا كان أقلَّ مُثولًا في أذهانهم من خطر محبَّتنا لتلك الكائنات بطريقةٍ وثنيَّة وقد رأوا في كلِّ زوجة وأُمٍّ وولَد وصديقٍ مُنافسًا مُحتَمَلًا لله. وهكذا فعل ربُّنا من غيرِ رَيب (لوقا ١٤: ٢٦).

ثَمَّة أسلوب واحدٌ لِرَدعنا عن محبَّة إخواننا من البَشَر أجِدُني مُضطرًّا

إلى رفضه منذ البداية تمامًا. وأنا أفعل هذا مُرتعدًا، لأنَّ ذلك الأُسلوبَ قابلَني على صفحاتِ قدّيسٍ عظيم ومُفكّر كبير لا تُحصَى ديوني السارَّة له.

ففي كلماتٍ في كتاب "اعترافات ٤، ١٠" (Confessions IV. 10) ما تزالُ قادرةً على إدماع العُيون، يصف القدّيس أوغسطينوس (St Augustine) الوحشةَ التي أغرقه فيها موتُ صديقه نبريديوس (Nebridius). ومن ثَمَّ يستخلص عبرة، فيقول إنَّ ذلك هو ما ينجمُ عن إعطاء القلب لأيِّ شخصٍ سوى الله. إنَّ جميعَ البشر يَرحلون، فلا تَدَع سعادتك تتوقَّف على شيءٍ قد تَفقده. فإنْ كان للصداقة أن تكونَ بَرَكةً، لا بؤسًا، وجب أن تُخصَّصَ للحبيب الوحيد الذي لن يرحل أبدًا.

لا ريبَ في أنَّ لذلك مَعنًى مُمتازًا. لا تُحمِّلْ بضائعك في سفينة فيها تسريب. ولا تُنفِقْ ما يفوقُ الحدَّ على بيتٍ قد تُطرَد منه. وليس من إنسانٍ حيٍّ يستجيب لمثل هذه الأمثال الحكميَّة بصورة طبيعيَّة أكثرَ من طريقة استجابتي لها. فأنا مَخلوقٌ يطلب السلامة أوَّلًا. ومن بين جميع الحُجَج المُناقضَة للحُبّ، ليس من واحدة تُخاطِبُ طبيعتي كتلك القائلة: "حذارِ! قد يؤدّي هذا بك إلى المُعاناة".

بالنِّسبة إلى طبيعتي، أو مزاجي، نَعَم. أمَّا بالنِّسبة إلى ضميري فلا. فعندما أستجيبُ لتلك المُناشَدة أبدو لنفسي بعيدًا عن السيِّد المسيح أكثر من ألف كيلومتر. وإنْ كنتُ على يقينٍ بأيِّ شيء، فأنا على يقينٍ بأنَّ تعليمَه لم يُقصَد به قطُّ أن يؤيِّدَ إيثاري الفطريَّ للاستثمارات السليمة والحدِّ من الأخطار المُمكنة. وأنا أرتابُ إنْ كانَ في أيِّ شيءٍ

يَسُرُّ السيِّد المسيحَ أقلَّ. ثُمَّ مَن يستطيع، على نحوٍ يمكن تصوُّره، أن يبدأ يُحبُّ الله على مثل هذا الأساس المُتبصِّر في عواقب الأمور: لأنَّ السَّلامة (إن جاز التعبير) أفضل؟ ومَن يستطيعُ حتَّى تضمينَها بين دواعي المحبَّة؟ أتُقدمُ على اختيارِ زوجةٍ أو صديق إن توقَّف الأمرُ على ذلك؟ أم هل تُقدِمُ على اختيار حيوانٍ أليف من هذا المُنطلَق؟ لا بدَّ أن يكون المرءُ خارجَ عالَم الحُبّ، عالَم المحبَّاتِ كلِّها، قبل احتساب الأمور على هذا النَّحو. حقًّا إنَّ الغَرامَ الجامح، إذ يؤثِرُ المحبوبَ على السَّعادة، هو أكثرُ من هذا مُشابهةً للمحبَّة نَفسه!

أعتقد أنَّ هذه الفقرة في "الاعترافات" هي أقلُّ انتماءً إلى مسيحيَّة (Christendom) أوغسطينوس من كونها بعضَ مُخلَّفات الفلسفات الوثنيَّة المُترفِّعة التي شبَّ عليها. فهي أقربُ إلى "فُتور الشُّعور" الرُّواقيِّ، أو تصوُّف الأفلاطونيَّة المُحدَثة، منها إلى المحبَّة المسيحيَّة. ونحن أتباعُ شخصٍ بكى على أورشليم وعندَ قَبرِ لعازر، ومع أنَّه كان مُحبًّا للجميع فقد كان لديه تلميذٌ "أحبَّه" بمعنًى مخصوص. وللرَّسول بولس عندَنا مَرجعيَّة ذاتُ سُلطانٍ أعلى من مَرجعيَّة القدّيس أوغسطينوس؛ والأوَّلُ لم يُبدِ أيَّةَ علامةٍ على أنَّه ما كان ليَتألَّم كإنسان، ولا أيَّ شُعورٍ على أنَّه كان ينبغي ألَّا يتألَّم هكذا، لو أنَّ أبفرودِتُس تُوفِّي في مَرَضه (فيلبِّي ٢: ٢٧).

حتَّى لو سلَّمنا جَدَلًا بأنَّ الضَّمانات ضدَّ الغَمِّ كانت حكمتَنا الأسمى، فهل الله نفسَه يُقدِّمها إلينا؟ على ما يبدو، لا. فقد وصلَ السيِّد المسيح أخيرًا إلى حيثُ قال: "لماذا تركتَني؟".

ليس من مَفَرٍّ على السَّبيل الذي يقترحه القدّيس أوغسطينوس، ولا على أيِّ سبيلٍ آخر. وما من استثمار سليم مأمون. فأن نحبَّ الجميعَ هو أن نكون مُنكشفين ومُنجرحين. أحببْ أيَّ شيء، ولَسوفَ يُعصَر قلبُك حتمًا، وقد يُكسَر. وإن شئتَ أن تُعنى فعلًا بإبقائه سليمًا من أيِّ أذًى، فيجب عليك ألّا تُعطيَه لأحد، ولا حتّى لحيوانٍ أليف. لُفَّه جيِّدًا بالهوايات ووسائل التَّرَف اليسيرة؛ تجنَّبْ جميع الأشراك؛ أقفِل عليه بإحكام داخل صندوق أنانيَّتك أو تابوتها. ولكنَّه في ذلك الصُّندوق- حيثُ الأمان والظلام وسكون الحركة والهواء- سوف يتغيَّر. فهو لن ينكسر، بل يصيرُ غيرَ قابلٍ للانكسار والاختراق والافتداء. فبديلُ المأساة، أو على الأقلّ بديلُ مغامرةِ المأساة، هو الهلاك. والمكانُ الوحيد خارجَ السَّماء ذاك الذي فيه تستطيع أن تكون في مأمَنٍ تامٍّ من جميع أخطار المحبَّة واضطراباتها هو جهنَّم.

وفي اعتقادي أنَّ أكثرَ المَحبَّات جُموحًا وتَطرُّفًا هي أقلُّ تعارُضًا مع مشيئة الله من اللّامحبَّة التي نستدعيها بأنفُسنا لحماية أنفُسنا. فذلك يُشبِه طَمْرَ الوزنة ملفوفةً بمنديل، وللسَّبب عَينه إلى حدٍّ بعيد: "عرفتُ أنَّك إنسانٌ قاسٍ". والسيِّد المسيحُ لم يُعلِّم ويتألَّم ليُتاحَ لنا أن نصير، ولو في المَحبَّات الطبيعيَّة، أحرَصَ على سعادتنا الذاتيَّة. فإنْ لم يكُنِ الإنسانُ غير مُحتَسِبٍ لشيء تُجاهَ كلِّ محبوبٍ على الأرض رآه بعَينيه، فلَن يكونَ البتَّةَ أكثرَ مَيلًا لأن يكون هكذا تُجاهَ الله الذي لا يراه أبدًا. ونحن سنَقتربُ من الله أكثر، لا بمُحاولَتِنا أن نتجنَّبَ المُعاناة القائمةَ في

صُلبِ جميع المَحبَّات، بل بتقبُّلها وتقديمها إلى الله، نابذين كلَّ سِلاحٍ دفاعيّ. فإن كان لا بدَّ أن تُكسَر قلوبُنا، وإن شاء الله أن تكون هذه هي الطريقة التي بها ينبغي أن تنكسر، فليكُن كذلك.

إنَّما يبقى صحيحًا بالتأكيد أنَّ جميع المَحبَّات الطبيعيَّة يمكن أن تكونَ جامحة. وصِفَةُ الجُموح لا تعني "الاحتراسَ على نحوٍ غير كاف"، كما لا تعني أيضًا "أكبرَ من المُعتاد". فليسَتْ هذه لفظةً تتعلَّق بالكَمِّيَّة. وربَّما كان مستحيلًا أن نحبَّ أيَّ كائنٍ بشريٍّ "فوقَ الحَدّ" فحسْب. قد نحبُّه فوقَ الحدِّ بالنِّسبة إلى محبَّتنا لله، ولكنَّ قِوامَ الجُموح هو صِغَرُ محبَّتنا لله، لا عِظَمُ محبَّتنا للإنسان. ولكنْ حتّى هذا ينبغي أن يُحسَّن. وإلّا فقد نُزعِجُ قَومًا يسلكون الطريقَ الصحيح إلى حدٍّ بعيد، ولكنَّهم لا يستطيعون أن يشعروا تُجاه الله بعاطفة محسوسة مُتَّقدة جدًّا كالتي يشعرون بها تُجاه المحبوب الأرضيّ. لا بدَّ أن نتمنَّى كثيرًا- أو على الأقلّ أنا أعتقد هذا- لو تسنَّى ذلك لنا جميعًا كلَّ حين. ويجب أن نُصلّيَ طالبينَ أن نُعطى هذه العطيَّة. غير أنَّ السؤال عن كَوننا مُحبِّين "أكثر" لله أو للمحبوب الأرضيّ، ما دام الأمر مُتعلِّقًا بواجبنا المسيحيّ، ليس سؤالًا عن حدَّة نسبيَّة لشعورَين. إنَّما السؤال الحقيقيُّ هو (عندما يأتي البديل): أيَّ المَحبوبَين تخدم، أو تختار، أو تضعُ في المَقام الأوَّل؟ ولِحَقِّ أيٍّ منهما تَستسلم إرادتُكَ في نهاية المطاف؟

وكما هي الحال أغلب الأحيان، فإنَّ كلمات ربِّنا هي في آنٍ معًا أكثرُ صرامةً وأكثرُ احتمالًا بكثيرٍ من كلمات اللّاهوتيِّين. فهو لا يقول شيئًا

عن الاحتراس من المحَبّات الأرضيَّة خشيةَ أن نتأذّى؛ بل يقول كلامًا يُفرقع كالسَّوط عن دَوسها جميعًا تحت أقدامنا لحظةَ تَثنينا عن اتّباعه: "إن كان أحدٌ يأتي إليَّ ولا يبغض أباه وأمَّه وامرأته... حتَّى نفسَهُ أيضًا، فلا يقدر أن يكون لي تلميذًا" (لوقا ١٤: ٢٦).

ولكنْ كيف ينبغي لنا أن نفهم الكلمة "يُبغض"؟ أنْ يكونَ المحبَّةُ نفسُه مُوصيًا بما نفهمه عادةً من البُغض- مُوصيًا إيّانا بأن نكنَّ الغيظَ ونَشمتَ ببؤس آخَر ونُسَرَّ بإيذائه- أمرٌ يكاد أن يكون تُعارُضًا في الألفاظ. وأنا أعتقد أنَّ ربَّنا، بالمعنى المقصود هنا، "أبغضَ" الرسولَ بطرس إذ خاطبه قائلًا: "اذهَب عنّي!" فأنْ يُبغِضَ المرءُ هو أن يُبدِيَ مُمانَعةً للمحبوب، أن يجعلَ وجهَه ضدَّه، ألّا يُذعِن له، حين يتفوَّه المحبوبُ باقتراحاتِ إبليس، مهما فعلَ ذلك بُعذوبةٍ وبطريقةٍ مُثيرة للشَّفقة. وقد قال السيِّد المسيح إنَّ الشخصَ الذي يُحاوِل أن يخدمَ سيِّدَين لا بدَّ أن "يُبغِضَ" الواحد و"يحبَّ" الآخر. ويقينًا أنَّ المُتكلِّمَ عنه هنا ليس مجرَّدَ مشاعر البُغض والحُبّ. فإنَّ ذلك الشخص لا بدَّ أن يُلازِمَ أحدَ السيِّدَين دونَ الآخر، ويخضَعَ له، ويشتغل عنده. ولْنُفكِّرْ أيضًا في قَول الربِّ: "أحببتُ يعقوب وأبغضتُ عيسو" (ملاخي ١: ٢-٣). كيفُ عُرِض ما يُدعى "بُغْضَ" الله لعيسو في القصَّة الفعليَّة؟ ليس البتَّة كما قد نتوقَّع. لا أساسَ بالطَّبع للافتراض أنَّ عيسو قد وصل إلى آخرةٍ سيِّئة وأنَّه كان نفسًا هالكة؛ فليس لكتاب العهد القديم- هُنا كما في سائر المواضع- ما يقوله بشأن أمورٍ من هذا القبيل. ومن كُلِّ

ما نُطلَع عليه، كانت حياةُ عيسو الأرضيَّة- بكلِّ معنًى مألوف- مُبارَكةً أكثرَ من حياة يعقوب الأرضيَّة إلى حدٍّ بعيد. فيَعقوب هو مَن لقيَ كلَّ نوعٍ من الخَيبة والذُّلِّ والهَولِ والحِرمان. ولكنْ كان له شيءٌ لم يكُن لعيسو. فهو واحدٌ من الآباء الأوَّلين. إنَّه سلَّمَ التُراثَ العبريّ، ونقلَ الدَّعوة والبَرَكة، وصارَ أحدَ أسلاف ربِّنا يسوع. فيَبدو أنَّ "محبَّة" الربِّ ليَعقوب تعني قبولَه لأجل دَعوةٍ سامية (ومؤلِمة)؛ وأنَّ "بُغضَ" عيسو يعني رفضه. إنَّه "يُرَدُّ خائبًا"، و"يَرسب في الامتحان"، ويُوجَدُ غيرَ نافعٍ للغَرَض. هكذا، في نهاية المطاف، علينا أن نخذلَ الأقرَبين إلَينا والأعزّاءَ عندنا حين يعترضون بينَنا وبين طاعتنا لله. وفي علم السَّماء أنَّ ذلك سيَبدو لهم بَقدْرٍ كافٍ كأنَّه بُغض. فيجب ألّا نتصرَّف بمُقتضى الشَّفقة التي نشعر بها؛ ويجب أن نُشيحَ أنظارَنا عن دموعهم ونصمَّ آذانَنا عن توسُّلاتهم.

لن أقول إنَّ هذا الواجبَ صَعب؛ فبَعضٌ يجدونه سهلًا جدًّا، وبعضٌ صعبًا على نحوٍ لا يَكاد يُحتمَل. أمَّا ما هو صعبٌ بالنِّسبة إلى الجميع فهو أن يعرفوا متى تكون المُناسَبة لبُغضٍ كهذا قد نشأت. إذ إنَّ أمزِجتَنا تُضلِّلُنا. فالوُدَعاء واللُّطفاء-من أزواجٍ مَفتونين بزَوجاتهم وزَوجاتٍ خاضعات وآباءٍ وأمَّهاتٍ ذوي شَغَف وأولادٍ مُطيعين- لن يُصدِّقوا بسهولة أنَّ تلك المُناسَبة قد حلَّت أصلًا. أمَّا الأشخاصُ المتعنِّتون والمتمسِّكون بآرائهم، بما فيهم من اندفاع المُستأسِدين، فإنَّهم سيُصدِّقون ذلك بسرعةٍ زائدة. ولذلك كان أمرًا بالغَ الأهمِّيَّة أن نُنظِّم

محبّاتنا بحيثُ يُستبعَدُ حُلولُها نهائيًّا.

أمّا كيف يمكن أن يحصلَ ذلك فأمرٌ يمكن أن نُدركَه على مُستوًى أدنى بكثير عندما يقول الشاعرُ الفارس لحبيبته وهو مُنطَلِقٌ إلى الحرب:

حبيبتي، ما كان في وُسعي أن أحبَّكِ هذا الحُبَّ الأكبر،

لو لم أكُن قد أحببتُ الشَّرَفَ حُبًّا أكثر!

هنالك نساءٌ ستَبدو هذه الحُجَّةُ لهنَّ بلا معنى. فمن شأن "الشرف" أن يكون مجرَّدَ واحدٍ من تلك الأمور السخيفة التي يتحدَّث الرِّجال بشأنها؛ عُذرًا كلاميًّا- ومن ثَمَّ مُفاقمةً- للمَعصية التي يوشك الشاعر أن يرتكبَها بحقِّ "شريعة الحُبّ". وقد كان في وُسع لَفْلايْس (Lovelace)، الشاعرُ الفارس، أن يستخدمَ تلك الحُجَّة بثقةٍ، لأنَّ سيِّدتَه هي سيِّدةٌ فارسة تعترف أصلًا، كما يعترف هو، بحقوق الشَّرَف. ولا داعيَ لأنْ "يُبغِضَها"، ويجعلَ وجهَهُ ضدَّها، لأنَّهما كلَيهما يعترفانِ بالشَّريعة عَينها. فقد اتَّفقا على هذه المسألة وفَهِمَ أحدُهما الآخرَ بشأنها قبل ذلك بزمانٍ طويل. ومَهمَّة هدايتها إلى إيمانٍ بالشَّرَف لا ينبغي أن تُؤدَّى الآن- الآن فيما القرارُ مفروضٌ عليهما. هذا الاتِّفاقُ السابق هو الذي تدعو إليه الضَّرورة جدًّا حين يكون على المحكّ هو أعظمُ بكثيرٍ من حقوق الشَّرَف. فحين تأتي الأزمة، يكون قد فات الاوانُ للبدء بإطلاعِ زوجةٍ أو زوجٍ أو أمٍّ أو صديقٍ على أنَّ حبَّك ما يزالُ خاضعًا لتحفُّظٍ سرِّيّ: "تحتَ سيادة الله" أو "بقدْرِ ما

يسمح حُبٌّ أعظم". إنَّما كان ينبغي أن يُنبَّه أولئك؛ لا بصراحةٍ من دون رَيب، بل بالتنويهات التي يتضمَّنُها ألفُ حديث، وبالمبدإ المُبدَى في مئة قرار بشأن الأمور اليسيرة. وبالحقيقة أنَّ اختلافًا حقيقيًّا في الرأي بشأن هذه المسألة ينبغي أن يتبدَّى على نحوٍ ملموس في وقت مُبكّر كفايةً بحيث يحول دون حصول زواجٍ أو صداقةٍ على الإطلاق. فالحُبُّ الأفضلُ في كِلا هذَين ليس أعمى. وقد تكلَّم أوليڤر إلتون (Oliver Elton) عن توماس كارلايل (Thomas Carlyle) وجون ستيوارت مل (John Stewart Mill) فقال إنَّهما اختلفا بشأن العدالة، وإنَّ اختلافًا كهذا كان على نحوٍ طبيعيٍّ مُدمِّرًا "لأيَّة صداقة جديرة باسمها". فإنْ كان "الكلُّ (الكلُّ على نحوٍ غاية في الجِدِّيَّة) في سبيل الحبّ" مبدأً ينطوي عليه ضمنيًّا مَوقف المحبوب، فإنَّ حبَّه- أو حبَّها- ليس جديرًا بأن يُحاز. إذ لا يكونُ على ترابُطٍ بالمحبَّة نفسه بالطريقة الصَّحيحة.

وهذا يُوصلني إلى سَفحِ آخرِ مُرتَقًى شديدِ الانحدار لا بدَّ لهذا الكتاب من أن يُحاولَ صعودَه. فعلَينا أن نحاولَ ربْطَ الأنشطة البشريَّة المدعوَّة "محبَّات" بتلك المحبَّة التي هي الله، على نحوٍ أدقَّ قليلًا ممّا قد قُمنا به حتَّى الآن. ولا ريبَ أنَّ الدقَّة لا يمكن أن تكونَ إلَّا دقَّةَ مثالٍ أو رمزٍ من المؤكَّد أنَّه سيَخذلُنا في نهاية المطاف، ويقتضي تصحيحًا يُميِّزه عن النماذج الأخرى، حتَّى فيما نحن نستخدمه. فإنَّ أبسطَ واحدٍ بينَنا، في حال نعمةٍ من عند الله، يستطيع أن يحوزَ شيئًا من معرفة المحبَّةِ نفسه بواسطة التَّعرُّف، أو "التَّذوُّق". ولكنَّ الإنسان- حتَّى في

ذُورة قداسته وذكائه- لا يحوزُ معرفةً إدراكيَّةً بشأن الكائن الأسمى، بل مجرَّد مُشابَهات تمثيليَّة يَقيسُ عليها. فلَيسَ في وُسعنا أن نرى النُّور، مع أنَّنا بواسطة النُّور نستطيع أن نرى الأمور. والتَّصريحات المتعلِّقة بالله هي خُلاصاتٌ استقرائيَّة من معرفة أمور أخرى تُمكِّننا الإنارةُ الإلهيَّة من معرفتها. فأنا أتطرَّقُ إلى هذه الانتقاصات المُجهِدة، لأنَّ مجهوداتي في ما يلي لإيضاح المقصود (مع تجنُّبِ الإطالة بلا طائل) قد توحي بثقة لا أشعر بها على الإطلاق. ولو شعرتُ بها لكنتُ مجنونًا. فاقبَلْ هذه المجهودات كما لو كانت حُلمَ يقظة لاحَ لواحدٍ من الناس، بل شِبهَ أُسطورةٍ حَبَكَها. وإنْ كان فيها أيُّ شيءٍ يُفيدُك، فاستَفِد منها؛ أمَّا إن لم يكُن، فلا تُعِرها فكرةً ثانية.

الله محبَّة. وأيضًا: "في هذا هي المحبَّة: ليس أنَّنا نحن أحببنا الله، بل أنَّه هو أحبَّنا" (١يوحنَّا ٤: ١٠). فيجبُ ألَّا نبدأ بالتصوُّف، ولا بمحبَّة المخلوق لله، ولا بالتمتُّعات الأوَّليَّة بسخاء الله العجيب كما يُغدَق على قوم في الحياة الأرضيَّة. إنَّما نبدأ من البداءة الصَّحيحة، بالمحبَّة على أنَّها طاقةٌ إلهيَّة. فهذه المحبَّة الأساسيَّة هي "محبَّةُ مَنح". إذ ليس في الله جُوعٌ يقتضي أن يُشبَع، بل مجرَّدُ وَفرة وافرة ترغبُ في العطاء. فالعقيدة القائلة إنَّ الله لم يكُن تحتَ ضَرورة لأنْ يخلق ليست قطعةً من تَخزُّرات العُلَماء الجافَّة، بل هي جوهريَّةٌ حقًّا. ولَولاها ما أمكننا تقريبًا أن نتجنَّبَ ذلك المفهومَ الذي لا أملك إلَّا أن أُسمِّيَهُ "مفهوم الإله الإداريّ": كائنٌ وظيفتُه أو طبيعتُه هي أن "يُدير" الكون، وهو يقف من هذا

الكَون مَوقفَ مُديرٍ من مدرسة أو صاحب فندقٍ من فُندقه. ولكنْ أن يكونَ الله مَلِكَ الكون ليس أمرًا عظيمًا عندَه. ففي ذاته، في موطنه "ببلاد الثالوث الأقدَس"، هو مَلِكٌ مُهيمِنٌ على عالَم أعظم بكثيرٍ جدًّا. ويجب أن نُبقيَ نُصبَ عيوننا دائمًا رؤيا السيِّدة جُوليان (Lady Julian) تلك التي فيها لاحَ الله حاملًا بيَده شيئًا صغيرًا كأنَّه جَوزة، وأنَّ تلك الجوزة هي "كلُّ ما قد صُنع". فإنَّ الله، وهو غيرُ مُحتاج إلى شيء، أوجَدَ بمحبَّته خلائقَ غيرَ ضروريِّين تمامًا لكي يحبَّهم ويُكمِّلهم. إنَّه يخلقُ الكونَ وهو يرى مُسبَّقًا- أم ينبغي أن نقول "وهو يرى" فحسْب لأنْ ليس لدى الله صِيَغُ زمان؟- غمامةَ الذَّبَّان وهي تَطِنُّ حول الصَّليب، والظهرَ المُسلَّخَ مشدودًا إلى العمودِ الخَشِن، والمساميرَ مُخترِقةً الأعصابَ الوُسطى، والاختناقَ الأوَّليَّ المتكرِّر فيما الجَسَدُ يتدلَّى، ونوباتِ الألَم في الظَّهر والذِّراعين إذ تُنخَعُ إلى فوقُ مرَّةً بعد مرَّة لأخذ النَّفَس. وإن كان لي أن أجرؤَ على استخدام صورةٍ بيانيَّة بيولوجيَّة، قلتُ إنَّ الله هو "مُضيفٌ" خلقَ طُفيليَّاته الخاصَّة عمدًا؛ إذ أوجَدَنا حتَّى يُتاحَ لنا أن نستغلَّه ونستفيدَ منه. ففي هذا هي المحبَّة. وهذا هو الرَّسمُ البيانيُّ للمحبَّة نفسِه، مُوجِدِ جميعِ المحبَّات.

إنَّ الله، بصفته خالقَ الطبيعة، يغرس فينا محبَّاتِ المَنح ومحبَّات الاحتياج على السَّواء. ومحبَّاتُ المَنح هي صُوَرٌ طبيعيَّة له؛ قَراباتٌ له بالمُشابَهة ليست بالضرورة وفي جميع الناس قَراباتِ اقتراب. فإنَّ أمَّا مُتفانية، وحاكمًا أو معلِّمًا خيِّرًا، قد يُعطُونَ ويُعطون، مُبدين المُشابهةَ

كلِّ حين، من دونِ إحراز الاقتراب. أمَّا محبَّاتُ الاحتياج- بقدْرِ ما تمكَّنتُ من رؤيته- فليسَ فيها أدنى مُشابهةٍ للمحبَّة نفسه، أي لله. إنَّما هي بالأحرى انعكاساتٌ لها أو نقائض، ليس بالطَّبع كما أنَّ الشرَّ هو نقيضُ الخير، بل كما أنَّ شكل المُقولَب هو نقيضُ القالب.

ولكنْ فضلًا عن هذه المحبَّات الطبيعيَّة، في وُسع الله أن يمنحَنا عطيَّةً أفضل بكثير جدًّا؛ بل بالأحرى عطيَّتَين- ما دامت عقولُنا يجبُ أن تُقسَّمَ وتُصنَّف.

فإنَّ الله يمنحُ البَشَر حِصَّةً من محبَّة المَنح الخاصَّة التي له. وهذا يختلف عن محبَّات الاحتياج التي ركَّبها في طبيعتهم. فإنَّهنَّ لا يطلبنَ البتَّة ببساطة خيرَ الغَرَضَ المحبوب من أجل الغَرَضَ ذاته. وهُنَّ يَنحَزنَ إلى مصلحة تلك الخيرات التي يستطعن هُنَّ أنفسُهنَّ أن يمنحنَها، أو تلك التي من شأنهنَّ أن يُحببنَها هُنَّ أفضلَ حُبّ، أو تلك التي توافق صورةً سبق تَصوُّرها عن الحياة التي يُردن للغَرَض أن يعيشها. غير أنَّ محبَّة المنح الإلهيَّة- المحبَّةَ نفسَه عاملًا في إنسان بعَينه- مُتجرِّدةٌ تمامًا وترغبُ في ما هو الأفضلُ للمحبوب فحسْب. ثُمَّ إنَّ محبَّةَ المنح الطبيعيَّة تَتوجَّه دائمًا إلى أغراض يجدُهم المُحبُّ مُحَبَّبين جوهريًّا بطريقة ما- أغراضٍ تجتذبُه إليهم العاطفةُ أو الغَرام أو وجهةُ نظرٍ مُشترَكة، أو إذا لم يتوافر ذلك فإلى الشاكرين والمؤهَّلين، أو ربَّما إلى أولئك الذين بؤسُهم هو من نوعٍ كاسبٍ وجاذبٍ جدًّا. أمَّا محبَّةُ المنح الإلهيَّةُ في الإنسان فتُمكِّنُه من أن يحبَّ ما ليس بالطبيعة مُحبَّبًا: المُصابين

بالبَرَص والمُجرمين والأعداء والمُغفَّلين ومُتجهِّمي الوجوه والمُتشامخين والساخرين. وأخيرًا، في مُفارَقة ساميَة، يُمكِّن الله البَشَر من أن تكونَ لهم محبَّةُ مَنحٍ تُجاهَهُ شخصيًّا. لا ريبَ أنَّ هنالك معنًى به لا يستطيع أيُّ إنسان أن يُعطيَ الله أيَّ شيءٍ لا يملكه أصلًا؛ وإنْ كان يملكه أصلًا، فماذا تكون قد أعطيتَ؟ ولكنْ لمَّا كان غنيًّا عن البيان أنَّ في وُسعنا أن نَمنعَ اللهَ من نفوسنا وإراداتنا وقلوبنا، فبهذا المعنى يمكننا أن نُعطيَه إيَّاها جميعًا. فمَا هو له شَرعًا ولم يكُن ليُوجَد لحظةً واحدة لو كفَّ عن أن يكون له (كما أنَّ الأغنيَة هي للمُغنِّي)، قد جعله رُغمَ ذلك لنا بحَيثُ نستطيع أن نُقدِّمه له طَوعًا: "إراداتُنا لنا لكي نجعلَها لك!" وجميع المؤمنين بالسيِّد المسيح يعرفون أنَّ هنالك طريقةً أخرى للعطاء لله؛ فكلُّ غريب نُطعمه أو نكسُوه هو السيِّد المسيح. وهذه، على ما يبدو جليًّا، محبَّةُ مَنح لله، سواءٌ أَعلِمنا ذلك أم لم نعلَم. فالمحبَّة نفسُه يمكنُ أن يعملَ في أُولئك الذين لا يعرفون عنه شيئًا. إذ إنَّ "الخراف" في المَثَل (متَّى ٢٥: ٣١-٤٦) لم تكُن لهم أدنى فكرة لا عن الله مُستَترًا في المحبوس الذي زاروه، ولا عن الله مُستَترًا فيهم هُم عندَ قيامهم بالزِّيارة. (أنا أفهم المَثَل كلَّه باعتباره يتكلَّم بشأن دينونة الأُمَم، لأنَّه يبدأ في الأصل اليونانيِّ بالقول إنَّ الربَّ سوف يستدعي كلَّ "الأُمم" للمثول أمامه، أي الوثنيِّين "غُوييم" (Goyim)- على وجه الافتراض).

أمَّا أنَّ محبَّة مَنح كهذه تأتي من طريق النِّعمة، وينبغي أن تُميَّز باعتبارها حُبًّا إلهيًّا مُحسِنًا معطاءً، فأمرٌ لا بدَّ أن يُوافِق عليه الجميع. إنَّما

ينبغي أن أُضيفَ شيئًا ربَّما لا يُقبَلُ بسهولةٍ بالغة. ذلك أنَّ الله، على ما يبدو لي، يَهَبُ عطيَّتَين أُخريَين: محبَّة احتياج فوطبيعيَّةً (أي فوق طبيعيَّة) له، ومحبَّة احتياجٍ فَوطبيعيَّةً من بعضنا لبعض. ولستُ أعني بالأُولى الحُبَّ التَّقديريَّ لله في ذاته، أي عطيَّةَ التعبُّد. فالقليل الذي سأقولُه في ذلك الموضوع الأسمى- بل الأسمى على الإطلاق- سيأتي لاحقًا. إنَّما أعني محبَّةً لا تحلُم باللَّامبالاة والأنانيَّة، عَوَزًا لا حدودَ له. فكَنَهرٍ يشقُّ قناتَه الخاصَّة، وكخَمرة سحريَّة إذ تُسكَب تَخلقُ في الوقت عينِه الكأسَ التي ستَحويها، يُحوِّلُ الله حاجتنا إليه محبَّةَ احتياجٍ له. وما هو أعجَبُ بَعدُ أنَّه يخلق فينا ما يتخطَّى مجرَّد التقبُّل الطبيعيِّ للمحبَّة المُحسنة (Charity) من قِبَل إخواننا البَشَر. فالاحتياج قريبٌ جدًّا من الطمع، ونحن طمَّاعون أصلًا بحيثُ تبدو هذه المحبَّة نعمةً غريبة. ولكنْ لا يَسَعُني أن أطردَ من ذهني أنَّ هذا هو ما يحصل فعلًا.

فَلْنتأمَّلْ أوَّلًا في محبَّة الاحتياج الفَوطبيعيَّة هذه لله نفسه، وهي تُوهَب لنا بالنِّعمة. لا ريبَ أنَّ النِّعمة لا تُوجِدُ الاحتياج. فهذا موجودٌ أصلًا؛ "مُفترَضٌ" (كما يقول المُشتغلون بالرِّياضيَّات) في مُجرَّد حقيقة كَوننا بَشَرًا مخلوقين، ومُضاعَفٌ بلا حصر بكَوننا خلائقَ ساقطين: وما تؤتيه النِّعمة هو الإدراكُ التامُّ لهذا الاحتياج، التنبُّهُ الواعي إليه، بَل القبولُ الكامل له- وإن كان قبولًا مُبهجًا يشتمل على تحفُّظات مُعيَّنة. فمن دون النِّعمة، تكونُ تمنّياتُنا وأعوازُنا في تضارُب.

إنَّ جميعَ التَّعبيراتِ عن عدم الاستحقاق، تلك التي تضعها

المُمارَسةُ المسيحيَّة في أفواه المؤمنين، تبدو للعالَم الخارجيِّ شبيهةً بالتملُّقات المُنحطَّة والمُنافقة من قِبَل مُتملِّقٍ ذليل أمام طاغيةٍ مُستبِدّ، أو في أحسن الأحوال أُسلوبًا في الكلام على غِرار الاستخفاف بالذَّات لدى شخصٍ صينيٍّ مُحترَم إذ يدعو نفسَه "هذا الإنسانَ الفظَّ والأُمِّيّ". ولكنَّ تلك التعبيرات تُفصِحُ بالحقيقة عن المُحاوَلة المتجدِّدة باستمرار- لكَونها ضروريَّةً باستمرار- في نَقْض المفهوم الخاطئ عن أنفُسنا وعن علاقتنا بالله، ذاك الذي تُزيِّنُه لنا الطبيعةُ دائمًا، حتَّى فيما نحن نُصلِّي. فما إنْ نؤمن بأنَّ الله يحبُّنا، حتَّى ينشأ فينا مَيلٌ لأنْ نعتقد أنَّه يحبُّنا فعلًا، لا لأنَّه هو محبَّة، بل لأنَّنا مُحَبَّبون في جَوهرنا. وقدِ انساق الوثنيُّون لهذا المَيل بلا خَجَل ولا وَجَل؛ فعُدَّ الإنسانُ الصالحُ عندهم "محبوبًا لدى الآلهة" لأنَّه صالح. أمَّا نحن، لكَوننا تَلقَّينا تعليمًا أفضل، فنلجأُ إلى المُناوَرة والمُداورة. حاشا لنا أن نحسبَ أنَّ لنا فضائلَ من أجلها أمكنَ أن يحبَّنا الله. ولكنْ من ثَمَّ كم كانت تَوبتُنا رائعة! فكما قال جون بَنيان في وَصف اهتدائه الأوَّلَ الخادع: "ظننتُ أنْ ليس في إنكلترا كلِّها إنسانٌ أرضى الله أكثر ممَّا أرضَيتُه أنا". وإذ نخيبُ من هذا، نُقدِّم تاليًا تواضُعَنا الشخصيَّ كي يُعجَبَ به الله. لا رَيب أنَّ ذلك سيَروقُه؟ وإن لم يكُن ذلك، فلا بدَّ أن يَروقَه إدراكُنا الجليُّ والمُتَّضِعُ أنَّنا ما نزال نفتقر إلى التواضُع. وهكذا، عُمقًا بعدَ عُمق، وطيَّةً داخلَ طيَّة، تترسَّب لدينا فكرةٌ مُتخلِّفة بشأن جاذبيَّتنا- جاذبيَّتنا الشخصيَّة بذاتها. فيَسهل أن نعترفَ، لكنْ يكادُ يَستحيلُ أن ندركَ

مُدَّةً طويلة، أنّنا مَرايا تألُّقُها- إذا كُنّا نَيِّرين- مُستمَدٌّ كلِّيًّا من الشَّمس التي تسطع علينا. يقينًا أنّه يجب أن نحوز مقدارًا قليلًا- مهما كان قليلًا- من التألُّق الأصليّ؟ يقينًا أنّه لا يمكن أن نكون مجرَّد خلائق؟

عِوَضًا عن هذا السُّخف المُتشابك بشأن احتياج- بل حُبّ احتياج أيضًا- لا يعترفُ البتّة اعترافًا كلِّيًّا بفقره وعوَزه، تؤتينا النِّعمةُ قُبولًا لاحتياجنا كاملًا وطُفوليًّا ومُبهجًا، ابتهاجًا بالاتِّكال الكُلّيّ. إذ ذاك نصير "مُتَسوِّلين مُبتهجين". فالإنسان الصالح مُتأسِّفٌ جدًّا من أجل الخطايا التي ضاعفَت احتياجَه. وهو ليس مُتأسِّفًا كلِّيًّا من أجل الاحتياج الجديد الذي أحدثته. وليس مُتأسِّفًا البتّة من أجل الاحتياج المُلازِم أساسًا لحالة كَونه مَخلوقًا. وقد حال دائمًا دون سعادتنا هذا الوَهمُ الذي تتشبَّث به الطبيعة بوصفه كنزَها الأخير، هذا الادِّعاءُ بأنّنا نملك أيَّ شيءٍ من عندنا وممّا لنا، أو نستطيعُ مدَّةَ ساعة واحدة أن نُحافظ بقوّتنا الذاتيّة على أيِّ صلاح قد يسكبه الله فينا. ولطالَما كُنّا مثلَ سبّاحين يُريدون أن يُبقوا على قعر البحر أقدامَهم- أو قَدَمًا واحدة أو مُقدَّمَ قَدَم واحدة- فيما يعني إفلاتُهم لموطئ القَدَم ذاك استسلامَهم لِثقلَبةٍ رائعة في الأمواج المُتكسِّرة. فإنّ نتائج إقلاعنا عن آخرِ مُطالَبة لنا بما نحن عليه جوهريًّا من حرِّيّة أو قُدرة أو اعتبار، هي حرِّيّةٌ وقُدرة واعتبارٌ حقيقيةٌ، نملكُها كلَّها بالفعل فقط لأنّ الله يُعطينا إيّاها، ولأنّنا نَعلم أنّها (بمعنًى آخر) ليست "ملكَنا". ها إنّ أنودوس (Anodos) قد تخلَّص من ظلِّه!

غير أنّ الله يُغيِّر أيضًا محبّة الاحتياج التي لَدَينا بعضنا نحوَ بعض، والأمرُ يقتضي تغييرًا مُماثلًا. وبالحقيقة أنّنا جميعًا نحتاج بعضَ الأحيان، وبعضًا منّا مُعظمَ الأحيان، إلى تلك المحبّة المُحسنة من قِبَل الآخرين، والتي لِكَونها المحبّة نفسَه فيهم تحبُّ مَن لا يُحَبُّون. ولكنّ هذه، رغمَ كَونها نوعًا من المحبّة نحتاج إليه، ليست النَّوعَ الذي نُريدُه. فنحن نُريد أن نُحَبَّ من أجل ذكائنا أو جمالنا أو سخائنا أو إنصافنا أو نفعنا. وأوَّلُ إلماعة إلى أنّ أحدًا ما يبذل لنا أسمى محبّة على الإطلاق هي صدمةٌ رهيبة. وهذا الأمرُ مُدرَكٌ جيِّدًا بحيثُ إنّ الأشخاص الحقودين سيَتظاهرون بأنّهم يحبُّوننا بالمحبّة المُحسنة، تحديدًا لأنّهم يعلمون أنّها ستجرحُنا. فأنْ تقولَ لشخص يَنتظرُ منك تجديدَ المَودّة أو الصَّداقة أو الحُبِّ الغراميِّ "إنّي أُسامحُكَ كمسيحيّ" أمرٌ لا يعدو كَونه طريقةً لمُواصَلة الخصام. والذينَ يقولون ذلك يكذبون من دون رَيب. غير أنّ ذلك ما كان لِيُقالَ زورًا بُغيةَ أن يجرح، إلّا إذا كان جارحًا لو كان صحيحًا.

أمّا مدى الصُّعوبة في أن نتلقّى- ونظلّ نَتلقّى دائمًا- من الآخرين محبّة لا تتوقّف على جاذبيّتنا، فيمكن أن يُرى من حالة قُصوى. تخيَّلْ أنّك رجُلٌ قد أُصيبتَ بُعَيدَ الزَّواج بمرض عُضال ربّما لا يُميتُك في غضونِ عِدَّة سنين؛ فغَدَوتَ عديمَ النَّفع وعاجزًا ومُنفِّرًا ومُقرِفًا؛ مُعتمدًا على ما تكسبُه زَوجتُك؛ مُفقرًا حيثُ كنتَ ترجو أن تكون مُغنيًا؛ مُضعَفًا حتّى في قواك العقليّة؛ تَهزُّك نوباتٌ من حِدَّة الطَّبع التي تفقدُ السيطرةَ عليها؛ كثيرَ الحاجات والمَطالب التي لا بُدَّ منها.

وتخيَّلْ أنَّ عنايةَ زوجتك وعطفَها لا يَنفدان. فالرَّجُل الذي يَستطيع أن يتقبَّل ذلك بطيبة خاطر، ويستطيعُ أن يتلقَّى كلَّ شيء ولا يُعطيَ أيَّ شيء بلا امتعاض، ويستطيعُ أن يمتنع حتَّى عن تعبيرات الاستخفاف بالذَّات المُضجرة التي ليست في الحقيقة سوى مُطالَبة بالتَّدليل وتجديد الطَّمأنة، يكونُ قائمًا بشيء لا يمكن أن تَبلغَه محبَّةُ الاحتياج في حالتها الطبيعيَّة المُجرَّدة. (لا شكَّ أنَّ زوجةً كهذه ستكونُ أيضًا قائمةً بشيءٍ خارجَ مُتناوَل مَحبَّة مَنح طبيعيَّة، ولكنَّ هذا ليس صَدَدَنا حاليًّا). ففي حالة كهذه يكون الأخذُ أصعبَ- وربَّما مُبارَكًا أكثرَ- من العَطاء. ولكنَّ ما يُوضِحُه هذا المَثَل الأقصى شاملٌ حقًّا. فنحن جميعًا نتلقَّى مَحبَّةً مُحسِنة. إذ إنَّ في كلٍّ منَّا شيئًا لا يمكن أن يُحَبَّ بصورة طبيعيَّة. وإنْ لم يحبَّه الآخرون، فلَيسَت الغَلطةُ غلطةَ أيٍّ منهم. فالمُحبَّبُون وحدَهم يمكن أن يُحَبُّوا بصورة طبيعيَّة. ألعلَّك أيضًا تطلبُ من الناس أن يحبُّوا طَعمَ الخُبز العَفِن أو صوت المِثقاب الآليّ؟ ومن المُمكن أن نُسامَح ونُرحَم ونُحَبَّ على الرُّغم من ذلك الشَّيء، بالمحبَّة المُحسِنة؛ وليس من سبيل آخر. فجميع الذين لهم آباءٌ- أو أُمَّهاتٌ أو زوجاتٌ أو أزواجٌ أو أولادٌ- صالحون، يمكنهم أن يتيقَّنوا بأنَّهم أحيانًا- أو ربَّما كلَّ حين في ما يتعلَّق بخَصلة أو عادة مخصوصة- يَتلقَّون محبَّةً مُحسِنة، إذ يُحَبُّون لا لأنَّهم مُحَبَّبون بل لأنَّ المحبَّة نفسَهُ هو في أولئك الذين إيَّاهُم يحبُّون.

وهكذا فإنَّ الله، إذ يُستقبَل في القلب البشريّ، لا يُغيِّر محبَّة المَنح فقط بل محبَّةَ الاحتياج أيضًا، وليس فقط محبَّة الاحتياج التي عندنا

له، بل أيضًا محبَّةَ الاحتياج التي عندَنا بعضِنا لبعض. ولا ريبَ أنَّ هذا ليسَ هو الأمرَ الوحيدَ الذي يمكن أن يحصل. فإنَّ الله قد يُقدِّمُ على ما يبدو إلينا مَهمَّة أشَقَّ ويطلب أن نتنكَّر كلِّيًّا لمحبَّة طبيعيَّة. إذ إنَّ دعوةً ساميةً وخطيرة، كدعوة إبراهيم، قد تَضطرُّ إنسانًا لأن يُديرَ ظهره لقَومه وبيت أبيه. فالغَرام، مُوجَّهًا إلى غَرَضٍ حَرام، ينبغي أن يُضحَّى به. وفي حالات كهذه يكون سهلًا فَهمُ الإجراء، وإن كان صعبًا احتمالُه. وما يُرجِّحُ أكثرَ أن نتغاضى عنه هو ضَرورةُ حُصولِ تغييرٍ حتَّى لو سمحنا باستمرار المحبَّة الطبيعيَّة.

وفي مثل هذه الحالة، لا يُحِلُّ الحبُّ الإلهيُّ ذاتَهُ محلَّ الحُبِّ الطبيعيّ- كما لو كان علينا أن ننبذَ فضَّتنا كي نُفسِحَ في المجال للذَّهب. إنَّما تُستَدعى المحبَّاتُ الطبيعيَّة لِيَصرنَ أشكالًا للمحبَّة المُحسِنة فيما يَبقَينَ أيضًا المحبَّاتِ الطبيعيَّة التي كُنَّ إيَّاها أصلًا.

هُنا يرى المرء في الحال نوعًا من الصَّدى أو القافيَة الشِّعريَّة أو الانعكاس للتجسُّد ذاته. ولا ينبغي أن يُفاجئنا هذا، لأنَّ مُنشئَ الأمرَين هو الشَّخصُ نفسُه. فكما أنَّ السيِّدَ المسيح هو إلهٌ كامل وإنسان كامل، تُدعى المحبَّاتُ الطبيعيَّة لتكون حُبًّا إلهيًّا كاملًا ومحبَّاتٍ طبيعيَّةً كاملة. وكما صار الله إنسانًا "لا بتَحوُّل اللَّاهُوت إلى بشَر، بل بتَقبُّل النَّاسوت من قِبَل الله"، فهكذا الحالُ هنا؛ فالمحبَّةُ الإلهيَّة لا تَتضاءلُ لتَصيرَ مجرَّدَ محبَّات طبيعيَّة، بل إنَّ المحبَّة الطبيعيَّة يتقبَّلُها المحبَّة نفسُه ويجعلُها أداتَهُ المُدَوزَنة والطيِّعة.

أمَّا كيف يمكن أن يحصل ذلك، فأمرٌ يَعلمه مُعظم المسيحيِّين. فإنَّ جميع أنشطة المحبّات الطبيعيَّة (باستثناء الخطايا وحدها) يمكن في ساعة رضًى أن تصيرَ أعمالًا لمحبَّة الاحتياج المُبتهجة وغيرُ المُتحرِّجة والعارفةُ بالجميل، أو لمحبَّة المنح اللَّاأنانيَّةُ وغيرُ الفُضوليَّة، وكلتا المحبَّتَين مُحسنة. وليس شيءٌ أكثرَ تفاهةً أو أكثرَ حيوانيَّةً من أن يُرَقَّى هكذا. فرُبَّ لُعبة أو نكتة أو مُنادَمة أو حديث سخيف أو نُزهة أو قضاء شهوة- يمكن أن تكون كلُّها طُرقًا بها نُسامِح أو نُسامَح، أو نُعزِّي أو نُعزَّى، وبها "نطلب ما ليسَ لأنفُسنا". وهكذا، في غرائزنا ومُشتَهياتنا وتَسلياتنا قد أعدَّ المحبَّةُ لنفسه "جسدًا".

غير أنّي قلتُ "في ساعة رِضًى". والساعاتُ سريعاتُ الانقضاء. فإنَّ التَّرقيَة الشاملة والآمنة لإحدى المحبّات الطبيعيَّة إلى شكلٍ من أشكال المحبَّة المُحسنة عَمَلٌ صَعبٌ جدًّا بحيثُ يُحتَمل ألَّا يكونَ أيُّ إنسانٍ ساقط قد أبصرَ على الإطلاق كيف يؤدِّيه على نحوٍ كامل. ومع ذلك فإنَّ القانون القائل إنَّ المحبّات يجب أن تُغيَّر وتُرقَّى هكذا هو في اعتقادي قانونٌ ثابتٌ لا هَوادةَ فيه.

إنَّما إحدى الصعوبات التي تُواجهنا هنا كالعادة تكمن في أنَّه يمكن أن نسلكَ مُنعطَفًا خاطئًا. فإنَّ دائرةً أو عائلةً مسيحيَّة- مسيحيَّةً على نحوٍ بالغِ الصراحة إلى حدٍّ ما- بعد أن تستوعبَ هذا المبدأ، قد تعرضُ مشهدًا غريبًا، في سلوكِ أفرادها ولا سيَّما في كلماتهم، يُوحي أنَّها أحرزَتِ الأمرَ بنفسها، مشهدًا مُتقَنًا ومُنمَّقًا ومُربِكًا وغير

مُحتمَل. أناسٌ كهؤلاء يجعلون كلَّ أمرٍ تافهٍ مسألةً ذاتَ أهمِّيَّة روحيَّة مُبينَة- جَهرًا بعضُهم أمامَ بعض (أمَّا أمامَ الله، جاثينَ على رُكَبهم، خلفَ بابٍ مُغلَق، فتلك قضيَّةٌ أخرى). وهم دائمًا، بغيرِ داعٍ، يطلبون المُسامَحة، أو يُقدِّمونها على نحوٍ لا يُطاق. ومَن منَّا لا يؤثِرُ أن يعيشَ بالأحرى مع أولئك القوم العاديِّين الذين يستظهرون على نَوبات غضبهم (وغضبنا) بطريقة تخلو من تَوكيد الذَّات، إذ يَدَعون وجبةَ طعام، أو ليلةَ مَنام، أو نُكتةَ كلام، تُسوِّي كلَّ أمر؟ فمن بين أعمالنا كلِّها، يجب أن يكون العمل الحقيقيُّ هو العملَ الأكثرَ سرِّيَّة- بل أيضًا السرِّيَّ بالنِّسبة إلى أنفُسنا قَدْرَ المُستطاع. إذ إنَّ يُمنانا يجب ألَّا تعرف ما تعمله يُسرانا. ولا نكون قد قطعنا شوطًا كافيًا إذا لاعَبْنا الأولادَ بلُعبة وَرَق "لمجرَّد" أن نُسلِّيَهم أو نُبيِّن لهم أنَّنا قد سامحناهم. إن كان هذا أفضلَ ما نستطيع أن نقومَ به، فنحن على حقٍّ في القيام به. ولكنْ يكونُ أفضلَ إذا طرحَتْنا محبَّةٌ مُحسنةٌ أعمقُ وأقلُّ وعيًا داخلَ إطارٍ ذهنيٍّ فيه يكون شيءٌ من المَرَح مع الأولاد هو الأمرَ الذي ينبغي أن يَروقَنا في ذلك الحين أكثرَ الكُلّ.

ولكنَّنا في هذا العمل الضَّروريِّ نجد عَونًا كبيرًا في مَزيَّة اختبارنا تلك التي نشكو منها أكثرَ من سواها. فإنَّ الدَّعوة إلى تحويل محبَّاتنا الطبيعيَّة إلى محبَّة مُحسنة لا تفتقر إلى تأكيد البتَّة. إذ إنَّها تتوافر من جرَّاء تلك الاحتكاكات والإخفاقات التي تُواجهنا فيهنَّ جميعًا؛ وفي هذا دليلٌ مُبينٌ على أنَّ الحبَّ الطبيعيَّ لن يكون "كافيًا"- مُبينٌ إلَّا

إذا كانت الأنانيَّة قد أعمَتْ بَصائرنا. فحين نكونُ كذلك، نستخدمُ تلك المحبَّات بطريقة سخيفة. "لو أنّي كنتُ محظوظةً أكثرَ بأولادي (فذلك الوَلَد يصير أكثر شبهًا بوالده كلَّ يوم) لَكانَ في وُسعي أن أحبَّهم حبًّا كاملًا". ولكنَّ كلَّ وَلَد يكون مثيرًا للسُّخط بعضَ الأحيان؛ ومُعظَم الأولاد يكونون بَغيضين أحيانًا غيرَ قليلة. "لو أنَّ زوجي كان أكثرَ مُراعاةً لحُقوقي ومَشاعري، وأقلَّ كسلًا، وأقلَّ تبذيرًا..." "لو أنَّه كان لزَوجتي نَوباتُ غَضَب أقلُّ وكانت أكثرَ مُراعاةً لحقوقي ومشاعري وأقلَّ تبذيرًا..." "لو أنَّ أبي لم يكُن مُضجرًا وبخيلًا على هذا النَّحو الخبيث..." ولكنَّ في كلِّ إنسان- وفينا نحنُ بالطَّبع- ما يتطلَّبُ الصَّبرَ والرِّفقَ والصَّفح. فإنَّ وُجوبَ مُمارسة هذه الفضائل أوَّلًا يدفعُنا، بل يُرغمنا، أن نُباشِر السَّعيَ لأنْ نُحوِّل- بل بتعبيرٍ أدقَّ: لأنْ نَدَعَ الله يُحوِّل- حُبَّنا إلى محبَّة مُحسِنة. وتلك الإغاظاتُ والاحتكاكاتُ تؤول إلى نفعٍ جزيل؛ بَل حيثُ تقلُّ هذه كثيرًا فرُبَّما يكون تحويلُ المحبَّاتِ الطبيعيَّة هو الأصعَب. فحينَ تكون وافرة، يبدو وجوبُ الارتفاع فوقَهُنَّ جليًّا. وأن نرتفعَ فوق محبَّة طبيعيَّة ما حين تكونُ مُشبَعةً تمامًا ومُعوَّقةً قليلًا بقَدْرِ ما تسمح به الظُّروفُ الأرضيَّة- أن نُدركَ أنَّ علَينا أن نرتفع فوقَها فيما يبدو كلُّ شيءٍ بخيرٍ أصلًا- أمرٌ قد يتطلَّب تحويلًا ألطفَ وبصيرةً أرهَف. ومن هذه الناحية أيضًا، قد يكون من الصَّعب على "الغنيِّ" أن يدخلَ الملكوت.

ومع ذلك أعتقِدُ أنَّ وُجوبَ التَّحويل أمرٌ حتميٌّ حقًّا؛ على الأقلِّ

إذا كان لمحبَّاتنا الطبيعيَّة أن تدخلَ الحياةَ السَّماويَّة. أمَّا أنَّها تستطيعُ أن تدخلَها فأمرٌ يؤمن به مُعظمُنا. ولنا أن نرجوَ أنَّ قيامةَ الجسد تعني أيضًا قيامة ما يمكن أن يُدعى "جسدَنا الأكبر"؛ أي مُجمَل كِيان حياتنا الأرضيَّة بعواطفها وعلاقاتها. ولكنْ على شرط؛ ليس شرطًا وضعَه الله اعتباطيًّا، بل شرطٌ قائمٌ بالضَّرورة في طبيعة السماء: أنَّه لا يمكن أن يدخُلَ إلى هناك أيُّ شيءٍ لا يمكن أن يصيرَ سماويًّا. فإنَّ "اللَّحم والدَّم"، أي مُجرَّدَ الطبيعة، لا يمكن أن يَرِثَ ذلك الملكوت. وفي وُسع الإنسان أن يصعدَ إلى السماء، فقط لأنَّ السيِّد المسيح الذي مات (وقام) وصعد إلى السماء قد "تَصوَّرَ فيه". أفَيَجبُ ألَّا نفترضَ أنَّ الأمرَ عَينَه يصدقُ على محبَّات الإنسان؟ إنَّ تلك التي دخلَها المحبَّةُ نفسُه سوف تصعد إلى المحبَّة نفسه. وهذه يمكن أن تُقامَ معه جميعًا إنْ كانت- بدرجة وطريقة ما- قد اشتركَتْ في موته: إنْ كان العُنصرُ الطبيعيُّ فيهنَّ قد أُخضِعَ للتَّحويل والتَّرقية، سنةً بعدَ سنة أو في نَوبة تغييرٍ مُفاجئة. إنَّ هيئة هذا العالَم تزول؛ واسم الطبيعة بحدِّ ذاته يتضمَّن زوالَ الأمور. ففي وُسع المَحبَّات الطبيعيَّة أن ترجوَ البقاءَ في الأبديَّة فقط بمقدارِ ما تكون قد سمحَتْ لأنفُسها بأن تُؤخَذَ إلى عُمقِ أبديَّة المحبَّة الإلهيَّة؛ أو على الأقلِّ قد سمحَت لهذه العمليَّة بأن تبدأ هُنا على الأرض، قبل أن يأتيَ اللَّيلُ الذي فيه لا يقدرُ أحدٌ أن يعمل. ولَسوفَ تشتملُ العمليَّة دائمًا على نوعٍ من الموت. ولا مَفرّ. ففي محبَّتي لزَوجتي أو صديقي، يكونُ الحضورُ المُحوَّلُ من قِبَل المحبَّة

نفسه هو العنصرَ الأبديَّ الوحيد. بذلك الحضور، إن وُجدَ أصلًا، يُمكن للعناصر الأخرى أن تَرجوَ- كما ترجو أجسادُنا الطبيعيَّة- أن تُقامَ من بين الأموات. فإنَّ ذلك وحدَه مُقدَّسٌ، ذلك وحدَه هو الرَّب.

تساءلَ اللَّاهوتيُّون أحيانًا عن كَوننا "سنَعرفُ بعضُنا بعضًا" في السماء، وعن علاقات المحبَّة المخصوصة التي أُقيمَت على الأرض هل يبقى لها أيَّةُ أهمِّيَّة هُناك. فيبدو منطقيًّا أن نُجيب: "قد يتوقَّف الأمرُ على أيِّ نوع من المحبَّة قد صارت- أو كانت صائرةً- على الأرض". فمن غير ريب أنَّ التقاءَك في العالَم الأبديِّ شخصًا كانت محبَّتُك له في هذا العالَم طبيعيَّةً فحسب، مهما كانت قويَّة، لن يكون (على ذلك الأساس) أمرًا مُشوِّقًا أدنى تشويق. ألَن يكونَ ذلك مثلَ التقائك في حياتك وأنت راشدٌ شخصًا كان قد بدا لك صديقًا عظيمًا في مدرستك الإعداديَّة، فقط من أجل الاهتمامات والانشغالات المُشتركة؟ إن لم يكُن ما يتخطَّى ذلك؛ وإن لم يكُن شقيقَ رُوح لك، فسيَكون الآن غريبًا تمامًا. فلا أحدَ منكما يلعب الغُمَّيضة بَعدُ. وما عُدتَ تُريد أن تُقايضَ مُساعدتَك له في تمارين اللُّغة الفرنسيَّة بمساعدته لك في فَرض الحساب. ففي السماء، على ما أظنّ، ستَكونُ محبَّةٌ لم تُجسِّد المحبَّةَ نفسَه خارجةً عن الموضوع على السواء. وذلك لأنَّ الطبيعةَ تكونُ قد زالت. فكلُّ ما لَيس أبديًّا سيَكون إذ ذاك قد باتَ عتيقَ الطِّراز.

إنَّما لا ينبغي أن أختمَ الموضوع بهذه الفكرة. فلستُ أجرؤ- ولا سيَّما لأنَّ ما لديَّ من أشواقٍ ومخاوفَ تحفزني على ذلك- أن أترُك

قارئي المفجوع أو المُوحَش راسخًا على التوهُّم الشائع بأنَّ التِئامَ الشَّمْل مع الراحل العزيز هو هدفُ الحياة المسيحيَّة. قد يبدو إنكارُ هذا فظًّا وغيرَ حقيقيٍّ في مسامع الحزانى المفطُوري القُلوب، ولكنْ لا بدَّ من إنكاره.

قال القدِّيس أُغسطينوس: "لقد خلقتَنا لنفسك، ولن تستريحَ قلوبُنا حتَّى ترجعَ إليك". ولئن كان سهلًا أن نؤمن بهذا لُحيظةً قُدَّام المذبح، أو ربَّما في غابة ربيعيَّة حيث يكون المرءُ مُستغرقًا في شبه صلاة وتأمُّل، فإنَّه يبدو أمرًا مُثيرًا للسُّخرية بقُربِ فِراش الاحتضار. ولكنَّنا سنَكون أكثرَ بكثير عُرضةً للسُّخرية بحقّ، إن كنَّا، بسلوكنا هذا السبيل، نُعلِّق عزاءنا- رُبَّما مُستعينين أيضًا بجلسات استحضار الأرواح- على أمَلٍ تمتُّعنا ذاتَ يوم، وإلى الأبد هذه المرَّة، بمحبوبنا الأرضيِّ من جديد، ليس غير. فمن الصَّعب ألَّا نتصوَّر أنَّ مثلَ هذه الإطالة التي لا تنتهي للسعادة الأرضيَّة ستكونُ مُسرِّةً إلى التمام.

ولكنْ- إن كان لي أن أُعوِّلَ على اختباري الشخصيِّ- يَبلغُنا فورًا إنذارٌ جليٌّ بأنَّ هنالك خطأً ما. فلحظةَ نُحاولُ أن نستخدمَ إيمانَنا بالعالَم الآخر لأجل هذه الغاية، يضعُفُ ذلك الإيمان. والأوقات التي مرَّت في حياتي وكان هذا الإيمان في أثنائها قويًّا بالحقيقة، كانت كلُّها أوقاتًا فيها شغلَ الله المركزَ الأساسيَّ في أفكاري. فإذ كان إيماني به فعَّالًا، تسنَّى لي إذ ذاك أن أُومنَ بالسماء باعتبارها نتيجةً حتميَّة. ولكنْ لن تُجديَ نفعًا العمليَّة العكسيَّة: الإيمانُ أوَّلًا بالتئام الشَّمل مع الراحلين

الأعزّاء، ثُمَّ الإيمانُ بالسَّماء من أجل التئام الشَّمل ذاك، وأخيرًا الإيمانُ بالله من أجل السَّماء. لا ريبَ أنَّ في وُسع المرء أن يتخيَّل الأمور. ولكن مَن كان شخصًا ناقدًا للذَّات، فلا بدَّ أن يتنبَّه باطِّراد إلى أنَّ التخيُّل الناشط هو من عِنده؛ وهكذا يعرفُ أنَّه ينسجُ صورةً خياليَّة فحسْب. ثُمَّ إنَّ ذوي النُّفوس الأكثر بساطةً سيَجدون التخيُّلات التي يُحاولون أن يَقتاتوا بها خاليةً من كلِّ عَزاء وغذاء، ولَن تُحفز لتَغدوَ أشباهًا للحقيقة من نوع ما إلَّا بمُحاولات تنويمٍ مَغناطيسيٍّ ذاتيٍّ يُرثَى لها، وربَّما من طريق الاستعانة برُسومٍ أو تَراتيلَ وضيعةٍ أو باللُّجوء إلى السَّحرة (وهذا هو الأسوأ).

وهكذا يتبيَّن لنا بالاختبار أنْ لا نفعَ يُرجى من اللجوء إلى السَّماء طلبًا للعزاء الأرضيّ. ففي وُسع السماء أن تُعطيَ عزاءً سماويًّا، دون أيِّ نوعٍ آخر. ثُمَّ إنَّ الأرضَ لا يَسَعُها أن تُعطيَ عزاءً أرضيًّا أيضًا. فلَيس من عزاءٍ أرضيٍّ في نهاية المطاف.

فإنَّ حُلمَ وصولنا إلى غايتنا- إلى ما قد خُلقنا لأجله- في سماء حبٍّ بشريٍّ صِرف حُلمٌ لا يمكن أن يغدوَ حقيقةً إلَّا إذا كان مُجمَلُ إيماننا خاطئًا. والحالُ أنَّنا قد خُلقنا لأجل الله. فما من مَحبوبٍ أرضيٍّ أيقظَ محبَّتَنا إلَّا بكَونه يُشبهُ اللهَ من ناحيةٍ ما، إلَّا بكَونه صورةً فيها يتجلَّى جمالُ الله أو رحمتُه أو حكمتُه أو صلاحُه. ليس أنَّنا قد أحبَبنا أمثالَ هذا المحبوب حبًّا جاوزَ الحَدَّ، بل إنَّنا لم نُدركْ تمامًا ما كُنَّا نحبّ. ولن يُطلَبَ منَّا أن ننصرفَ عنهم- وهُم مَألوفون عندنا على نحوٍ عزيزٍ

جدًّا- إلى شخصٍ غريبٍ عنَّا. فحين نَرى وجهَ الله هناك، سنعلَم أنَّنا كنَّا نعرفه كلَّ حين. فإنَّه كان مُشارِكًا لنا في جميع اختباراتنا الأرضيَّة للحُبِّ البريء، وقد أنشأ هو ذلك الحبَّ وأمدَّه بأسباب البقاء وتحرَّك داخلَهُ لحظةً فلحظة. وكلُّ ما كان حُبًّا حقيقيًّا في تلك الاختبارات، كان حتَّى على الأرض ملكَهُ تعالى أكثرَ بكثيرٍ جدًّا ممَّا كان ملكًا لنا، وهو إنَّما كان ملكَنا لأنَّه كان ملكه هو. ولن يكونَ في السَّماء أيُّ كَرْب، ولا أيُّ اضطرارٍ إلى الانصراف بعيدًا عن أحبَّائنا الأرضيِّين. أوَّلًا، لأنَّنا سنكونُ فعلًا قد انصرَفْنا بعيدًا: إلى الأصل عَن الصُّوَر الشخصيَّة؛ إلى النَّبع عنِ الجَداول؛ إلى **المحبَّة** نفسه عَن الخلائق الذين جعلهم مُحَبَّبين. ولكنْ ثانيًا، لأنَّنا سوف نجدهم كُلَّهم في الله. فإذ نحبُّه أكثرَ ممَّا نحبُّهم، فسوف نحبُّهم أكثرَ ممَّا نحبُّهم الآن.

ولكنَّ ذلك كلَّه بعيدٌ جدًّا، في مَوطنٍ ناءٍ ''ببلاد الثالوث الأقدس''، لا هنا في المنفى، في وادي البُكاء. فكلُّ ما في هذه الدُّنيا خسارةٌ ونُكران. وربَّما كانت الغاية المخصوصة من فُقداننا لأحبَّائنا (ما دام يؤثِّر فينا شخصيًّا) هي أن يُرسِّخ هذه الحقيقةَ عندَنا. فإذ ذاك نُضطرُّ لأنْ نحاولَ أن نؤمنَ بأنَّ الله هو حبيبُنا الحقيقيّ. لهذا السَّبب يكونُ فقدانُ الأحبَّاء، من بعض النواحي، أسهلَ على غير المؤمن ممَّا هو علَينا. ففي وُسعه أن يستشيطَ غضبًا وغيظًا ويهزَّ قبضتَه في وجه الكون، وأن يكتبَ (إذا كان عبقريًّا) قصائدَ على غِرار قصائد هاوسمان (Houseman) وهاردي (Hardy). أمَّا نحن، في أدنى حالة انحطاطٍ

عندنا، حينَ يبدو أيسرُ جَهدٍ أكبرَ من أن نقوم به، فيجب أن نبدأ بمحاولة القيام بأمورٍ تبدو من المُستحيلات.

سأل كاتبٌ قديم: "أسَهْلٌ أن نحبَّ الله؟" ثَمَّ أجاب: "هوَ سهلٌ على الذين يحبُّونه" ولقد أدرجتُ نعمتَين تحت تعبير "الحُبّ الإلهيّ" أو "المحبَّة المُحسنة". غير أنَّ الله يستطيع أن يُعطيَ نعمةً ثالثة. إذ يستطيع أن يُوقظَ في الإنسان، نحوَ ذاته تعالى، حبًّا تقديريًّا فائقًا للطبيعيّ. وهذه، بينَ جميع العطايا، هي التي ينبغي أن نتوقَ إليها أكثرَ الكُلّ. هُنا، لا في محبَّاتنا الطبيعيَّة، ولا حتَّى في أخلاقيَّاتنا، يكمنُ المركزُ الحقيقيُّ لكلِّ حياةٍ بشريَّة وملائكيَّة. بهذا، كلُّ شيءٍ مُستطاع.

وبهذا أيضًا- حيثُ من شأنِ كتابٍ أفضلَ أن يبدأ- لا بدَّ أن ينتهيَ كتابي هذا. فلا أستجرئُ أن أمضيَ قُدُمًا. ويعلَمُ الله، لا أنا، هل ذُقتُ هذا النَّوعَ من المحبَّة مرَّةً. فربَّما تصوَّرتُ التذوُّقَ فحسْب. وأولئك الذين، على شاكلتي، يسمو خيالُهم كثيرًا فوق طاعتهم، هم عُرضةٌ لجزاءٍ عادل؛ فما أسهل أن نتخيَّلَ أحوالًا أسمى بكثيرٍ ممَّا قد بلغه أيٌّ منَّا فعلًا. وإن وصفنا ما قد تخيَّلناه، فقد ندفع الآخرين، وأنفُسَنا، نحو الظنِّ بأنَّنا كُنَّا هناك حقًّا. ثُمَّ إذا كنتُ فقط قد تخيَّلتُ ذلك، أفَلَيس توهُّمًا آخَرَ أنَّ التخيُّل بحدِّ ذاته قد جعلَ في بعض اللحظات كلَّ غَرَضٍ مُشتهًى آخر- حتَّى السَّكينةَ وتبدُّدَ المخاوف- يَبدو أشبهَ بدُمًى مُحطَّمة وأزهارٍ ذاوية؟ ربَّما. وربَّما كان كلُّ اختبار، بالنِّسبة إلى كثيرين منَّا، يُحدِّد مجرَّد تحديدٍ- إن جاز التعبير- شكلَ الثُّغرة التي كان واجبًا

إن يسدَّها حبُّنا لله. إنَّما ذلك غيرُ كافٍ، بل هو شيءٌ ما. فإن لم يكن في وُسعنا "أن نُزاولَ حضورَ الله"، يكون شيئًا ما أن نُزاولَ غيابَ الله، أن نصيرَ واعين باطِّراد لعدم وَعينا حتَّى نشعُرَ شعورَ أُناسٍ قد يقفون بقُرب شلَّالٍ هائل ولا يسمعون أيَّ صوت، أو شعورَ رجُلٍ في قصَّةٍ ينظر في مرآةٍ فلا يجد أيَّ وجه فيها، أو شعورَ إنسانٍ في حُلُمٍ يمدُّ يده إلى أشياءَ مَرئيَّة فلا يكونُ لديه أيُّ إحساسٍ لَمْس. وأن يعرفَ المرءُ أنه يحلُم هو ألَّا يكونَ بعدُ نائمًا نومًا تامًّا. أمَّا في سبيل الحصول على أخبارٍ عن عالَم اليقظة، فعليك أن تتوجَّه إلى مَن يفوقونني علمًا وخبرة.

C. S. Lewis.

كلاسيكيَّات سي. أس. لِويس

(The C. S. Lewis Signature Classics)

أسرَ سي. أس. لِويس أجيالًا من الأولاد برائعته "روايات عالَم نارنيا" المؤلَّفة من سَبع رواياتٍ كلاسيكيَّة مُتتامَّة، فيها يُلاقي السِّحرُ الحقيقة، وينتصرُ الخيرُ على الشرّ. غير أنَّه كتبَ ما يفوق ثلاثين كتابًا مصمَّمةً في معظمها لإلهام جمهورٍ من القُرَّاء الراشدين، وقد أحرزَ بِحقٍّ صيتًا فريدًا باعتباره الكاتبَ الروحيَّ الأوسع تأثيرًا في زمانه. وسلسلةُ "كلاسيكيَّات سي. أس. لِويس" تأتي بِنُخبةٍ من أشهر كُتُب المؤلِّف إلى القرنِ الحادي والعشرين لجيلٍ من الناس جديد يلتمسُ السَّكِينةَ والإلهامَ في عالَمٍ محمومٍ دائمِ التغيُّر.

كتاب "المحبَّات الأربع" هو أحدُ كُتُب هذه السلسلة، وقد صدرَ عنها أيضًا:

المسيحيَّة المجرَّدة

كتابٌ كلاسيكيٌّ من القرن العشرين، كتبه سي. أس. لِويس، يعرض فيه ملخَّصًا لِمَا آمن به المسيحيُّون عبر تاريخ المسيحيَّة. يستخدم لِويس في هذا الكتاب الفلسفةَ وتوضيحاتٍ عميقةً ومنطقًا بارعًا ينقلُ بها أفكارَه. مُبتَدئًا بالدِّفاع عن وجود الله، يستمرُّ لِويس في عرضِ أعماق الإيمان المسيحيِّ في سلسلةٍ من المقالاتِ التي غيَّرتْ حياةَ وأفكارَ عددٍ لا حصرَ له من القُرَّاء خلال النصف الثاني من القرن الماضي.

وتأتي هذه الترجمة إلى العربيَّة ليَنتفعَ بها قُرَّاؤها الذين بينهم بدأ الإيمانُ المسيحيُّ قبل ألفَي سنة.

رسائل خُربُر

كتابٌ كلاسيكيٌّ حولَ "آخر ابتداعات الجحيم وجواب السماء القاطع".

أمتعَتْ هذه التحفة الأدبيَّة الكثير من القُرَّاء، وأنارَتْ لهم جوانبَ في العالَم غير المرئيِّ بِتَصويرها المُبدع والساخر للحياة البشريَّة، ونقاط ضعفها من منظور "خُربُر"، وهو مساعدٌ رفيعُ الشأن لإبليس "أبِ العالَم السفليّ". في عملٍ أصيل وساخر تمامًا يقدِّم إلينا سي. أس. لِويس رسائلَ الشيطان المتقدِّم في السنِّ والخبرة، والتي أرسلها إلى ابن أخيه "علقم"، وهو شيطانٌ مُبتدئٌ مسؤولٌ عن ضمان هلاكِ شابٍّ عاديّ. "رسائل خُربُر" أكثرُ روايةٍ جاذبيَّةً كُتِبت عن التَّجربة والانتصار عليها.